أميرة بابلية

(ماري تيريز أسمر)

ترجمة وتحرير : أمل بورتر

الكتاب : أميرة بابلية (ماري تيريز أسمر)

ترجمة وتحرير : أمل بورتر

الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع : ١٩٥٤١ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 291 -5

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



أميرة بابلية

(ماري تيريز أسمر)

اكتشاف لسيرة ورصد لنجمة أشعّت من سماء تلكيف إلى ثقافات الدنيا

مخبأة في مدونات القرن التاسع عشر

ترجمة وتحرير :

أمل بورتر

مقدمة الكتاب

ثمة شخوص في التاريخ العراقي نُسيتْ أو فُرِض عليها النسيان والتجاهل والتهميش، في لُجّة قرون التخلف العِجاف أو غياب "المصلحة" في إماطة اللثام عنها... وحدث أن فعلتْ الصدفة البحثية دورها بالوقوع على أسماء وسِير تناءت عنها السنون، وضمر بشجونها الدليل والأثر أو تشتَّت أشلاءَ في بطون المراجع. وهكذا نقع على أخبار بشر يُعتد بسيرتهم، وتعلو الهامات بعلمهم ومناقبهم ومواهبهم.

إن تنشيط البحث والحث عليه، يكرِّس الاعتزاز بالذات العراقية المهلهلة حاليًا، ويصبّ في غايات كتابة التاريخ الحقيقي للفرد والجموع العراقية، ويوظف في تنشيط الذاكرة، ومعرفة الذات، ويساعد في إشاعة التنوير ووضع الحلول لمشرق وقادم الأيام.

ولكن ما الذي دعاني إلى البحث عن شخصية من تلك الشخصيات المنسية وكيف وجدتها ؟

في زيارة إلى سويسرا ، وفي بيت أحد الأصدقاء ، وأنا أقلِّب الكتب الكثيرة في مكتبته ؛ وقع بين يدي كتيب صغير عنوانه "تلكيف" مطبوع سنة ١٩٦٩م. تذكرتُ هذه السنة ، إذ حينها كانت قد مرّت سنة على حُكم البعث ، كانت سنة وتلتها سنوات مليئة بالكوابيس لي ولعائلتي ، تصفحتُ الكتاب ومؤلفه - قِسّ لا أتذكر اسمه - وبدأتُ أقرأ بسرعة فوجدتُ سطرًا أثار اهتمامي وآلمني في الوقت نفسه ، إذ يقول: (مِنْ شخصيات تلكيف "ماري تيريز أسمر" ، وُلِدتْ سنة ١٨٠٤م وهي رحّالة ألَّفت كتابًا باللغة الإنجليزية ، ولكنها بالغت إذ وصفت بيت والدها وقالت : إنه بحجم قصر اللوفر)...

حزَّ في نفسي أن يذكر رجل الدين سطرًا واحدًا وبصفة انتقادية لامرأة من طينته سافرت إلى أوربا وتؤلِّف كتابًا - كما يقول - باللغة الإنجليزية ، ألم يكن هناك شيءٌ آخر يثير الاهتمام بكتاب هذه المرأة سوى هذا السطر الذي وصفه بالمبالغة ؟!

قرّرتُ أن أبحث عن هذا الاسم ، وبدون أن أضيع الوقت إذ في هذا الزمان أستطيع أن أجوب العالم بدقائق عن طريق الشبكة العنكبوتية ؛ كما يُطلق على الإنترنت ، وبما أن كتابها قد تُرجِم إلى اللغة الإنجليزية فلا بد أن المكتبة البريطانية تحتفظ به ،

وفعلاً خلال دقائق ظهرت لي ملفات المكتبة البريطانية وفهارسها التي تقول :
(مذكرات أميرة بابلية: ماري تيريز أسمر)

وبدأتُ رحلة البحث عن ماري تيريز أسمر ما بين فروع المكتبة المزروعة في حقول "يوركشر" والمقر الرئيسي في "لندن" إلا أنني وجدت ضالتي، ومن ثم التعرف عليها، حبيسة جدران المكتبة البريطانية، ورأيتُ صورتها في مقدمة الكتاب، هذه المرأة هي إحدى الشخصيات التي تم تناسيها وتجاهلها وإهمالها، امراه من تلكيف العراق يعرفها الغرب بـ"الأميرة البابلية" ، وُلِدت عام ١٨٠٤م في خيمة بين خرائب "نينوى" حسبما تصف هي ذلك في كتابها النادر والثمين والذي تحتفظ به المكتبة البريطانية بكل اعتزاز ولا تريده أن يفارق بنايتها، والذي يقع في جزأين بحوالي ٧٥٠ صفحة، والصادر في أيار سنة ١٨٤٤م.

عاشت ماري تيريز أسمر وأدلت دلوها قبل قرنين من السنين، وتركت لنا أسفارًا بالإنكليزية عن شجون عراقية محضة ، صادقة ومرهفة ، دوَّنت في ثناياه سجلاً غنيَا عن حياة الأيام التلكيفية والموصلية والبغدادية ، وعن "عين كبريت" و"دير ربان هرمز" ، وعن شجون الزُرَّاع والحياة مع البدو.

وتدلُّ قراءة مدوناتها عن وجود مبادرات ذاتية فُرِض عليها النسيان والإهمال في التاريخ العراقي المُعتم ، يجدر تسليط الضوء عليها ونشرها.

التقطتُ الكتاب بيدي المتواضعتين، وضعتُ كفي على صفحاته مرّرتها وأنا أحس برهبة ووجل ونوع من الخشوع تجاه امرأة شابة من بلادي تغادر وادي الرافدين ، تسافر عبر الصحاري ، وتخترق وديانًا ، وتمرّ بجبال ، تزور خلالها سوريا وفلسطين ولبنان ، ثم تذهب إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وتمرّ بفترات ضيق؛ لكنها تقاوم ، تقابل أشرافًا وأمراءَ وملوكًا والبابا، وتؤلّف الكتب وتترجم ، وتطبع كتبها سنة ١٨٤٤م... تكلمت بلغات كل تلك الشعوب ، فقد نطقتْ بالعربية والسريانية والعبرية واللاتينية والتركية والكردية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية.

أيعقل هذا ؟ في الوقت الذي كان العراق بأكمله يغطّ في سُباتٍ عميق ويعاني من الحكم العثماني الجائر، وهذه الفتاة تتحدى وتطالب بمدرسة للفتيات ، تزور أخت الباشا حاكم مدينة الموصل وبمفردها ترافق قافلة كبيرة جدًا ، وتقطع الصحراء إلى سوريا ثم فلسطين ولبنان ومنها إلى أوربا ، تعمل كمرافقة للأميرة اللبنانية الشهابية وتسكن قصر بيت الدين في لبنان ،

وهناك في ذلك القصر الشامخ تؤلف وتخرج وتمثل مسرحية بلقيس ملكة سبأ ، وتقوم هي بدور سليمان ، وبهوى وإجلال نابعين من الصميم تتحدث عن الدروز.

في كل سطر تجدها تبوح بشغف عن الانتماء لأرض الرافدين وهذا الاعتزاز بكل صغيرة وكبيرة شيء مذهل ، خاصة حينما يصدر عن امرأة من تلكيف ، تلك المدينة الصغيرة التي فُرض عليها القهر والتعسف والتي تقبع غصباً عنها على هامش التاريخ والجغرافيا. ولكن ماري تيريز أسمر تتباهى بكل ما له علاقة بتلكيف ، بالعامل والبنّاء ، وتصف كيف تعمر البيوت وكيف يتم إنجازها في أيام قلائل ، وتصف كيفية تبييض وتلييس الجدران ، وتذكر خامات وعناصر البناء وتسقيف البيوت ، وتصف الحوش وحديقة الدار والبادكير والتختبوش ، وكأنها كانت تعمل بنفسها، ما يدل على حرصها ودقة متابعتها لما يدور في وطنها وفي البيئات المختلفة منه... تتحدث عن برج بابل وعن نينوى بفخر واعتزاز ، وبحرارة وصدق وألم وندم ، حتى قبل الشروع في عصر الحفريات في العراق وإماطة اللثام عن آثاره بسنين ، كما وتذكر أيام الضيق وانتشار الأوبئة ، وتعرج على الاضطهاد والتحيز الديني أو الطائفي ، وتقف

عنده وتشرح تفاصيله ، ولكنها لا تغفل أن تحيَي أيام الانفتاح والتسامح والرخاء والعز أيضًا.

هل ألومها لو قالت إنها أميرة بابلية ؟

لا والله العظيم ، إنها أميرة وتستحق الإمارة بكل جدارة ، لأنها وضعت بلدها في قلبها وعلى لسانها ، وحدَّثت الأمراء والملوك والنبلاء في أوربا قبل أن يستطيع أي رجل من وادي النهرين (ما بين النهرين) أن يفعل ذلك ، وثانياَ لقب الإمارة كان من صفات شيوخ القبائل ، فنجد أمير الكويت وأمير المحمرة وأمير نجد وأمير حائل ، وهذا ما كان متعارفًا عليه في العراق أيضًا مثل أمير ربيعة ، وأمير المحمرة ، وهم شيوخ قبائل.

هذه المرأة تستحق أن تُحيّا بتحية خاصة ، وأفضل تحية لهذه المرأة الرائعة هو أن أقدِّمها للقارئ والقارئة بتفاصيل أدق ، إذ بعد ترجمتي لكتابها الذي يقع في ٧٥٠ صفحة شعرتُ أن ماري تيريز أسمر هي البعيدة القريبة ، الممتنعة السهلة ، الواضحة العصية ، الغريبة والحميمة ، تتحدث عن خلجات وتصف حوادث ليست غريبة عن أبناء وادي الرافدين ، الذين تمتعوا وارتووا أو غصوا بماء دجلة والفرات ، وفي الوقت نفسه هي بعيدة في العمق الزماني والمكاني... كسرت حواجز الصمت

وخرجت عن الأطر التقليدية بكافة صيغها، وخاصة في السفر والترحال والعمل، وأخيراً وأهم من كل هذا في أسلوب الكتابة ومضمونها، أسلوبها في الكتابة حديث جدًا، كأنك تقرأ كتابًا لأديب معاصر، تستعرض الحاضر وتقود القارئ بيسر وسهولة إلى الماضي، تعتمد التشويق السلس غير المثير بشكل عام، ولكنها في الوقت نفسه تحفِّز القارئ للمتابعة، تخلط أوراق الحاضر بذكريات الماضي بعفوية وصدق وبدون تكلف، كتابتها تدلُّ على عمق تجربتها الأدبية لأنها قرأت الكثير، مَنْ لا يقرأ لا يكتب، رغم أنها تحدِّثنا عن تجربتها إلا أننا نشعر وكأننا جزء من تلك التجربة، تقحمنا في عالمها، وتدخل عالمنا المعاصر بكل حرية وكأنها واحدة من بنات هذا الجيل، وتجعلنا نغوص في الحوادث اليومية التي تمرّ بها وكأننا شركاء لها، مقنعة جدًا في طرحها لكل صغيرة وكبيرة مما يدور حولها نجد الحميمية والقرب والدفء في استعراضها لما يجري حولها دقة التفاصيل تفرض علينا أن نكون ضمن الإطار الذي فرضته علينا، ونكون معها فيه ونحس بما تقول، تجعل القارئ يشعر أنها جليسته تحدثه حتى يكاد أن يغفو، كأنها اعتمدت أسلوب شهرزاد في تداخل النص أو الخروج عنه، لها فينا نفس تأثير شهرزاد على شهريار وكأني بها تريد أن تخلق من القُرّاء كلهم شهريار

مسترخيًا مقتنعًا ، يحسّ بصدق الحب والأمان والانتماء والهدوء، وماري تيريز تتحدث بشغف وصدق وقناعة وحيوية، بصوت هادئ لا انفعالي.

من أجل فهم ودراسة هذه الشخصية لا بد أن نبحث عن مصادر أخرى تتحدث عنها أو تشير إليها، إننا نعرف مولدها ونشأتها وما قالته لنا ، ولكن كيف نستطيع أن نحلّل ونفهم ونستوعب كل تلك الأحداث بدون أن نستعرض وجهات نظر مختلفة أو حتى مؤيدة أو ربما إشارات لوجود تلك الشخصية، كما ويجب ألا يغفل عن بالنا مراعاة القرن الذي عاشته وسنيّه العجاف أحيانًا والمثيرة جدًا أحيانًا أخرى، فأوروبا قد خرجت من ثورة فرنسية كبرى هزّت العروش والقيم، وحروب طاحنة دمّرت دولاً ونفوسًا ، وفي الوقت ذاته تعيش ثورة صناعية ضخمة غيّرت المفاهيم وقلبت المجتمع... تصف بلادها أرض الرافدين بكل عبق تاريخها وإنجازات أهلها التاريخية وتطلق على بغداد مدينة الخلفاء بفخر ، ولكنها تعي أن بلادها مدفونة تحت رمال التخلف والجهل والتعصب العرقي والديني والطائفي، إلا أنها بلاد جميلة نبيلة زاغ عنها المجد وفارقتها النعم واستحوذت عليها قُوى التعصب والطائفية.

نحن نعلم أنها توفيت سنة ١٨٥٤م ، حسبما جاء في الكتاب الذي كُرِّمت فيه كإحدى عظماء أواسط القرن التاسع عشر من قِبل جامعة أمريكية ، ولكن كيف عاشت ؟ هل ترهبت كما كانت تود ، أم أنها اقترنت برجلٍ ما ؟ أين عاشت ؟ في أي بلد ؟ وأي مدينة قضت أيامها بعد كتابة سيرة حياتها ؟ وبأي لغة كتبت سيرة حياتها ؟ ومَن ترجمها للإنجليزية ؟ ولماذا تُرجِمت؟ وما مكانتها بالنسبة للجمعية البريطانية الآسيوية؟ هل اشتغلت ؟ ما هو مصدر رزقها ؟ كيف كانت تقضي أوقاتها ؟ من هم أصدقاؤها وصديقاتها ؟ في أي كنسية كاثوليكية تتعبد في إنجلترا البروتستانتية ؟ هل عادت إلى الشرق أو آسيا أو بلاد النهرين كما كانت تحب أن تطلق على بلدها ؟ أين ماتت ؟ أين دُفِنت ؟...

هذه أسئلة لا نعرف لها جوابًا ، إذ إننا من حضارة ترفض التسجيل والتوثيق ، حضارة شفاهية تعتمد الحكايات وتضيف على النص الأصلي خيالات لا محدودة ، أو تحذف منها ما لا يناسبها ، حضارة تهوى أن تنسى لا أن تتذكر ، حضارة تحب الكلام وأن تروي لا أن تكتب وتقرأ، وأخيراً تتجاهل ما سمعتْ وتنكر ما روت ولا تقيم وزنًا أو تحفل بإنجازات أفرادها ، وشكرًا لـ"سومر" لأنها كتبت على الطين.

بما أن ماري تيريز أسمر قد كتبت سيرتها ونشرتها في إنجلترا؛ فلا بد من البحث في السجلات الرسمية البريطانية التي تحتفظ بسجلات الولادة والوفاة والزواج، فتوجهتُ إلى تلك السجلات أقلِّبها، ابتدأتُ من سنة ١٨٤٤م؛ السنة التي نشرتْ كتابها، بحثتُ عن وثيقة زواج أو شهادة وفاة، ووصلتُ إلى سنة ١٨٦٠م وتوقفتُ، هل سأواصل البحث أم سيواصل هذه المهمة باحثٌ آخر أسلِّمه عهدة ماري تيريز أسمر.

أرجو أن يسمح لي أعزائي القُرّاء أن نسير معًا في عوالم ماري تيريز أسمر، لنمرّ عبر صفحاتها بحوادث وممارسات عاشتها هذه المرأة، ولكنني سأتجاوز ما أجده لا يخدم الموضوع، وسأعلِّق وأحاول أن أقرِّب المشهد من القارئ؛ ولكن بلسان ماري تيريز أسمر؛ وسأضع الشروحات التي أجدها ضرورية في حاشية الصفحات، كل الكلمات العربية سأكتبها كما كتبتْها ورغم أنني لاحظت الكثير من الاختلاف بين الكتابة واللفظ، ووجود الأخطاء المطبعية والإملائية للكثير من الأسماء والمسميات العربية، حاولت أن أعود بها إلى أصلها أو أن أجد تفسيراً لها، واستعنت بالكثير من أصدقائي - وهم كُثر - ولم يبخل أحد منهم بمساعدتي وتشجيعي، فألف شكر لهم.

مقدمة الجزء الأول

أعترف وأعتذر من القارئة والقارئ لأن ترجمتي لهذا الكتاب انتقائية / إيجازية ، فلقد وضعتُ نصب عيني هدفًا هو البحث عن مفردات نابعة من أرض بين النهرين فقط ، لغرض ترسيخ مفهوم الانتماء إلى هذه البقعة من الأرض ، فإنني أشعر بأن الإحساس بالانتماء والمواطنة لهذه الأرض ككل متخلخل بعض الشيء في الوجدان العراقي ، لذا ركَّزتُ على محاور أعتقد أنها تنسجم مع الهدف العام الذي أتبعه ، وهذه المحاور هي : الحالة الاجتماعية ، تجارب بدوية وأوربية وتراثية ، ووضع المرأة. إذ وجدتُ أن هذه المحاور تدخل في المضمون العام وضمن إطار واحد هو تفاعلات شعب يعيش على أرض ما بين النهرين (العراق) ، فهذه المحاور تغطّي ممارسات مختلفة لناس وادي الرافدين ومن مناطق بيئية متباينة ، وهذا الاختلاف في طبيعة التجارب هو الذي يوحِّد هذه الأمة.

كما واختصرتُ ؛ أو تجاوزتُ ؛ ما وجدتُ فيه من إطناب وإطالات لا تنسجم مع هدفي السابق ذكره.

قبل الدخول في تفاصيل الجزء الأول من الكتاب ، لا بد من

الإشارة إلى أن "ماري تيريز أسمر" قد تمتعت بمستوى ثقافي معين، فمن بين صفحات كتابها نجد إشارات واضحة ومدلولات بينة عن معرفتها وإطلاعها على تاريخ وحضارات وادي الرافدين بشكل معمّق، كما وأن هناك إشارات لعظمة بابل وحوادث تاريخية في تلك الفترة، وإشارات إلى سميراميس ونبوخذ نصر، وأنها على إطلاع ومعرفة بالتاريخ والتقاليد والأدب العربي، إذ تشير إلى عنتر وشيبوب وألف ليلة وليلة وإلى الخلفاء العرب، وتشير إلى عدم شرعية زواج المرأة المسلمة بدون موافقتها.

تقول إنها قد ألَّفت الكتب الدينية، وقسم منها قد ضاع، بخصوص هذه الكتب يوجد كتاب واحد في المكتبة البريطانية صغير الحجم فيه تأملات دينية، ولا أستطيع أن أصفه بأنه كتاب يبحث في المعتقد، وفي هذا الكتاب إشارة إلى سميراميس والحديث عن تاريخها بشيء من التفصيل الموجز، كما وأنها على إطلاع على الثقافات الأوربية والدول المجاورة، وتشير إلى دانتي وإلى شعر حافظ والفردوسي، وإلى قصص العهد القديم بحكم انتمائها الديني، كما وتتحدث عن الممارسات الدينية المختلفة، فتتحدث عن اليزيدية والإسلام؛ رغم أن حديثها مقتضب وأحيانًا ملفوف بالغموض لا كما يجب عند البحث،

إذ يجب عقد مقارنات واضحة إذا كانت الغاية هي البحث المعمق عن هذا وذاك من الأديان أو المعتقدات ، ولكنها لم تكن تبغي البحث ، إذ إنها تتحدث عن تجارب عاشتها وعن بنية مجتمع منتمية إليه ، تقتسمه الطائفية والتعصب ورفض الآخر حتى الموت ، كما وأن ذكر تلك التجارب بكثير من التفصيل فيه نوع من التوعية والتشويق والتحفيز للقارئ.

رغم اضطهاد عائلتها من قبل السلطة المسلمة العثمانية إلا أنها دائمًا تشير إلى أن الاضطهاد وقع من قِبل تلك الحكومة العثمانية باستغلالها للدين أو تحت غطاء التعصب الديني والأصولية ، ولعدم القبول بالآخر ، وللخوف من المختلف وللفائدة المادية والاستغلال وأخذ الرشوة وفرض الإتاوة ، ما يدل على أنها كانت تنظر إلى هذه الممارسات بكثير من الجدية والموضوعية.

أتذكر أواسط الستينيات وأنا أسيرُ على ضفاف دجلة في الأعظمية ؛ الجزء الذي لم أكن أعرفه من بغداد آنذاك ، فأنا كرادية وبحكم زواجي انتقلت من جنوب بغداد إلى شمالها وجدت بيتًا متواضعا جدًا لا يدل على أنه مميز وطراز بنائه مختلف جدًا ، سألت زوجي ، قال : هذا قصر شعشوع الذي

استضاف الملك فيصل عند بداية توليه مملكة العراق، إنه بيت متواضع لرجل يهودي غني جدًا ، وتعجبتُ أن يُطلق على هذا البناء البسيط والبدائي التصميم والذي بُني من خليط الطابوق واللبن اسم قصر ، ولكنني كنت أنظر بالعين المعاصرة وأقارن البيوت الكبيرة ذات الطوابق المتعددة والطارمات الكبيرة والبوابات الواسعة التي كانت تعود للطبقة الوسطى في ذلك الشارع من الأعظمية ، كنت أحسب بعين الحاضر مقاسات الماضي ، لم أنظر إلى البيت وفق مضمونه التاريخي ، هذا يذكرني بحديث ماري تيريز أسمر عن بيت والدها وجارهم العصملي - كما تطلق عليه - وعن الأراضي في تلكيف التي بقدر مساحة اللوفر ، وفيها يسكن أربعون فردًا من عائلتها مع الأقارب والخدم، أنا لا أشك بصدق تقديرها لو حسبنا نفوس تلكيف ذاك الوقت والمساحة الفضاء، إذ كما تقول عدد نفوس تلكيف كان ٢٠ ألف نسمة ، أترك هذا لتقدير أصحاب الاختصاص بالنمو السّكاني والبُعد الجغرافي.

بدهشة بالغة أمرّ على السطور وأنا غير مصدقة عيني، ماري تيريز أسمر تتحدث بعشق ووله عن كل شيء في بين النهرين، تصف لنا الطعام والملابس وطُرق البناء والأدوات المنزلية ، العادات الاجتماعية ، وتحدثنا عن الأديان ومواعيد الصلاة

والأذان الإسلامي ورمضان والطقوس المسيحية وصوم الخمسين، تتحدث عن البدو واليزيدية والأكراد والعرب والكلدان والسريان ، عن جو وحرارة صيف بغداد والنوم فوق السطوح والطارمات والشرفات والحدائق والسراديب والحمامات العامة، وعن النومي حلو البغدادي الذي تصفه للأوربيين وتقول لهم عن طعمه اللذيذ وقشرته الرقيقة ، تتحدث عن الماضي والحاضر ، وبيسرٍ وتلقائية تصف لنا الطرق الصحراوية والنهرية وبدون تبجح تشير لنا بتمكنها من الكثير من اللغات.

للصداقة وروح الأخوة مكان واسع في حياة ماري تيرز أسمر وفي محيطها ووسطها العائلي وبكل تواضع تشير إلى أهمية والدها... اعتزازها بتقاليدها وتفاخرها بها كان ديدنها ومحور اهتمامها ، وتردد ذلك باستمرار ، في أي دولة أوربية تحل تصرّ على أن الشرق هو عنوان وينبوع الغنى والكرم والخلق القويم والصدق والجمال ، ولا تضيع فرصة لتعير الغرب ، وتوضح لأهله عيوبه ونقائصه ، وتقارن بموضوعية تامة ، بعيدة تماماً عن التحيز ، سمو الخلق والطيبة والبساطة والتآزر والتعاضد في بلدها.

تضطر إلى التدريس لتعتاش ، تدرِّس اللغة العربية لأحد البارونات الفرنسيين ، وتقول : لا أحد يهتم باللغات الشرقية التي أجيدها.

وتستمر هذه الفتاة الرائعة فتتحدث عن تدخين النركيلة (الأركيلة) وتستصغر المرأة الأوربية لأنها لا تعرف التبغ والتدخين في حين أن بنات الرافدين يعتبرنَّ الأركيلة وشرب القهوة من متطلبات حياتهن اليومية ويشربنها بدون سكر أو حليب، وتستلذ بطعم القهوة وتوحي للقارئ بطيب مذاقها.

تصف أعراس البدو والفلاحين وأهل المدن بمختلف قومياتهم. تتحدث بعفوية وصدق وحميمية وكأنها جالسة بين الأهل والصديقات ، تقول : المرأة تُعامل كجارية مملوكة ، يجب أن يتغير هذا الوضع ولن تتقدم المرأة إلا بالدراسة والتحصيل المعرفي، وتسعى لإيجاد مدرسة للفتيات.

تسهب في وصف جميل لمواسم الحصاد في تلكيف ودرس الحبوب باستخدام تلك الآلة العملية والذكية والتي تستخدم فقط في ما بين النهرين، وهذه الآلة تصميمها الهندسي يفوق كل ما رأت من آلات درس وجرش الحبوب في أوربا... وتفتح شهية القارئ وهي تحدثه عن تحضير الطعام وأنواع الخبز

وصناعة الراشي (الطحينية) ، وتصف بتفاصيل ودقة ما هو السمسم والحمص لجمهور جاهل بهذه المنتجات تمامًا.

تتحدث عن كل هذا للمجتمع الأوربي بكثير من الفخر والتباهي ، تقول لهم : رغيف خبز الرقاق المشهور في الموصل قد يصل قطره إلى أكثر من ٦٠ سنتيمتر ، ورقته لا تُضاهى ، وخبز الموصل المعجون بالدهن والذي سِمك رغيفه أكثر من سنتيمترين ونصف.

وتستمر في حديثها لتصف أدوات المنزل البسيطة من (لكن) إلى الطاسة إلى الفنجان وتستعمل أسماءها المحلية العربية أو الدارجة بعد أن تشرحها بالإنجليزية.

لا تغفل ماري تيريز أسمر الحالة الاجتماعية والتجارب الطفولية والتراثية والبدوية والأزياء والمجوهرات ، ولا تترك فرصة تفلت منها بدون أن تشير بإصبعها للغرب قائلة بكل وضوح وصراحة : نحن أفضل منكم.

وبحزن تتحدث عن تجربتها القاسية مع مبشر غربي ، وشعورها بالإحباط من تصرفات رجل الدين الغربي ، هذا الذي لا يفهم النفسية الشرقية ، ومضايقته لها ، وبالتالي التجاؤها للبدو... وبكل لامبالاة وبكثير من التحدي تنتقد روما الصرح

الكاثوليكي الذي تستند عليه في معتقدها.

ابتهالاتها وتعبيراتها الوجدانية ونصوصها الدينية سأترك ترجمتها إذ من الممكن أن تكون في كتاب آخر خاص بمسيرتها الدينية ، كل ما يهمني الآن السجل الموثق الذي تركته لنا عن حالة وادي الرافدين في تلك السنين... أما الجزء الثاني من الكتاب فأغلبه يعكس الحياة التي عاشتها في لبنان وتتحدث فيه عن سفرها إلى أوربا.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الموصل قد أنجبت رحّالة آخر مهمًا اسمه "إلياس حنا الموصلي" الذي وصل في ترحاله إلى أمريكا الجنوبية والشمالية سنة ١٦٦٨م ، ولقد ذُكر في بعض المؤلفات وتمت دراساته ، رغم أنني لم أطلع عليها تفصيلاً إلا أنه كما يبدو كان لرحلته الطابع الديني الصرف بحكم منصبه الديني ولا أريد أن أستبعد معرفة ماري تيريز أسمر بخبر هذا الرحالة إذ كما تشير إلى أن عمها كان مطران ديار بكر.

حفزتني ماري تيريز أسمر وجعلتني أتمنى مستقبلاً أن أستطيع مقارنتها ببنات جنسها الرحالات من شعوب مختلفة وخاصة في الفترة التي ظهرت بها.

سأتبع نهجها في سرد الأسماء والمسميات ولن أضيف عليها أي

صفات أو إشارات قدسية تعظيمية كما قد تعودنا على إضافتها لأنني أريد أن أحافظ على النَفَس الذي تحدثت به وهي تروي لنا سيرتها.

هذا عمل متواضع جدًا أتمنى لو أُتيحت الفرصة لغيري ليقدِّم دراسة أعمق وأشمل عن هذه المرأة وتجربتها الفذَّة، ولتكن لنا مبعث فخر واعتزاز.

أميرة بابلية

(ماري تيريز أسمر)

أنحدر من عائلة من الشرق ، تعود أصولها إلى "البراهما" ، الذين اعتنقوا المسيحية من زمنٍ بعيدٍ على نهج كنسية "ترافنكور" التي أسَّسها "توما" رسول سيدنا المسيح في الهند. أجدادي لقرونٍ مضت ؛ وحسب التقاليد العائلية ؛ رحلوا عن ترافنكور إلى بلاد فارس ، واستقروا أخيرًا في بغداد... جدي الأمير عبد الله كان رجلاً واسع الثراء حيث امتلك الأراضي وممتلكات أخرى من بينها بيوت وأغنام ومزارع إنتاج الحرير والجِمال التي بلغ عددها خمسة آلاف جمل.

بعد وفاة جدي ورث أبي وإخوته الأربعة ثروته ، وكان من مبعث غبطة والدي أن يستخدم مكانته وثروته في نشر الديانة المسيحية... والدي كان يتبع طقوس الكنيسة الكلدانية والتي هي شريكة للكنيسة في روما.

منزل والدي كان ملاذًا لكل إنسان بائس من أي طائفة؛ إن كان مسيحيًا أو يهوديًا أو مسلمًا؛ لقد ابتنى بيتًا خصيصًا لهذه الغاية لاستقبال الغرباء، وكان يذهب بحثًا عنهم، وعندما يجدهم كان يدعوهم إلى هذا البيت ويغسل أقدامهم بيده ويقوم باستضافتهم وخدمتهم بنفسه... أتذكر عندما كنت طفلة أن شخصًا معينًا احتمى واتخذ من هذا البيت ملاذًا ، كان مبشرًا واسمه كابريل دومبو (Gabriel Dombo) وفي سبيل نشر أفكاره الدينية تعرض إلى حُكمٍ قاسٍ أدَّى إلى قص لسانه. هذا الرجل بقى معنا لمدة سنتين ، وبعد ذلك منحه والدي مبلغًا من المال كافيًا ليستطيع أن يؤسس كلية لتدريب المبشرين.

وباء الطاعون انتشر في بغداد سنة ١٨٠٤ مما جعل والدي يقرر الرحيل والابتعاد بعائلته إلى الريف بقرب خرائب نينوى حيث كان يمتلك منزلاً.

البيت كان يسمى قصر العزة (Kaser El Aza)... في هذه الفترة وُلِدتُ في خيمة منصوبة في الصحراء ليست ببعيدة عن دار والدي، ربما كانت الخيمة مكانًا لنواح والدتي لفقدانها عددًا من أفراد عائلتها خلال وباء الطاعون، وكذلك لخسارتها أخًا كان عزيزًا عليها وافاه الأجل إثر لسعة ثعبان سام حين كان في رحلة صيد، وقبل وفاته عانى الكثير من العذاب نتيجة ممارسة نوع من العلاج مُورِس في أرض الرافدين، وعُرفت هذه الطريقة في العلاج من آثار مسوبوتاميا. هذا العلاج يقتضي بأن يُمنع المُصاب من النوم لمدة خمسة أيام وذلك بضرب الطبول والوخز الشديد بالإبر إذا ظهرت أعراض الدوار، وخلال كل تلك الأيام كان يُسقى الحليب فقط إلى أن يبدأ بالتقيؤ، وبذلك يتخلص من سُم الأفعى... لهذا النوع من التعذيب تعرض خالي لمدة خمسة أيام وبدون فائدة، إذ في النهاية كان السم قد سرى في بدنه ولن يفلح أي إنسان بإزالة هذا السم القاتل.

وأخيرًا انتهى الطاعون، أوقف الطاعون انتقامه، ولكن وخلال ذلك محا عوائل بكاملها وملأ البيوت بالأحزان. عندها قرَّر والدي العودة إلى بغداد، وهناك بقيت إلى أن بلغت الرابعة من العمر.

في بغداد كان بيتنا قصرًا رحبًا واسعًا جدًا ، محاطًا ببساتين غنَّاء موفورة بأشجار النخيل والليمون الحلو والبرتقال ، تُسقى بواسطة جداول عديدة من النهر.

في هذه البقعة البهيجة قضيت أيام طفولتي ، كثيرة جدًا ألعاب (الاستغماية - الختيلة) التي كنت ألعبها مع إخوتي في متاهة هذه الحديقة الواسعة وتلك الذكريات ما زالت طرية في ذاكرتي كأي فترة من فترات حياتي.

في البيت المجاور كان يسكن أغا عصملي (Osmanli Aga) مسلم مؤمن ملتزم بتعاليم الدين ، كرَّس نفسه للعبادة التي كما جاءت في القرآن وكان يرتعب من غير المؤمنين من أي طائفة أو قومية كانوا... لم يطق الشيعة والكفار بنفس الحمية والحماس وبكل معنى الكلمة ، لم يكن يدع أي يوم يمر بدون أن يكرر صلواته المفروضة عليه عدد مرات في اليوم حسب القوانين المكتوبة.

أتذكر عندما كنت في حوالي الثامنة من العمر كنت ألعب لعبة الختيلة مع أحد إخوتي، كنت حينها سريعة ومتيقظة مثل القطط، بعد مرور ساعة من اللعب في البستان استهوتني فكرة تسلق نخلة والاختفاء بين سعفاتها ، كانت النخلة مجاورة لدار الجار المسلم، هنا فوق النخلة سحرتني فكرة الاختفاء عن أخي وبحثه اللامجدي في أرجاء البستان الواسعة... حيلتي نجحت أبلغ نجاح وحسبما تمنيت، ومن بين سعف النخلة كنت أرى أخي الصغير يركض مسرعًا بين الأشجار من هنا وهناك آخذًا في الحسبان

عدم تركه أي ركن أو زاوية بدون أن يبحث عني فيه، ولكن لم يخطر بباله ولو للحظة واحدة مكان اختفائي... بعد تمتعي بفشله وخذلانه ولمدة طويلة نسبيًا؛ أردت له أن يعرف مكان اختفائي وبدون تردد وبعبث وذكاء طفولي وبجهد حاولت أن يكون صوتي قريبًا من صوت المُلة الذي بشكل منتظم يدعو كل المؤمنين إلى الصلاة... بصوت عال بدأت أؤذن وأقول:
(la illahoun ila Allah w'' Mahommed reasul Allah)
لا إله إلا الله أشهد أن محمدًا رسول الله، الصلاة أحسن من الطعام (El Salat akhsan min eltaam) إذ كان الوقت منتصف النهار، ولكن أخي قد تصور أن المؤذن فعلاً هو الذي يؤذن... إلى أن علت ضحكاتي التي لم أستطع أن أكبتها.

بنجاح حيلتي اكتشف مكان اختفائي واعتبر أخي - مثلي تمامًا - ما فعلته كان منتهى التسلية، ولكن عند عودتنا إلى البيت وبدون أن يمعن التفكير أخذ يقص على والدي ما فعلته خلال لعبنا في الحديقة.

والدي كان مسيحيًا ملتزمًا تمامًا، ومسالمًا لدرجة أنه بوعي وحذر يتجنب أن يتسبب بأي إهانة لإخوانه المسلمين، وعوضًا عن أن يكون قد أعجب بما قمت به، فرض عليَّ أن أبقى في غرفتي لمدة ثلاثة أيام وأعطى تعليماته بأن الماء والتمر فقط مصدر تغذيتي طيلة تلك الأيام الثلاثة. ولم يتوانَ عن إفهامي بأن للحيطان آذانًا.

من فوق الجدار المجاور لبيتنا وفي بستان الجار المسلم كانت شجرة ليمون ممتلئة بالثمار الكبيرة الناضجة ، كل يوم أمرُّ أراقب تلك الثمار التي أنضجتها الشمس ، بعيون متلهفة وفمٍ متعطش ، وفي فكري تدور خطط وخطط لقطف هذه الثمار الشهية ، مثل أمنا حواء التي ارتكبت الخطيئة الأولى في مكان ليس ببعيد (١) عن هذا المكان ، لم أستطع مقاومة الإغراء الشرير وأصبحت بدوية مثالية ، كل مرة كانت تُحبط وتقطع محاولاتي بظهور أحد إخوتي... ولكن يومًا ما وحينما زال خطر أن يباغتني أحد ، طلبت من أحد الخدم أن يضع سلمًا على حائط بيت الجار ، تسلقت السلم والثمرة المحرمة كانت قريبة المنال وبقلب يخفق بالمرح والأمل الممزوجين بالرهبة والخوف قطفت أكبر ثمرة من الليمون الحلو التي استطاعت يدي الإمساك ، بها نزلت السلم وبيدي الليمونة.

لا أدري لِمَ كان طعم الليمونة تلك شهيًا حلو المذاق؟ هل لإنها كانت من النوعية الممتازة ، أم أن مغامرتي أضفت عليها طعمًا خاصًا؟ لا أستطيع أن أقرر ، ولكنني أعرف بأنني تلذذت بها أكثر من أي ليمونة حلوة قد أكلت طوال حياتي ، ولم استطعم ذاك المذاق أبدًا... ولكن هنا متعتي انتهت مثل أي إثم ومنتهك ، بوخزات من يقظة الضمير التي تبعت تلك المتعة.

---

(١) إشارة إلى القرنة قُرب مدينة البصرة وشجرة اعتقد الأهالي إلى يومنا هذا بأن الموقع هو جنة عدن.

والدي لم يكن يتوانَ عن قراءة الوصايا العشر لعائلته وبقية من في البيت على الأقل مرة واحدة كل يوم، وكان عندما يصل إلى الوصية التي تقول: (لا تسرق) كان ضميري المعذب يصحو ويستيقظ.

لم يكتفِ والدي بترديد هذه الوصية بل كان يضخم العبارات ويصل بها إلى أبعد مداها ويقول إن الأمين على الأشياء الصغيرة أمين على الكبيرة أيضًا ، والذي لا يتوانى عن النشل وسرقة التوافه سيصبح بحكم العادة لصًّا كبيرًا ، وأن الكفَّارة الوحيدة لهذا الإثم والتوبة هو بإعادة المسروقات.

لم أستطع أن أتحمل الندم الذي أخذ يثقل ضميري، قررت بجد أن أجد طريقة لتعويض جارنا عما فقده... وبما أنه ليس بمقدوري إعادة ليمونة كبيرة بحجم تلك التي سرقتها، لذا فكرت بأن أعوض الجار المسلم بثلاث أو أربع ليمونات بحجم أصغر عوضًا عن تلك الليمونة الكبيرة.

وبانتهاء هذا العمل التعويضي اعتقدت أن المسالة منتهية تمامًا، ولسوء الحظ أن الجار المسلم اشتكى لوالدي بأن أحد أفراد عائلتنا كان يسلي نفسه برمى الليمونات الصغيرة من فوق جدار بيتنا ، ولقد سقطت على رأس أحد الأطفال وهو يلعب في البستان... وعلى إثر هذه الشكوى اجتمع بنا والدي وأخذ يستجوبنا عمن كان يرمي الجيران بالليمون... أنكر الجميع علمهم بأي شيء من هذا القبيل، إلى أن وصلني الدور... والدي كان قد عزَّز لدي فكرة قول الحقيقة مهما كانت الأسباب، وعدم

البوح بغير الحقيقة أو الكذب خطيئة لا تغتفر حتى لو كان في ذلك خلاص العالم... كل تلك التعاليم استولت على تفكيري وفي الحال اعترفت بكل شيء وشرحت كيف أن ضميري كان يعذبني خلال تلاوتي لصلواتي وأنني الآن أضع نفسي بين يديه ومستعدة لتلقي العقاب القاسي والطويل الذي يراه والذي كنت أتوقعه لأتوب عن ذنب اقترفته.

لكنني كنت على خطأ، إذ أن والدي قد أعطى للصراحة وقول الحقيقة أعلى القيم السلوكية ، لذا قرَّر أن يسامحني ويعنِّف إخوتي الأشرار الذين أطلقوا عليَّ اسم "سارقة الليمون".

منذ ذلك اليوم وإلى يومنا هذا لم أقل أي شيء يخالف الحقيقة.

كانت تلك تجربتي الأولى لتجنب الكذب ، ورغمًا عن كل الظروف المرعبة، بقيت هذه التجربة والدرس الذي تعلمته معي طوال حياتي في الأيام المحظوظة أو عكسها.

يؤسفني أن أقول إن صراحتي في الأوقات غير المناسبة جعلتني أرتكب ما يسميه الفرنسيون betises.

كنت دائمًا صريحة، لو أن سوء الحظ أوقعني مع بدوي فإنني لن أتواني عن قول الحقيقة بأنني أملك مالاً ، ولا أكتفي بذلك بل وأحدِّد له تمامًا الكمية التي أحملها ولو كان السلابة وهابيًا أو يزيديًا أو آخرين من قطاع طرق الجزيرة العربية لاختلفت نتائج هذه الواقعة ، وا حسرتي ويا للحضارة! كم يحزنني أن هذا الضعف فيَّ - لو اعتبرت أن صراحتي ضعفًا - هذه الصراحة

كانت ستُقدر وتُثمن في معظم الأرجاء المتنورة من أوروبا المثقفة ، إلا أنه من المفروض أن شعاع المعرفة انبثق من أرضنا وكان قد بدد ضباب ظلامنا الآسيوي.

عندما كنت أسكن في باريس تعرفت على دوقة فرنسية تظاهرت بأنها شديدة التعلق بي ولا أستطيع أن أصف مدى تحببها ولا عمق مودتها لي، كنت كل شيء في حياتها كابنة أو أخت، كانت موهوبة جدًا ، متزوجة من رجل غني، ولكنها لم تكن تعيش معه منذ فترة من الزمن ، إلا أنها كانت تملك عقارات.

خلال فترة مرض أصابني كانت لا تتوقف أو تنقطع عن عيادتي وزيارتي، لذا لم يكن لعرفاني بجميلها هذا حدود، كنت مستعدة أن أضع حياتي كلها تقدمة لها.

في يوم ما زارتني وحدثتني عن وضع مالي سوداوي مخجل، وأنها قد خسرت مبلغًا ماليًا ضخمًا خلال الثورة الفرنسية ، وطلبت اقتراض مبلغ أربعة آلاف فرنك فرنسي... عند سماعي طلبها طار قلبي من الفرح كنت أتمنى احتضانها لطلبها الاقتراض مني ، كنت في منتهى الغبطة لتمنحني فرصة أن أثبت لها إخلاصي وامتناني، ثقتي بها كانت عمياء، اعتبرت أن الفلوس ستكون في أمان في حوزتها كما وكأنها معي.

وبعد فترة ليست بالطويلة زارتني مرة أخرى، وبدون مقدمات طلبت مني قرضًا آخر ، إلا أنني لم أكن أملك نقدًا تحت تصرفي ولكن في الوقت نفسه، وبكل صدقٍ وصراحةِ الإنسان الشرقي

قلت لها بأنني أملك بعض المجوهرات الثمينة من الماس والتي أستطيع أن أقدمها لها ، كان هذا العرض مقبولا تمامًا منها وشكرتني على حناني، كما وأنني كنت سعيدة لمساعدتها.

وكما توقع الجميع فإن صديقتي قد خدعتني ، في الحقيقة لقد تصرفت بمجوهراتي وأموالي وبعثرتها على مائدة الميسر ، ولم تكتفِ ببعثرة كل ما أملك ، بل أيضًا اقترضت من إحدى صديقاتي الأميرات مدعية بأنني مريضة ولم أستطع أن أذهب بنفسي لاقتراض المال ، بهذه الطريقة أبعدت مودة الكثير من الأصدقاء عني. كما وأنها كانت تشير لي بأنها ستترك لي عقارًا عند وفاتها ، ولكن يبدو أنها قد رهنت العقار عدة مرات بفائدة عالية، ما جعلها تفقد حقها في ملكية ذلك العقار ولم تستطع أن تستعيد أو تستفيد ولا (بارة / Para) واحدة من هذا العقار.

هذه واحدة من الحوادث التي قادني إليها سوء طالعي ، ربما أستطيع أن أعزوها إلى سوء الثقة، ولكن كيف لي أن أتوقع مثل هذه النذالة من شخص حتى تلك اللحظة جعلني أعتبره صديقًا مخلصًا؟

منذ طفولتي والوصية المقدسة التي انغرست في فكري والتي تقول (لا تصدر أحكامًا على أحد كي لا يصدر أحد أحكامًا عليك) لذا كنت أعتبرها جريمة أن أسيء الظن بالناس وعلى الأخص بصديق عزيز. لهذا دهشتي كانت عظمية عندما كنت في روما التي تعتبر الينبوع الرئيسي للمسيحية، سمعت حكمة تقول (لا تثق بأحد حتى لو كان والدك).

الثقة التي جعلتني أقع ضحية المحتالين لا بد أنها تعود إلى خلل في ثقافتي، ولكن يجب علي أن أعترف بصدق أن في أمورٍ مثل هذه فإنني أفضل بساطة الإنسان الشرقي على مكر الإنسان الأوربي، البدوي القادم من الصحراء دائمًا يلتزم بوعوده ورغم أن ظرفه قد يدعوه إلى قتلك!

احتجت إلى بعض الوقت للاقتناع بأن الدوقة كانت فعلاً تروم خداعي ، حيث بدأت عيوني تتفتح لترى غدرها... نصحني أصدقائي اتخاذ إجراءات قضائية لأسترد أموالي ، إذ أن حقي في قضيتي واضح.

الحاكم ثمَّن موقفي في التعامل في هذا الصدد وحكم لصالحي ضد الدوقة ، ولكنني عندما أردت تنفيذ الحكم والحصول على ثمرته وجدت أن هذه السيدة قد حولت أملاكها إلى شخص آخر واختفت تمامًا.

أعود إلى أيام طفولتي...

كنتُ دائمًا أفضِّل صحبة الذين يكبرونني سنًا على من هم أقراني وفي مثل سني ، وسعادتي كانت قصوى في صحبة جدتي التي عمَّرت وبلغت الرابعة بعد المائة ، وأتذكر قصصها الطويلة الممتعة المليئة بالأحداث التي تملؤني حبورًا ، وبنفس الحبور أتذكر قصص جدي الرائعة والذي هو أيضًا عمَّر طويلاً ، والقصص التي كان جدي شاهدًا على حوادثها خلال حياته الطويلة، ولن أنسى الشعور بالرعب وهو يحكي لي عن حصار

"نادر شاه" لمدينة الموصل سنة ١٧٤٣ والذي دام أيامًا طويلة. حكى لي كيف أن الباشا الذي كان يحكم الموصل في ذلك الوقت والذي كان ينظر بعين العطف إلى المسيحيين ، أصدر أمرًا يدعو السكان إلى الابتهال إلى الله كلٌّ حسب معتقده، وكيف أنه محاولة منهم لدرء غضب الله القدير أن طبقوا طريقة نينوى القديمة وبالتطوع بإعلان وإظهار التوبة والندم وإماتة النفس، وذلك بلبس الملابس الخشنة وإهالة الرماد على الرؤوس.

تم الدفاع عن المدينة ببسالة متناهية ، إذ أصرّ سكانها على الموت لا على التسليم، حتى النساء والأطفال بذلوا الجهود بهمّة وحيوية... توالت الاعتداءات وحدثت الخروقات والفجوات ، ولكن المعتدي صُدّ والفجوات ردمت وسدت خلال الليل.

غير أن الشاه كلَّ وملَّ ، أرسل رسالة شديدة اللهجة وحازمة للباشا يقول فيها بأنه قد تمكن من وضع لغم تحت سور المدينة، وأنه سيشعل النيران حالاً لو لم تستسلم المدينة ، ولكن الباشا رفض أن يستسلم... تم تفجير اللغم ، وقسم لا يستهان به من المدينة تم إحراقه ، وفقدَ جدي عددًا من أشقائه خلال عملية الحصار المريعة هذه، وكذلك خسر مكتبة ثمينة جدًا بالإضافة إلى بيوت وممتلكات أخرى.

تصرف المسيحيون بنخوة وشجاعة مما نال إعجاب الأتراك، وبعد أن رأى نادر شاة ضرورة رفع الحصار حول مساره إلى بغداد ولكن بعض الكنائس المسيحية كانت قد دُمرت ، إلا أن الحكومة أمرت بإصلاحها على نفقتها.

من بين جميع أفراد عائلتي كنت المفضلة عند جدتي ، لذا عند وفاتها أوصت لي بخلخالها (khelkhal) الفضي المطعَّم (والكردان) (kirdan) التي كانت رائعة مزوقة بخيوط من اللؤلؤ والذهب و(خرانفل) (kharanfel) وهي زينة للأنف ، وقمر kamar وهو زنار من الجواهر والذهب ، كلها إثبات لمحبتها... لقد حافظتُ عليها إلى أن سرقت مني في حمام عام مع بقية الهدايا الثمينة التي أهداني إياها والدي.

والدتي أنجبت ثمانية عشر طفلاً ، لم يبقَ منهم سوى تسعة : خمسة صبيان وأربع بنات. وبقيت أنا أصغرهم، إذ أن الصغرى توفيت وهي في العاشرة.

شقيقتاي تزوجتا ، والصغرى من الاثنتين كانت في منتهى الجمال النادر ، بشرتها رقيقة بيضاء ، عيونها كبيرة سوداء ، شعرها طويل حريري حالك، جسمها رشيق وعلى أبهى صورة وحضورها كان ملؤه العزة واللطف، ولم تكن موهبتها بأقل... وهكذا كانت أختي الثانية، إلا أنهما لم تحظيا بالثقافة الأوربية.

اسم أختي الثانية كان فريدة، وفي سن الثانية عشرة تزوجت وأنجبت صبيًا وهي في الثالثة عشرة من العمر... ابن أختي هذا كان المفضل لدي، هذا الصغير الذي تعلم الصلاة الربانية وهو في الثالثة من العمر ، وتعلم أصول المجاملة والثناء وهي الأسس الأولى في التربية الشرقية، وقبل أن يبلغ الرابعة تعلم القراءة.

عاشت أختي حتى بلغت الخامسة والثلاثين من العمر ، وأنجبت عدة أطفال، ولكن هي وعائلتها كلهم ماتوا بالطاعون، خلال أيام

معدودات ، لم يبقَ أي فرد من تلك العائلة التي كانت يومًا ما سعيدة ، ووضع ختم الباشا على الباب لمنع عدوى المرض وإعلانًا بالخراب الذي حلَّ بالداخل.

منذ سن الرابعة وحتى الحادية عشرة قضيتها ما بين بغداد والموصل ، في الموصل كنا نقضي أيام الصيف لتجنب حر بغداد الشديد الذي يعم مدينة الخلفاء الشهيرة هذه... شدة حرارة الجو في بغداد تدفع الناس في أوقات منتصف النهار ؛ حيث أشعة الشمس تكون في أوجها؛ إلى الاحتماء وقضاء أوقاتهم في السرداب ، وهو جزء من البيت يُبنى تحت الارض ، والذي نسبيا يبقى باردًا وأرضيته ترش بالماء ، وباستخدام مروحة كبيرة جدًا تتحرك للأمام والخلف ، ويتحرك الهواء وتدار من قبل العبيد ، ويبقى الناس إلى موعد حلول المغرب حيث يصعدون إلى السطوح للتمتع بالنسمات العذبة.

في موسم الحر هذا حيث تصل معدلات الحرارة إلى ١٢٠ درجة، فإن النساء يرتدين الملابس الحريرية أو غلالة والبابوج (babouches) أي النعال بدون جواريب ، وفي الليل من العادات الشائعة النوم فوق السطوح وفي الهواء الطلق النساء والرجال في سطح، والأطفال والخدم لهم سطحهم المنفصل.

قد تبدو هذه الممارسة غريبة على الأذن الأوربية ، ولكنها شائعة بين النساء البغداديات ، في شهر تموز وآب يبللن ملابسهن الحريرية بالماء البارد الذي يؤخذ إلى السطوح ، ويحفظ بأوعية من الجلد ليحافظ على برودته ، ويلبسنها بعد

عصرها، وتبقى مبللة تمامًا وتلتصق بأجسادهن ثم يستلقين على الأسرَّة المصنوعة من سعف النخيل ليتمتعن بغفوة منعشة... هذه الممارسة لن تُحتمل في جو إنكلترا، حيث يطغى الروماتزم المرض الذي لم يُسمع به في بلادنا حيث الشمس أبدية. في شهر تموز؛ الأشخاص الذين يتطلب عملهم أن يكونوا في العراء يتعرضون لخطورة الاختناق بالـ(ساميري/ samiri) [١].

من عادة البغادلة الصحو مبكرًا في الصباح، إذ ما أن ترشق الشمس العيون المغمضة بأشعتها حتى ينزل الجميع من السطوح، وكل واحد؛ غنيًا أو فقيرًا رجلاً أو امرأة؛ يحمل مفرشه (الدوشك) إلى الأسفل، فلو تُرك معرضًا لأشعة الشمس لاحترق.

بغداد مشهورة ببهجتها ومرحها، أهل بغداد يهيئون أربع وجبات طعام في اليوم، يبدأون يومهم بشرب القهوة السادة ثم تليها النرجيلة، والفطور يبدأ الساعة التاسعة صباحًا بوجبة لذيذة من القيمر [٢] (القشطة) والتمر المطبوخ بالزبدة... وجبة الغذاء تقدم الساعة الواحدة بعد الظهر.

---

(١) هي ما يعرف برياح السموم التي تهب من الصحراء حاملة معها كسراً من الحجارة والكثير من الرمال وتأتي على شكل عاصفة قوية ولقد ورد ذكرها في كثير من النصوص الأدبية.

(٢) هنا تشرح بالتفصيل ما هو القيمر.

نساء بغداد يلبسن غطاء الرأس الخاص بهن، وهو عبارة عن (إزار/ izar) أسود وأبيض أو حجاب، وهو منسوج في الموصل من الحرير والممزوج بالقطن، وينزل من الرأس مغطيًا القدمين، وبه بعض الشبه بغطاء الرأس الإسباني المسمى (المانتيلا) مع عصابة تدور حول الرأس من شعر الخيول تغطي الوجه تمامًا لتمنع معرفة شخصية مرتديتها، وفي الوقت نفسه - وبطراز شرقي صرف - تمنح المرأة الحرية لتمارس حب الاستطلاع وترضي فضولها.

خارج المنزل من الصعوبة معرفة منزلة المرأة مما ترتديه، إذ أن الجميع الغنيات والفقيرات يلبسنَّ الملابس الرصينة وغير زاهية الألوان والمتواضعة.

خلف الأبواب المسألة تختلف تمامًا لأن ملابسهن من الحرير الطبيعي الغالي الثمن، مع مصوغات من الذهب واللؤلؤ المجوهرات ذات القيمة العالية والثمينة ترتديها النسوة بإسراف وسخاء مترف.

عندما كنت في الحادية عشر من العمر اصطحبني والدي معه في رحلة إلى بلاد فارس، بدأنا رحلتنا من بغداد إلى شيراز وعندما ذهبنا إلى أصفهان لفت والدي نظري إلى وجود مقلع لأحجار الزمرد، والظروف المتعلقة بهذا المقلع غريبة بعض الشيء إذ أن إنتاجه كان هائلاً ومنه تستخرج أجمل الأحجار.

عند عودتنا من هذه الرحلة إلى بلاد فارس قضيت معظم أوقاتي في الموصل كرَّست نفسي تمامًا للدراسات الدينية للتأمل بورع،

وعلى هذا المنوال قضيت ثلاث سنوات من حياتي بدون أن يحدث أي شيء مهم يستوجب الانتباه.

وفقا لعادة الشرق حيث تعقد الخطوبة في سن مبكرة جدًا ، تمت خطبتي منذ يوم مولدي إلى شيخ شاب يقرب للعائلة قرابة بعيدة، كان يبلغ حينها الثالثة والنصف من العمر ، وعندما بلغت الثانية عشر من العمر وحينها كان هو قد تجاوز الخامسة عشر ببضعة أشهر ، أخذ والدي بالاستعداد للعرس ، ولكن كان لدي رغبة شديدة بأن أبقى عزباء بدون زواج.

منذ سن السادسة تعودت على أن أقرأ عن حياة الآباء وتكونت عندي الرغبة بأن أتبع خُطاهم، كان هناك الكثير من الأعراس في عائلتنا، وحفلات الأعراس عادة تستغرق عدة أيام، لكن مع هذا لم أشارك في تلك الحفلات بل بالعكس اعتكفت مع كتبي المفضلة عن قصص القديسين من النُسَّاك والشهداء... وكلما ازدادت قراءتي لسيرهم ازدادت رغبتي بأن أشاركهم عذاباتهم وأمجادهم... والدي شجعني على هذا السبيل الذي اخترته، ولكن في إحدى المرات اكتشف بأنني أقرأ قصة (ألف ليلة وليلة) (Arabian Nights) حينها وبّخني بشدة وألزمني عدم مبارحة غرفتي لثلاثة أيام خلالها لن أتناول سوى الخبز والماء عقابًا لي.

نتيجة لتمتعي بالعزلة وحبي للانزواء أطلق عليَّ والدي لقب (Béchmel Biri) أي (ابنة الصحراء) الاسم الذي تعرف به اليمامة أو القمرية والتي تقول عنها الأساطير الشرقية إنها

عندما تفقد فراخها تطير إلى الصحراء وتبقى تنتحبهم إلى أن تموت.

ولتوجسي بأن قدري ومصيري سيقترن بالمعاناة ، بذلت قصارى جهدي باستمالة أبي لكي يفسخ الزواج المزمع عقده مع ذلك الشيخ الشاب... ولكن جهودي ضاعت عبثًا... لذا قررت أن أواجه الشاب نفسه والذي كان اتجاهه دينيًا صرفًا وأقنعته بأنني مصممة على الرهبنة ، وحينها قرَّر هو أن ينضمّ إلى رهبنة (Trappsit) الترابيست التي تفرض الصمت والحياة الخشنة القاسية المتقشفة ، حيث يعيش اليوم في دير لهذه الجماعة في جبل لبنان تحت أشجار الأرز في منطقة شديدة الانحدار لا تجرؤ حتى الطيور على بناء أعشاش لها هناك.

تفارقنا والألم يحز في قلوبنا ، وقررنا سوية أن واجباتنا والتزاماتنا الدينية ستفرقنا في هذا العالم الأرضي ولكن بعد انقضاء بلوانا الأرضية سنلتقي في الجنة.

كنت مولعة بالفروسية وكنت أرافق والدي وأخي في رحلات ركوب الخيل ، وغالبًا ما كنا نجول في الحقول بين الذرة التي كانت تنمو بارتفاع يغطي قاماتنا.

في يوم من الأيام ونحن في إحدى هذه الرحلات وكانت ترافقنا صديقتي الجميلة مريم ، التي كنت أودها مثل أختي ، وكنا على مسافة مسيرة ثلاث ساعات من الموصل بالقرب من قرية صغيرة تدعى قرقوش ، حينها خرج علينا ما يقارب الخمسين رجلاً من العرب المسلحين وأحاطوا بنا ، والدي وأخي كانا

مسلحين ولكن سيكون من الجنون محاولة استعمال القوة مع هؤلاء الذين سيستطيعون بسهولة تدميرنا.

رئيس هؤلاء العرب لم يجابهنا بأي عنف، بل على العكس إذ أصابته صعقة الحب ووقع في هوى مريم وأصر على أخذها معه! وبجدية تحاججنا معه ولكن توسلاتنا أيضًا لم تثمر، وبكمد وغم شهدتُ رفيقة صباي تُنتزع مني من قبل عصابة من قطاع الطرق وبلمح البصر اختفوا كلهم مع غنيمتهم، لم يضيع أخي وقتًا طويلاً ، إذ ذهب وجمع قوة غير قليلة لديها الشجاعة الكافية للتمكن من إعادة مريم، ولكن سرعة خيولهم العربية التي كانت كالبرق جعلت من الصعب اللحاق بهم.

كانت مريم قد جاءت لقضاء بعض الوقت معنا وكان من المفروض أن تبقى لفترة، لذا لم يعرف والداها الخطر الذي وقعت فيه ابنتهم الحبيبة، وبما أننا كنا نبذل الجهد من أجل استعادتها لذا لم نخبر أهلها بما وقع لنجنبهم الغم والألم.

والدي أجرى تحرياته في كل الاتجاهات ونجح في التعرف على مضارب العرب الذين طلبوا أن تدفع لهم فدية عالية لتعويضهم عن غنيمتهم، المبلغ الذي طلبوه كان خمسين كيسًا، أي ما يعادل ٦٠٠ باوند إنجليزي. والدي كان سعيدًا بدفع الفدية، وحالاً بعد ذلك اجتمع شملي بصديقتي الحبيبة مرة أخرى، حكت لنا مريم كيف عاملها العرب بكثير من الإجلال والاحترام ما خفف عنها هول اختطافها... الرئيس كان حميميًا في نواياه وفي حبه لها، ولم يصبها بأي أذى ولم يلجأ للتهديد من أجل إرهابها للموافقة

على البقاء معه، مريم لم تتوانَ عن القول إنها كانت ممتنة له لكرم تصرفه خلال تلك الفترة.

كلتانا كنا متحمستين للقضايا الدينية ولم أكن أعرف من منا كانت الأكثر حماسا، فتنة مريم كانت طاغية من النوع الذي يصعق من يراها من الرجال ولكن بإجلال، إلا أنها لم تهتم بنواياهم ولم تكن تبغي أن تحتل القلوب، روحها كانت مغمورة بأفعال التأمل الدينية وتقريبًا كل وقتها كانت تقضيه بورع وتقوى، في منتصف الليل كلتانا ننهض لنمضي ساعات في العبادة... بتقتير، ولمرة واحدة في اليوم خلال صوم الخمسين كنا نتناول وجبتنا المكونة من خضار مسلوقة مع الأرز، أيام الآحاد كنا نخرج سوية للحقول نتمشى، نجمع حولنا فتيات نحدثهن عن مبادئ إيماننا، أحيانًا تصل أعدادهن إلى المئات، يجلسن على العشب وبتركيز يصغين إلى حديثنا المستفيض.

مثلما كنت أنا كانت مريم تنزع نحو حياة التبتل وتكرس نفسها للإيمان الحق، إصرارنا على هذا المنحى من جانبنا اعتبر أنه شيء عجيب بنظر كل من يعرفنا ويعرف بأننا قد نذرنا نفسينا، إذ أنا كنت أول امرأة كرست نفسها للتبتل منذ السيطرة الإسلامية على منطقتنا، وصديقتي كانت الثانية.

تمتعت الكنيسة في الموصل بالحماية من الاضطهاد في هذه الفترة التي حكم الموصل فيها باشا معتدل ومتسامح، لكن بموت هذا الباشا الطيب تغيرت الأحوال، إذ كان خلفه قاسيًا وشديد التعصب وعدوًا عنيدًا للمسيحية، كان يتحرق لاغتنام الفرص

لصب انتقامه على رؤوس المسيحيين.

علم الباشا الحاكم باتجاهاتي، وكان مصرًّا على صب بلواه عليَّ إذ أنا ممن يعتبره يمتلك فكرا مهلكًا، ولذا لا بد من محوه تمامًا من أرض الإسلام.

وفي يوم معين أمر كل المسيحيين بالحضور في مكان معين لنكران دينهم علنًا واعتناق الإسلام دينًا... ابتهج الكثيرون لتصور العذاب من أجل المسيح، وتطلعوا قُدمًا للشهادة كطريق قصير يقودهم إلى ملكوت المجد الذي وعد به الأب العظيم أبو ديننا لكل من يتمسكون بصخرة الخلاص حتى نهاية أعمارهم.

(عمي/خالي) [١] الذي كان مطران ديار بكر، ووالدي ومريم وأنا؛ كنا من ضمن هؤلاء. بصحبة هؤلاء الذين لا القيود ولا التعذيب أو الموت قد يغريهم بنكران إلههم... مشينا على شكل مسيرة نردد تراتيل الشكر والنصر، وكنا شبه مقتنعين بأننا رأينا السماء مفتوحة أمامنا ونرى على أمدها ممتدًا تاج الاستشهاد.

أخذونا لمواجهة الباشا الذي هدد بقتلنا، ولم نشك في نواياه، لولا سحر وجمال رفيقتي الذي جعله يحول غضبه إلى محبة وإعجاب... أخذ الباشا يستجوبنا، وبكل جدية دخلنا معه في جدال مقررين صدق إيماننا وساعين لإقناعه بخطئه، ولكنه لم يكن رجلاً يجيد تعاطي الكلام أو يهتم بمن يؤكد أو يبرهن على

---

(١) ترجمة كلمة Uncle قد تكون العم أو الخال، وعندما لا توضحها المؤلفة أضع عليها هذه الإشارة.

صدق إيمانه. قرَّر أن يسجننا، وبالنسبة لي ولصديقتي سجننا في قصره ولكن رفاقنا أخذوهم مباشرة إلى زنزانات مظلمة وعوقبوا كل يوم بمائتي فلقة.

أحيانًا كان يسمح لي بزيارتهم في زنزاناتهم المظلمة القذرة ولم أكن أستطيع التغلب على دموعي وأنا أرى والدي والأحبة وبقية الأقارب مقيدين بالسلاسل الثقيلة. ولكنهم مع ذلك لم يكونوا قد انهاروا بل كانوا يقبلون قيودهم ويحضّونني على عدم البكاء بل على الحبور لأنهم كرموا بالمعاناة من أجل المسيح، وكانوا من رسله.

كل يوم كانوا يجلبونهم لعقابهم بالفلقة ، وكنت أُجبر على مشاهدتهم وسماع نحيبهم، نحيب أبي وإخوتي و(عمي/خالي) الذي يومًا ما وسم جبينه بحديد ساخن وبدون أن أتمكن من تخفيف آلامهم، فإن أحد (أعمامي/أخوالي) مات تحت التعذيب.

والدي وبعض أقربائه أطلق سراحهم بعد فترة طويلة، بعد أن دفعوا مبلغًا هائلاً من المال إلى الطاغية القاسي والطماع والذي كان سببا في تعاستهم... بهذا التصرف أصاب الباشا بعض الغنى كما وأرضى حماسه واندفاعه الديني وبعد تجاوزه وتلاعبه بأملاك العائلة سمح لنا بالتمتع بفترة من الرخاء والعودة إلى حياتنا الأولى بدون تدخل أو اعتداء.

سكنّا في هذا الوقت في مدينة تدعى القوش مسيرة حوالي ١٢ ساعة من الموصل، حيث دير بحجم واسع بعض الشيء.

في هذا المنتجع أقنعت والدي بالسماح لي بأن أختلي في غرفة صغيرة هُيئت لي بأثاث بسيط، سرير مصنوع من سعف النخيل وسجادة صغيرة وجمجمة وصليب مع عدد من الكتب منها الكتاب المقدس وسيرة القديسين الذي كرسوا أنفسهم للصلاة والتأمل، كما في حياة القديس أنطوان المصري.

في هذا المكان المنعزل مرَّت أيامي بهدوء وسعادة ، أصحو صباحًا الساعة السادسة وأبقى راكعة لساعتين منهمكة في الصلوات والتأمل ، ثم آخذ الإنجيل لقراءة بعض الفصول ، وأعود إلى قراءة بعض من سير القديسين ، وأتبع ذلك بترديد خمسين مزمورا وبعض التراتيل التي تصل بي إلى وقت الظهيرة ، حيث أترك صومعتي وأنزل أتجول في حديقة الدير وأحيانًا أتجاوز الحديقة وأتسلق الجبال المحيطة بالدير.

وأنا في الأعالي أرى أمامي مناظر رائعة : نهر دجلة تحت أقدامي ومنظرًا رومانسيًا يحيط بي من كل الاتجاهات.

لساعات أبقى أتجول فوق هذه التلال العالية وأفكاري مركزة على التمتع بالطبيعة التي خلقها الإله العلي خالق كل شيء ، وشفتاي ترددان التراتيل والتسابيح الدينية بدون أن أعي.

بعد الساعة الرابعة عادة أعود إلى الدير لتناول وجبة خفيفة مكونة من الخبز والفواكه ، كل يوم أحد أهلي يزودونني بهذه الضروريات ، وتجلب لي إحدى الخادمات كمية من الخبز والفواكه المجففة لتسد حاجتي لمدة أسبوع وتكفيني إلى يوم الأحد التالي.

انقضت ستة أشهر على وجودي في الدير ، وبعد انتهاء الكفّارة والدي وإخوتي واثنان من (أعمامي/أخوالي) ذهبوا إلى بغداد ، في حين أن والدتي مع بقية العائلة ذهبوا للسكن في مكان يبعد ميلين عن الموصل وسط آثار خرائب نينوى، في قرية صغيرة أكثرها يملكها والدي ، والدتي رفضت أن أبقى بعيدًا عنها ووجدت بقايا دير مهجور غير بعيد عن مكان إقامتنا. أخذت ما أحتاج إليه، وعدت - كما في السابق - أقضي أوقاتي في الصلاة والتأمل، قسم من وقتي خصصته لكتابة وتأليف الكتب الدينية، بعد مرور وقت على بقائي قررت أن أؤسس مؤسسة تعليمية للنساء ، واتفقت مع صديقتين لي ، واحدة من ما بين النهرين والأخرى من بلاد فارس.

إن عدم المساواة بين الجنسين يثير حفيظتي ، وجدت النساء المسيحيات يُعاملن معاملة الرقيق والعبيد ، فهمهن لم ينضج أو يثمر ، وتُركن للتجاهل العظيم ، في حين أن الرجال يتمتعون بكل ما أتيح لهم من التعليم، لذا صممت على أن أبذل كل ما في وسعي من قوة لتثقيف بنات جنسي.

واحدة من بنات (عمي/خالي) قررت أن تدرسهن اللغة الكردية والتركية والكلدانية، وكانت هناك سيدة أعرفها على قدر كبير من الحصافة والثقافة وافقت على أن تدرسهن اللغة الفارسية. عدد لا يستهان به من النساء جذبهن معهدنا الذي لم يهمل أي مادة تدريسية وانضمت إلينا الكثيرات من نساء الطبقات العليا.

في هذه الفترة لم أهمل الطبقات الفقيرة بل باستمرار كنت

أعظهم في الهواء الطلق مواعظ تدعو إلى الحكمة والورع مع التأكيد على العمل الذي كنت أتمنى ألا يكون مردوده لهم وحدهم بل إلى الأجيال القادمة، حينها راعٍ من البدو مع عائلته بكاملها اقتنعوا باعتناق الدين المسيحي.

عندما كنت نزيلة الدير زارتني الكثير من النساء المهمات، من بينهن أخت الباشا، امرأة على قدر من المعرفة، ولكن مع هذا متعصبة وأصولية جدًا.

زيارتها كانت بالكتمان التام، إذ أن منطقتنا كانت معروفة ببطش الأصوليين الذي كان قاسيًا وعدم التسامح العلني والتحيز ضد الذين يؤمنون بالمسيحية.

حتى سيدة بمقامها الرفيع لم تكن تجرؤ على أن تزور علنًا إنسانا يعتبر بغيضًا مثلي، وعوضًا على أن يرافقها أربعون أو خمسون مرافقًا كما هي العادة حسب مقامها فعند زيارتها لي اكتفت بأن يرافقها أربعة رجال وامرأتان.

حوارنا تحول إلى نقاش في الدين، وكما قد لاحظتُ فإنها قد اكتسبت بعض المعرفة وكان لديها العزم على أن تعرف أكثر، وكانت على درجة عالية من الفضول لمعرفة مبادئ العقيدة التي أؤمن بها والتي كانت واضحة عليَّ من خلال تصرفاتي وعاداتي وطريقة متابعتي لحياتي.

ومن أجل أن أساعدها على فهم ما تريد قدمت لها كتاب العهد

الجديد الذي أخذته بكثير من الغبطة لتدرسه.[١]

بعد أن تبادلنا عبارات المجاملة رجعت الأميرة إلى الزنانا (Zenana)[٢] بنفس الطريقة المشوبة بالسرية كما جاءت.

بعد مقابلتنا تلك حلَّ شهر رمضان (Ramadan) وكما يعرف أغلبية القراء فإن الأتراك يمتنعون عن العمل تمامًا، يصومون بكثير من التشدد والالتزام من شروق الشمس إلى مغيبها، حيث يبدأون بالاغتسال وتعطير أنفسهم ، ثم يأكلون ويشربون ويقضون أوقاتهم في قراءة القرآن ويستمر هذا طوال الليل حيث يتجلى أو يعم النور عادة[٣].

يبدو أن محادثتنا قد أثرت في أخت السلطان، وبعد انقضاء شهر رمضان وصلتني دعوة منها لتناول العشاء معها رغم أنني قد تسلمت عدة دعوات منها خلال رمضان إلا أنني ترددت بقبولها خوفًا على سلامتي، والسبب الآخر هو أني يجب أن أتأنق في

---

(١) يستمر نقاش ماري تيريز أسمر الديني طويلاً بناءً على طلب أخت الباشا. ولست هنا بصدد الدخول في مماحكات دينية جرت مع أخت الباشا التي كما يبدو كانت على شيء من رحابة الصدر وأن ماري تيريز كانت مقتنعة في محاججتها وكذلك أنها تشير إلى أن هذا النقاش لو كان مع شخص آخر لتسبب في مقتلها، ولكن في الوقت نفسه تؤكد لها أخت الباشا أن دينها الذي تؤمن به يعطي أهمية كبرى للدين المسيحي.

(٢) أو الحريم ، وهذه كلمة هندية آسيوية تطلق على القسم الذي تعيش فيه النساء.

(٣) أعتقد هذه إشارة إلى ليلة القدر.

ملبسي، وهذا ما يجعلني أتردد في قبول الدعوة، إلا أنني أخيرًا قررت الذهاب أملاً في مواصلة حديثي السابق مع الأميرة برفقة عبدين اثنين... وبشيء من التكتم اتجهت نحو الزنانا (Zenana) وقلبي مفعم بالحبور لعلي أستطيع أن أهدي إلى طريق الصواب.

أناقتي كانت فاخرة: ارتديت غومبازًا (ghombaz) أو بدلة من اللون الأبيض المذهب من قماش الحرير الشفاف مفتوحة من الأمام على الطريقة الشرقية مع أكمام واسعة تصل إلى الركبتين مع حزام مطرز بالذهب وسراويل (Sherwals) من الحرير القرمزي وحجول من الفضة المزوقة وبابوج (babouches) وعمامة من الموسلين مطرزة بالذهب وبخيوط الذهب[١] وشال فارسي مشدود على خصري، بهذا الزي ذهبت لأزور الأميرة.

واحسرتي! من يستطيع أن يميز الشخص المخذول والحطام الذي يخط هذه الحروف عن ذلك الإنسان المرح وصاحب القلب السمح والمتحمس الذي كنته في تلك الساعة أحمل قلبًا مملوءً بالتوقعات والحبور والصدق لقيادة أبناء جلدتي البشر نحو طريق الحق[٢].

عند وصولي القصر استقبلني خصي عجوز، قادني نحو الأميرة عبر ممر طويل مرورًا بثلاثة أو أربعة أبواب مقفلة بأقفال، وكان يفتحها بالمفاتيح التي معه، بعدها دخلنا إلى باحة واسعة

---

(١) وهو التطريز المعروف بشغل التيل.

(٢) تستمر هنا في مناجاتها الدينية التأملية.

أرضيتها من المرمر من ديار بكر الملمع والمجلي ، ويبدو كمرآة كبيرة أفقية ، السير عليه يتطلب الكثير من الحذر كما السير على الجليد، وجدت ثلاث عبدات سوداوات قد انتهين للتو من التنظيف.

في الوسط نافورة ماء رائعة، تنفث الماء بقوة من صنابير للمياه منفذة بذوق راقٍ ،على يسار الأيوان (Iwan) الذي يطل على وسع الباحة والذي يفصله عنها عتبة سلم واحدة. جدران الإيوان مغطاة بزخرفة الرقش الأرأبيسك ملونة بألوان مختلفة، السجاد العجمي يغطي الأرضية، في حين أن التخت مغطى بغطاء من القطيفة القرمزي مطرز بالبرودري.

ومن خلال باب إلى اليسار من هذه الصالة اقتدت إلى صالون واسع فخم ، فاق في ديكوراته ما قد وصفت لاحقًا ، السجاد العجمي كان من النوع الممتاز النادر ، التخت (takht) كان مغطى بالقطيفة الحمراء والخضراء ومطرزًا بالبرودي المكلف جدًا ، الذي يستغرق أشهرًا طويلة للإعداد ، ولم تسنح لي الفرصة لتفحص نصف محتويات هذه الصالة الأخاذة ، إذ حضرت أخت الباشا واستقبلتني بترحاب حار ، وبعد تبادل بعض عبارات المجاملة أصرت على أن أجلس على المسند (musnad) بجانبها، وأمطرتني بعبارات المجاملة والترحيب.

في هذا الوقت جاءت ثلاث جواري جميلات وشابات من جورجيا والقوقاس وكردستان، بشرتهن بيضاء أخاذة تشبه البدر وبعيون سوداء فاحمة وخصلات شعر متموجة فاحمة عزيرة.

لقد تجولت في بقاع المعمورة، وجدت بنات أوربا الشقراوات، الحُسن الإيطالي والأنوثة الفلورنسية والأناقة والرقة الباريسية التي تتحكم بالذوق والأزياء العالمية، ولو سمحت لنا الطبيعة بالمقارنة والمنافسة لكانت الأنثى البريطانية أفضل نموذج للجمال، ولكن بكل صراحة كل هؤلاء الأوربيات لن يصلن إلى الكمال في الجمال مثل فتيات الجبال من ناحية الخلقة الجميلة.

الجواري الثلاثة اقتربن منا، واحدة منهن ركعت على ركبة واحدة ونصف منحية، تقدمت باللكن (lakan) وهو إناء اسطواني من الفضة المطعمة، مع غطاء مليء بالثقوب، وفيه وعاء للصابون ويستعمل للاغتسال، وجاءت الثانية بقارورة مملوءة بالماء لملي اللكن، وأيضا ركعت أمامنا وبقيتا كذلك إلى أن انتهينا من وضوئنا، أما الثالثة فكانت تحمل المناشف بحافات مطرزة بالذهب. بعد الانتهاء من هذا الطقس جاءت جاريتان بالبخور(bakhour) ، ثم جاءت ثلاث جواري واحدة منهن تحمل صينية بها ستة أقداح ذهبية فائقة الجمال والصنعة الرهيفة مملوءة بثلاثة أنواع من الشربت (sherbet)، الذي قدم إلينا من قِبل الجارية الثانية، في حين أن الثالثة كانت تحمل بيدها مناديل مطرزة حافاتها بالذهب، وجاءت ثلاث جواري أخريات واحدة منهن تحمل صينية من الذهب المطعمة بالماس والزمرد، عليها أكواب من الخزف تسمى فنجانًا (fingan) بيدات من الذهب تسمى (zerf) لتقديم صحون الفناجين لتقي اليد من الحرارة إذ لا يمكن مسك الفنجان بدون البيدة إذ أن القهوة تقدم شديدة

السخونة وبدون سكر أو حليب. بعد الانتهاء من القهوة جاء ثلاثة من الخصيان بالأراكيل (nerghila) ، إن عامة نساء مسوبوتاميا يدخن الأركلية إذ هي تشبه (hookah) ولكن فيها حوض كروي يوضع به ماء الزهر والورد ، الأنبوب الذي يوصل بين الفم وخزان الماء صلب وليس رخوًا ، إن الجو المهدئ للأركيلة والعطر من نبات الصبر (الصبار) (الالوفيرا) والصوت الخافت لحركة ماء الزهر وصوت الموسيقى الهادئ المنبعث من صندوق للموسيقى مستورد من الغرب والذي يعكس نغمات قطرات ماء منبثة من نافورة... كل هذه الأجواء جعلتنا ننغمر بجو من السعادة وكأننا في حلم شهي.

أعتقد ستستغرق المرأة الأوربية وقتًا طويلاً لتستمتع متعة المرأة الشرقية بالأركيلة، رغم أن الأوربية الآن عرفت متعة شرقية أخرى وهي الشاي الذي جاءها من أرض تشرق منها الشمس، ولكنني لن أنسى تلك الدهشة التي قوبلت بها ليلة ما في منطقة رجمند بارك ، بعد وجبة عشاء وأنا مستندة في مشيتي على ذراع نبيل ألماني كان يدخن السيجار ، وأدبًا قدَّم لي سيجارًا ، قبلت وبدأت التدخين ، وكانت مفاجأة للجميع أنني أدخن ، نفس المفاجأة التي نقابل بها نحن أهل الشرق عندما نجد رجلاً يعدم وجود الشعر فوق شفته العليا (الشوارب).

خلال نصف الساعة التي استغرقت مدة تدخين الأركيلة كنا نتحدث والجواري واقفات وقد عقدن أيديهن علامة على الاحترام، خلالها عرضت على الأميرة أن نزور جناح الحريم

في القصر ووافقت إذ كان الفضول قد تملكني، دخلنا أولاً غرف النوم وأغلبها كانت مغطاة بسجاد فخم، الأسرّة مصنوعة في بغداد من سيقان سعف النخيل خفيفة الحمل بحيث تستطيع حملها بيد واحدة، على فراش زوجة الباشا المفضلة كان هناك خمسة مفارش (دواشك) قماشها من الحرير بألوان مختلفة ومحشوة بريش طيور الطاووس... بعد زيارة عدد من غرف الحريم التي لا يقل عددها عن الثلاثين غرفة وكلها تقريبًا تتبع نفس الطراز الآنف، توجهنا إلى السطح الذي يطل على منظر أخّاذ وعلى خرائب أعظم مدينة وهي نينوى التي تنبئ الأنبياء بسقوطها[١].

على السطح نُصبت ثلاث خيم مصنوعة من قماش مشمع أزرق مخضر، بقينا هناك محميات من أشعة الشمس، ثم انعطفنا إلى الحديقة التي تبلغ مساحتها ثلاثة أرباع الميل المربع بجداول وأفلاج من الماء لا يزيد عرضها عن القدم الواحد، مرصوفة جوانبها بالمرمر ومزروعة بزهور يصعب وصف جمالها تملأ الجو بروائح عطرة تطغى عليها روائح الورد.

بعد قضاء ساعة في هذا المكان الرائع دخلنا الصالون حيث تم التعارف بيني وبين نساء الباشا الخمس والعشرين، منهن الجورجيات والقفقاسيات والكورديات، الجورجية بيعت له وهي في الثانية عشرة مما دفعها إلى اعتناق الإسلام، وأخوها مملوك أيضًا.

---

(١) نص ديني من النبوءات.

بعد هنيهة دخل الباشا وقام الجميع وقوفًا تحيةً له، كان رجلاً في الأربعين من العمر ، طويل القامة مهيب ، هيئته تدل على منصبه، بعيون سوداء لماعة ولحية سوداء تصل حزامه حيث خنجره (hanjar) المرصع بالجواهر معلق. ملابسه باذخة تعلن عن رتبته وموقعه، وأخلاقه المهذبة تشير إلى الثقة والاحترام...

قدمتني الأميرة له على أنني قريبة الـ(kerkhea) أو المقدم في الجيش وكانت الحقيقة ، حيث تلقاني بكثير من الأدب وأخذ يستفسر عن عائلتي وخاصة عن والدي الذي كان في (Bassora) في طريقه إلى بغداد.

حديثنا استغرق ربع الساعة ، إلى أن جاء صوت المؤذن من منارة قريبة يدعو إلى صلاة الظهر (salat al zohor) وفورًا تركنا الباشا متجهًا إلى الجامع القريب تاركًا حريمه (harem) ليقمن الصلاة في البيت ، وهذه الصلاة تتكرر خمس مرات في اليوم حيث يدعو الملا المسلمين لممارسة التزامهم حيث يقول المؤذن في صلاة الفجر : "الصلاة خير من النوم" وعند صلاة الظهر في وقت الغذاء يقول المؤذن "الصلاة خيرٌ من الطعام" وهناك الدعوة للصلاة الساعة الثالثة بعد الظهر وتسمى صلاة العصر(el assr) والرابعة صلاة المغرب (el mugerib) وتكون عند غروب الشمس، والخامسة في منتصف الليل.

النساء سلمن أنفسهن إلى التزاماتهن الدينية وأول شيء يفعلن أن يركعن وينحنين ويقبلن الأرض ويقلن : لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، ثم يضفن أن هناك لا أمل أو ملجأ آمن في هذا العالم

إلا في الله العلي.

أخذن يمارسن طقسهن وأمامهن ذخيرة - وهي قطعة من ملابس النبي التي قد لامست جسم النبي محمد وهي جزء من(sherwals) - وقد وضعن هذه الذخيرة الدينية في غلاف من الورق في علبة من الذهب المرصع بالماس والأحجار الكريمة، كن يقبلن هذه الذخيرة الثمينة ويضعنها على رؤوسهن خلال صلواتهن ، الصلاة استغرقت نصف ساعة حيث بقيتُ خلالها جالسة على الديوان (dewan) والفضول يملؤني.

بعد أداء الصلاة بورع وتقوى جاء العبيد يعلنون عن تقديم وجبة الغذاء، أخذنا طريقنا إلى غرفة الطعام التي كانت مفتوحة على الباحة، مما لطف الجو الحار لشهر حزيران، أغلب قرائي ليس لديهم الخبرة بأطايب الطعام التي تقدم في الشرق وسأشرح بإيجاز أنواع الطعام الذي قُدِّم لنا في بيت باشا الموصل: أولاً صينية تحتوي على عشرين صحنًا وضعت على مسند أو حامل من الفضة أو الصفر (copper) ، قياس قطرها ستة أقدام ، الصحون تحتوي على الشوربة من الرز والأعشاب (herbs) الخضروات والأخرى من البرغل (تسمية كرين كورن) والدجاج وهو الصحن المفضل لباشا مصر الحالي...!

ثم جاءوا بخروف محشوّ بالرز وأنواع الخضراوات (herb) والفستق والذي قُدم كاملاً مع الزعفران ليعطيه اللون والمذاق، والطيور المحمرة والقرع المحشي وثلاثة صحون كبيرة جدًا من الخضار التي تسمى بامية (bamia) مع اللحم المثروم

المفلوف بورق العنب، ثم الكبة (coobba) المعمولة من البرغل مع اللحم المسحوق محشوة باللحم والبهارات ، وشعر العجوز (shar al ajouz) وهي أكلة لذيذة جدًا على شكل كرة كبيرة بحجم رأس الإنسان ، وصحون كثيرة من الكباب (kabab) أو الكابوب (kabob) كما تكتب عادة وهو بشكله يشبه المقانق ، الصوصج يطبخ بواسطة سيخ من الحديد يقدم مع الكثير من الأكلات الإضافية التي يفوتني ذكرها الآن.

وعندما رُفعت صحون الطعام قدموا لنا بسخاء ووفرة الحلويات وكانت الوجبة التالية من أحلى المذاق.

طبعًا لم تُقدَّم المشروبات الكحولية، ولكننا تمتعنا بشرب عصير مكثف من الرمان الذي قُدِّم إلينا بأكواب من الذهب.

خلال وجبة الطعام كان هناك خمسة عشر عبدًا كانوا يقومون على خدمتنا ، واحد منهم يروح الهواء بمروحة كبيرة ، وقسم منهم أحضروا الماء للاغتسال ، وقدموا لنا النركيلة ، وبعدها سُمح لهم بالانصراف.

ولا يفوتني ذكر النقل (nuckle) وهي حلويات تحتوى على ما يشبه الثلج وتتساقط على الأشجار وتسمى باللغة الكلدانية جاسجول (gasgoul) وبالعربية مَنّ السما (man al sama). وكان هناك تين جبل سنجار ، جبل في شمال الموصل، هذا التين الهائل الحجم الذي يبلغ أحيانًا ٦ إنشات أو ١٥ سم في القُطر ، ثم قُدِّم لنا الليمون الحلو (laimon halou) من بغداد أو باصورة (Bassora) وهي بحجم فاكهة النفاش الهندي تشبه البرتقال

بالحجم والشكل، ولكن قشرتها رقيقة جدًا وحلوة المذاق وهي متوفرة في مسوبوتاميا بحيث الاثنا عشر منها تُباع ببنس واحد، ثم الحمص (hammas) وهي مثل النواة وتشبه البازلاء المجففة وتحمص بنفس طريقة القهوة وقد يضاف معها الفستق والجوز واللوز، وحب الرمان والعنب.

انتهت الوليمة وذهبنا إلى الطابق الأعلى، إلى الطارمة (tharma) والتي تقع فوق الإيوان (iwan) وتضاهيه في المساحة، أرضيتها من المرمر وتطل على الحديقة، في وسط الغرفة وُضِع سرير(serrir) عثماني الطراز مغطى بقماش الساتان الأصفر حيث جلست عليه زوجة الباشا الكبيرة يحيط بها العديد من المخدات. على الجهة المقابلة للحديقة كانت هناك أقفاص عديدة بها أنواع من الطيور المغردة صوتها يصدح في أرجاء الحديقة... في هذه الجنة الأرضية دخنا الأركيلة وارتشفنا القهوة، ثم تمتعت زوجة الباشا المفضلة بغفوة وقيلولة، وهي عادة شرقية متبعة في مسوبوتاميا. بالقرب منها عبدة شقراء تجلس قرب رأس السيدة تحرك مروحة من ريش الطاؤوس لترويح الهواء، والأخرى كانت تدلك أقدامها الصغيرة البيضاء، وثالثة تترنم لها بلحنٍ وكلمات أغنية تساعدها على النوم.

والآن - والسلطانة نائمة - سأستعرض لقارئاتي الغربيات طراز ملابس زوجة الباشا الشقراء المفضلة والتي يمكن أن يطلق عليها (par excellence) والتي تستطيع أن تنتف لحية باشا الموصل المرهوب.

هذه اللحظات المفضلة للقيلولة من قبل السلطانة الشقراء وهي غير واعية بأنني أكشف عن حسنها لنظرات الكفار (kafirs) منتهكي الحرمات... على كلٍّ، قميصها (khamis) من أفضل أنواع الحرير السميهي الشفاف الأبيض ، فوقه ترتدي (ghombaz) أبيض مطرز بورد من الذهب مع سروال قرمزي (sherwals)، حول خصرها نطاق من شرائط مطرزة بالبوردري وهو من شغل الجواري (jairiahs) وهن الرقيق البيضاوات وكلٌّ من يعتقد أنهن يمضين أوقاتهن في تراخي كامل على خطأ، الزنار أو النطاق كان مطعمًا بأحجار كريمة ومشبوكًا بمشبك من الذهب مصوغ على شكل حمامتين رأس كل واحدة منهما من المجوهرات الثمينة، في ذراعها تتحلى بصفوف من الأساور اللؤلؤية والماسية، وكردانتها (kirdan) من الذهب المحلى بأنواع من الأحجار الكريمة الثمينة، تتدلى من أذنها أقراط باهرة الألوان، وأرجو ألا يغمى عليكن أخواتي الأوربيات إذ أن في أنفها ثقبًا مثبتة فيه زمردة، شعرها ممشط إلى الخلف من جبينها ومرتب على شكل ضفائر صغيرة محلى بسلاسل من اللؤلؤ ، وكل ضفيرة مقسمة إلى ثلاثة أوأربعة فروع في نهاية كل واحدة حبة من اللؤلؤ ، في حين ضفيرتان مطعمتان باللؤلؤ كانتا تجملان كلا خديها، على رأسها زخارف من الذهب على شكل صحن صغير وهي طرة للرأس من الماس على شكل طير أكملت بها زينتها.

زوجة الباشا كانت تبقي بالقرب منها ببغاء مفضل اسمه درة[١] (durrah)، حصلت لة حكاية مثيرة ورائعة، كما يبدو أن الطير قد لُقن آياتٍ من القرآن، ولقد أتقنها بشكل ممتاز، ما كان ينافس فيه المُلا في إلقائه وخطبه، ولكن على المؤمنين أن يخضعوا للتجربة، ولهذا في يوم من الأيام ظهر طير سفيه من الجوارح أبصر الطائر المؤمن والذي بدون شك كان في حالة من التأمل ولم يشعر بالخطر الذي كان قريبًا منه محدقًا به، إذ حينها كان يتجول غير بعيد عن قفصه، ويبدو أن الطير السفيه لم يكن لديه خوف من النبي محمد، لو لم يكن هذا الطير من الكفار الغربيين فلربما كان شيعيًا أو يزيديًا... وما أن لاح للطير السفيه الببغاء الذي يتجول وبدون أدنى تردد هجم على الطائر الثرثار صديقِ السلطانة والتقطه وعلا في الجو مع نيته بأن يلتهمه كوجبة لذيذة لكن الببغاء صرخ بعلو صوته (La Illahon ila Allah w Mohammed rasul Allah) لا إله إلا الله محمد رسول الله.

في هذه اللحظة الطير الجارح السفيه انتابته الشكوك حول فريسته، وحينما صاح الببغاء: كل شيء زائل وباطل؛ تأكد الطير أنه قد التقط شيئًا غريبًا، وأنه في ورطة، لذا لم يضيع وقتًا في إفلات الببغاء الحصيف، وبكل أدب أنزله إلى المكان الذي التقطه منه... وبالنسبة للدرة فمنذ ذلك اليوم اكتسب منزلة عالية بين حريم وخدم الباشا، وأُعتبر أنه محمي من قبل النبي محمد... هكذا حدثتني الأميرة بهذه القصة.

---

(١) وهو الاسم الشعبي لهذا النوع من الطيور.

بعد أن صحت السلطانة وبرفقة الأميرة والسراري (serrari) أخذنا نتجول في الحديقة ونحن نمتع أنفسنا بعلك العلكة (alk) وهي مادة تميل إلى الإخضرار، مهضِّمة، يمكن استخراجها من منطقة بالقرب من نينوى، طعم العلك مقبول ورائحته جيدة ولا يذوب في الفم.

بعد أن أذَّن المُلا لصلاة العشاء؛ طلبتُ الإذن بالعودة، ولكن الأميرة أصرت على أن أصطحبها في زيارة إلى قبر النبي نوح الذي يعظّمه المسيحيون والكفار، يقع القبر على مسافة ليست بالبعيدة عن الموصل على تل النبي يونس، كنت مسرورة بالدعوة، ولكن لمرض والدتي امتنعت وترددت بالقبول، إلا أن والدتي شفيت بسرعة بعد أن ذهبت إلى عين كبريت، وهي حمامات معدنية للشفاء قرب الموصل على طريق بغداد، ولهذه الحمامات القدرة الفائقة على الشفاء، ولكن الأميرة محاولة منها لإغرائي بالذهاب معها قالت: إن الباشا قد اشترى جارية كردية صغيرة من جبال سنجار - مكان بين ديار بكر والموصل - والجارية جميلة جدًا وتريدني أن أتحدث معها بالكردية لأنني أجيدها، كنت فعلاً أحس بالرغبة والفضول بمشاهدة الكردية الجميلة ولكنني اضطررت لمرافقة والدتي التي أصرت على ذهابي معها إلى عين كبريت (Ain el Kibrit).

تلك الليلة لم أعد لبيت والدي أو للدير بل قضيتها في بيت إحدى أخواتي التي تسكن غير بعيد عن القصر قرب جامع نور الدين.

بعد عودتي من زيارة أخت الباشا ذهبت مع والدتي إلى عين

كبريت ، رحلة هذه المنطقة استغرقت ثلاث ساعات بدون أي مضايقات من أفراد العصابات التي تعمُّ المنطقة.

نصبنا خيمتنا أمي وأنا والخادمة، حمامات عين كبريت موضع اهتمام الناس ، ففيها نجد العلك الذي جمعه موضع للتسلية وتنشيط الهضم. عين كبريت مكان يستطيع المرء أن يصفه بأنه موضع لشفاء المرضى المقعدين ، وهو في موقع على جبل يسمى كركر (kurkur-baba)(١). مكان مرتفع يخرج من قمته ما يشبه البخار ، وعندما يُنبش ينبثق اللهب ، وهذا ما نستعمله لطبخ طعامنا المسمى البلأو ، ولغلي الماء.!

من طفولتي يغمرني حب الاستطلاع والبحث العلمي ، وأتذكر مرة وأنا طفلة كنت سأذهب شهيدة هذه الرغبة وأقع في فوهة هذا الموقع الملتهب، هذا المكان يمثل الينابيع الثلاثة التي تُسمى النفطة (naphta) تسيح من الجبل إلى السهل، إذا رميت على هذه المجاري قطة مشتعلة من القماش أو القطن يسمع لها دوي انفجار مثل المدفع ، والمجرى يُغطى بالدخان إلى أن يجف وينتهي وتنطفئ النار ، فيعود مجرى النفط إلى طبيعته ، وهنا توجد ينابيع القير أيضًا فلو سقط فيها إنسان للقي حتفه فورًا (٢).

---

(١) بابا كركر موقع قرب كركوك ، ربما أن هناك خلطًا بالمواقع ، أو قد يكون هذا الاسم حينها يطلق على أكثر من موقع واحد.

(٢) هنا كأنها تتحدث عن القيارة... (ما معنى القيارة؟).

بعد أن استحمت والدتي في الينابيع المعدنية وشُفيت، من هناك ذهبنا إلى تلكيف مدينة تبعد تسعة أميال عن الموصل وباتجاه العمادية حيث كان عمي حاكمًا على العمادية! فهي اسم على مسمى، وترجمة اسم تلكيف يعني تل السرور![1]

تلكيف تربتها خصبة جدًا وتنتج أنواعًا مختلفة من الخضار، طول نبات الجزر حوالي ٩٠ سم وعرضها ٢٠ سم وثقيلة جدًا بحيث لا يستطيع طفل أن يحملها، وكذلك اللفت الذي يصل محيط الواحدة إلى قدمين (٦٠ سم)، وهناك نوع من الخيار يشبه الأفعى الطويلة وملتوٍ ممكن أن يلف حول الرقبة وتصل نهاياته إلى الركبة، ومن الشائع أن يُخلل اللفت ويكون مقبلات للطعام ويساعد على الشهية ويقلل من ارتفاع درجة حرارة الجسم في حالة الحمى، وهناك البطيخ (Battikh)، وأسعار البطيخ رخيصة جدًا، عندما أراد أحد الأوربيين أن يشتري ببارة واحدة سأله البائع هل لديك سلة لتضع البطيخات فيها؟ اندهش الأوربي وقال: هذه هي أرض الميعاد بدون شك!

إن تلكيف أرض الوفرة والخير، يمكن شراء خروف بثلاثة (بياسترس)، أي ما يعادل شلنين إنجليزيين، والدجاجة بثلاث بارات (ربع البنس الإنجليزي) ولكن أغلب زُرّاع وفلاحي تلكيف نادرًا ما يتعاملون بالنقود، إذ إنهم يتعاملون بالتبادل، فهُم

---

(١) ترجمة مختلفة لمعنى اسم "تلكيف"، فالترجمة الصحيحة هي "تل الحجارة" ولكن يبدو أنها ترجمتها عن العربية من كلمتين: "تل" و"كيف".

ينتجون مادة واحدة أو عدة مواد ويبادلونها بما يحتاجون لقضاء حاجاتهم العائلية من مأكل ومشرب.

الخبز مصنوع من دقيق ممتاز أبيض ، يُباع بسعر أربع أو خمس بارات ، أي ما يعادل ربع بنس والرطل يعادل خمس باونات ، وهذا الخبز مفضل لدى العرب ولا أعتقد بأنه يلائم الذوق الأوربي ، إذ يضاف إليه الكثير من الأعشاب العطرة (herbs) والملح، وعادة تخبزه طبقة معينة من البدويات تسمى (khabazat) وهن من البدويات المحترفات خبز الخبز إذ يجبن القرى من قرية إلى أخرى ويبقين فترة قصيرة في كل قرية ، يفتحن العجينة لصنع رغيف يصل قطره ثلاثة أقدام وسُمكه نصف إنش، ويُخبز في فرن يبقى طريًا لمدة شهر، تنقى الحنطة من الأوساخ ثم تطحن وهذه طريقة الخبز.

الفرن مبني من الطابوق وبشكل دائري مائل ، يصغر حجمه تدريجيًا باتجاه فوهته ، يشبه البئر إلى حدٍ ما ، يرتفع عن الأرضية إلى نصف قامة الإنسان، ولا يرتفع بشكل عمودي ، بل مائل نحو الشخص الذي سيخبز ، في قاع هذا الفرن والذي يبلغ قياسه حوالي سبعة أقدام يكون المشعل على أرضية الفرن، تأخذ الخبازة قطعة الخبز ويدها مغطاة بقماش مشمع (دهني) ومحشوة بالتبن لمنع الحرارة من الوصول إلى يدها ، وتلصق الرغيف على جدار الفرن بحيث يستوعب الفرن ستة أرغفة ، خلال دقيقتين يُرفع الرغيف ويحل مكانه رغيفٌ آخر ، وخلال ساعة تتكوم الأرغفة عاليًا ، وعندما يقدم للطعام يوضع على

صحن من القش (الحصير) ويرش بالماء ليكون جاهزًا للأكل. هؤلاء الخبازات يعملن كفريق من خمس نساء يدرن حول القرى والمدن يعرضن خدماتهن، في خلال يوم واحد يستطعن خبز ما يملأ سلةً قياس قطرها تسعة أقدام، وارتفاعها أربعة أقدام، ويحوك هذه السلة الناس النسطوريين الفقراء الذين يقطنون جبل زوزان (Zozane)!

وبما أنني أتحدث عن هذا الموضوع فسأتحدث عن الطريقة التي تستخدم في مسوبوتاميا في طحن الحبوب، وهي تختلف عن الأساليب المستخدمة في أوربا رغم أنني لم أرَ الطريقة المستخدمة في إنكلترا، إلا أنني رأيت الطريقة الإيطالية وهي غير عملية ومجهدة وأقل كفاءة من التي تمارس في وطني، وهذه هي الطريقة المستخدمة في مسوبوتاميا أو على الأقل في مناطق الجوار من الموصل.

الحنطة تنمو بشكل غزير في تلكيف، وسيقان نبات الحنطة قد يصل ارتفاعها ارتفاع رجل يمتطي حصانًا ويخترق الحقل بدون أن يشاهد، يُقطع النبات إلى منتصف المسافة ما بين السنابل والجذور وتبقى السيقان المتبقية علفًا للجمال وبقية المواشي، بعد قطف السنابل يمنع صاحب الحقل من أخذ أي شيء من الحقل ويترك ما تبقى للالاقطين الفقراء.

إن وفرة الإنتاج تجعل سعره رخيصًا جدًا ما يعادل وزن خمسين إلى سبعين باونًا بسعر ثلاثة بياسترس.

بعد انتهاء الحصاد، يُجمع محصول المنطقة في البرية، ويكدّس على شكل تلّة صغيرة حيث يغذون الماكينة التي تفصل السنبلة عن القش وعصيف السنابل ، وفي كل سفراتي لم أشاهد أي ماكينة متطورة تشبه تلك التي تستخدم في مسوبوتاميا وأشور ، ولهذا سأحاول شرحها ووصفها بإيجاز وهي كالتالي: أنبوب من الخشب بارتفاع أربعة أقدام وسمك قدمين، مثبت أفقيًا تحت دكة أو مصطبة أو منصة مستقرة على حامل أو عربة مرفوعة بدواليب أو عجلات ، وعلى هذه الأسطوانة التي تدور ، في العجلة فتحة بقياس قدم مثبت صفان من سكاكين أو شفرات حادة جدًا تشبه البلطات أو الفأس، هذه تدور بمسافة تبعد عن الأرض تبلغ حوالي أربعة إنشات، هذه الماكينة مثبتة بنير على حصانين أو أكثر ، وهي تدور في قطر دائري واسع جدًا ، السائق يقف على الدكة أو المنصة التي ترتفع ثلاثة أو أربعة أقدام عن الأرض ، وعمال يقفون قرب الكومة من المحصول المهيّأ ليزودوا به الماكينة من فتحة الوسط بالحبوب ، وبدوران هذه الماكينة تُدرس الحبوب ، خارج هذه الحلقة الكبيرة يقف بعض الرجال يحملون آلة بأسنان طويلة ولكنها دائرية واحدة فوق الأخرى، ويهبشون السنابل المدروسة برفعها إلى الأعلى ويقوم الهواء بفصل التبن أو العصافات عن سنابل الحنطة وبعدها يقومون بجمع حبوب الحنطة، ويأتي الناظر (nazur) الذي يتم تعيينه من قبل الباشا والذي بدوره يحدد حصة الحكومة من المنتوج والذي عادة يبلغ عُشر المحصول ويختم حروف اسمه على الكمية المقرر أخذها، وعقاب من يخل بهذا خمسمائة جلدة.

كل حقل للحنطة يحتوي على عدة آبار يبلغ عمقها عشرين قدمًا وقطرها ثلاثة أقدام على سطح الأرض، في حين قعرها يبلغ العشرين قدمًا، قاعدتها وجدرانها مطلية بالقار الأسود لمنع تسرب الماء أو الرطوبة، في هذه الآبار يُخزن فائض محصول الحنطة وتوضع حجارة كبيرة على فتحة البئر كي لا يكتشفه السراق، وعندما يريد صاحب الحقل أن يستخرج من البئر الحنطة ينزل عامل متدليًا بحبل ويغرف من الحنطة الكمية المطلوبة لجلبها إلى فوهة البئر، وفي كثير من الأوقات يفسد هذا المنتوج الوافر لعوامل الزمن، ولكن الإنسان لا يفكر بتوزيع الوافر إلى إخوته في البشرية بل يفكر في الربح والاحتكار، لو يوزع الخزين لما كانت هناك مجاعة تصيب الإخوة في الخليقة.

الحنطة التي تعد للاستهلاك العائلي توضع في مكان يسمى (shekhim) أو مخزن الحنطة، وهو مكان في أعلى البيت تحت السطح، والسطح مكان أفقي مسطح مسنود بقُبة، لذا الفراغ في الزوايا بين القبة وسقف السطح تخزن فيه الحبوب، ومن غير المفروض ملء كل هذه الحجرات من الفراغ بالحبوب، بل واحدة أو اثنتان فقط تكفي للاستهلاك السنوي. وفي حائط هذه الجحرة توجد فتحة تسد بقطعة من القماش لمنع تسرب الحنطة منها، وعند الحاجة ترفع هذه القطعة من القماش وتنزلق حبوب الحنطة وتنزل إلى الأسفل في الكيس الذي وضع على الفتحة وبسرعة يمتلئ الكيس.

إن نفوس مدينة تلكيف ٢٠ ألف نسمة أغلبهم من النصارى ماعدا قلة نادرة من بقية الأديان ، البيوت تُبنى بطريقة خاصة من الأحجار المجلوبة من المقلع القريب وتُصف مع بعضها بواسطة الإسمنت والجص (الجير) الذي يستخرج من المقلع نفسه ، وهذا الخليط يتصلب بسرعة ويصبح بقوة وصلابة الحجر نفسه.

طريقة البناء وأسلوبه شيء بارع جدًا ، يفوق كل ما رأيت في أسفاري ، في غضون ثلاثة أو أربعة أيام يستطيعون في تلكيف بناء بيت من ثلاثة طوابق ، يهيئون المواد أولاً ، وفريق العمل ينقسم إلى مجموعتين : الفريق الأول يصفّ الأحجار بصفوف الواحد فوق الآخر ، في حين المجموعة الأخرى من العمال تهيئ المونة (نقع الجص) ، والعمليتان يجب أن تتما بشكل ترادفي ومتجانس في آنٍ واحد ، وإلا فإن المونة قد تجف وتذهب هباء قبل التمكن من وضعها بين الحجر.

لا تستعمل دعامات من الخشب في عملية البناء في عقادة السقف ، وكل البناية يتم بناؤها بصف الأحجار الواحد قرب الآخر ، وتبثت بالإسمنت والجص ، وبغضون نصف ساعة الحجر والمونة يتلاحمان ليصبحا سطحًا واحدًا صلبًا جدًا ، ولهذا يستطيع العمال الاستمرار في عملهم ووضع االحجر الثقيل وصفه صعودًا إلى الصف الثاني من البناية.

معمار وتصميم البيوت هنا لا يختلف كثيرًا عن بقية البيوت في بلاد أشور ومسوبوتاميا ، حيث الأقواس أو القناطر تحيط

بالحوش الداخلي في الطابق الأرضي أو العلوي، بئر للماء في وسط الحوش، وعادة لا يستخدمون النافورات إلا في بيت الباشا فقد كانت هناك نافورة.

البيوت تُبنى من الحجر ولكن جدرانها تُطلى بالإسمنت [١] (الجص)، وعندما ينشف يتحول لونة إلى أبيض ناصع، والإنسان الذي يشاهد المدينة عن بُعد وهو في طريقه إليها تبهره مناظر بنايتها الشديدة البياض.

بالقُرب من تلكيف يوجد نبع للماء بحرارة ثابتة صيفا وشتاء، مياه لها مذاق عذب وليس مثل eau sucree.

كما وتوجد بها كمية كبيرة من السلاحف، ولكنها لا تعتبر من لذائذ الطعام النادرة، كما عرفت، فهي تقدم في (الدرمان لندن / Alderman London) حيث أن السلاحف لا يجوز أكلها إذ إنها غير مقبولة مثل لحوم البغال والحمير، ونجد السلاحف في كل مكان في خرائب نينوى.

هنا أسَّس والدي مصانع من أجل تعويض ما فقده من ثروة حين بقي محافظًا على رباطة الجأش ولم يتخاذل عن الالتزام بتعاليم دينه، ثلاثة من هذه المصانع كانت لاستخراج الزيت من مادة تُسمى "السمسم" باللغة العربية، وهذه المادة لها استعمالات كثيرة هنا، منها كزيت للإضاءة أو للطبخ.

---

(١) تذكر هنا : السمنت.

وطريقة استخراجه كما يلي:

المعمل عادة يتكون من أربعة خزانات؛ ثلاثة منها بحجم حوالي الأربعين قدمًا مربعًا ، والآخر أقل حجمًا ، واحد منها يُطلى ويبلط بالإسفلت المتوفر في الجوار ، بعد أن تكون الحبوب قد نقعت بالماء لترطيبها إلى الدرجة المطلوبة من الطراوة، تسحق بمدقة خشبية كبيرة يبلغ طولها أربعة أو خمسة أقدام والتي يحملها خمسة أو ستة رجال يقفون في صف. وخلال ممارستهم هذا المجهود فإنهم يتغنون بأنغام معينة ويرددون جُملاً تقول: ليساعدنا الله، وكتب على الإنسان أن يحصل على رزقه بعرق جبينه.

بعد سحق الحبوب العجينة تفصل عن القشور والتي يكون لونها بنيًا غامقًا، حينها توضع في فرن وتحمص إلى أن تتحول إلى لون بُني ، ثمّ تطحن بواسطة مطحنة تشغلها الخيول ، وبعدها تتحول إلى عجينة ليست بالكثيفة مثل السكر الذائب بلون أصفر مائل إلى البياض... بهذا الشكل تؤكل مع العسل وتكون من ألذ وأطيب الأطعمة.

العجينة المتبقية نتيجة لتلك العملية توضع في خزان آخر تنقع في الماء الساخن حيث تستعمل للاستهلاك ، وما تبقى يوزع للفقراء ، وكذلك ممكن أن تمزج مع العسل حيث تعطي قيمة غذائية عالية، وما يتبقى من فضلات تطعم لقطعان الماشية.

أهل تلكيف أطباعهم حامية وحارة وخاصة عند الإهانة، وذلك عند وصفهم بكلمة خنزير ، إذ تظهر الخناجر وتسل من الأحزمة

ولكن الدين يفرض عليهم عدم الغضب والتسامح كما في الوصايا العشر وليس المقابلة بالمثل.

التعليم مهم جدًا في تلكيف وكل العوائل تأخذ مسوؤلية تعليم أولادها القراءة والكتابة ولا يوجد شخص أمي في تلكيف، ولن تقابل امرأة أو رجلاً لا يستطيع الكتابة. وأهل تلكيف يولون العناية التامة للعلوم عامة ويطلق عليه أثينا الصغيرة، ويطبقون وصايا الله وما مذكور في الصلاة الربانية كاملة، والعفة وطهر الأخلاق مهم جدًا ومن يخالف هذا يقتل بالرجم بالحجارة.

أهل تلكيف يلتزمون بالصوم حسب الطريقة المعمول بها : الامتناع عن كل الطيبات واللحوم والزفر عامة والاكتفاء بالخضار والكماءة والرز فقط، وهنا لا أعطي لهم الأفضلية على أهل الموصل أو مسوبوتاميا ، بل هم مثل بقية سكان مسوبوتاميا في التزاماتهم الدينية ويرددون مقولة أن (الموت معلوم ولكن الساعة غير معلومة).

وكرمهم يشمل الجميع اليهود والمسلمين واليزيدية وكل الطبقات بيوتهم مفتوحة للغريب، ولشدة تنافسهم لضيافة الغريب اختلقوا وسيلة كي لا يتخاصموا وهم يتنافسون على ضيافة الغريب وهي أن أول من يلمس الغريب له الحق في ضيافته، وبهذه الطريقة حلوا مشكلة التنافس فيما بينهم على الاستضافة...! ولا يعتبرون الضيافة فضلاً أو مِنَّة، بل واجبًا عليهم يجب أن يقوموا به ، ويجب أن يتصدر الضيف- الغريب مائدة الطعام ، ومن عاداتهم ما يبقى من الطعام لا يجوز حفظه لليوم التالي بل يجب

أن يوزع فورًا على الفقراء.

وهذه العادات والتقاليد يطبقها كل سكان مسوبوتاميا إن كانوا نصارى أو مسلمين، بِعُرفهم ضيافة الغريب طقس مقدس حتى البدوي والذي يعتاش على النهب والسلب والقتل إلا أنه يعامل الغريب والضيف معاملة تختلف تمامًا عما يزاول من طريقة ليعتاش بها.

والدي كان كريمًا إلى أقصى حد، ويعامل الغريب وكأنه صاحب البيت، وكان يشترى العبيد ليعتقهم وخاصة كبار السن والمعدمين، حتى أن أحد الأكراد من شيوخ سنجار قال له لماذا تشتري هذا العجوز، ردَّ والدي: (Le wigi Alah). هذا الشيخ الكردي كان مثل أغلبية من يقطنون جبل سنجار من طائفة اليزيدية (Yezidi) إنهم يعبدون الشيطان، وأتذكر عدة مرات والدي عاقبني لأنني أبصق على الأرض أمامهم عندما يزورونه إذ يعتبر هذا العمل إهانة شديدة تلحق بالشيطان. إنهم يرسمون علامة الصليب ويُعمَّدون على الطريق المسيحية الشرقية بعد ثمانية أيام من ولادة الطفل، يؤمنون بالله وبالمسيح ويلصقون به صفة "المخلص"...

يعتقدون بأشعة الشمس، وكل ما يحصل عليه من نور بطريقة اصطناعية عمل يخلو من التقوى واستعمالاته محظورة تمامًا، ولا يجوز البصق على النار، إذ يعتبرونها مقدسة. ويتعبدون للشرير الذي يطلقون عليه Amir el Zallam يعاهدونه ويقدمون النذور الثمينة له مثل الذهب والمجوهرات ويضعونها

في شق جبل سنجار حيث يعتبرونه مقدسًا... ويومًا ما عرفت السلطات التركية بهذا الأمر، وًاجبر الراهب اليزيدي أن يدلهم عن المكان حيث أخرج كل الهدايا الثمينة التي كانت تدفع وتحشر في تلك الفتحة.

اليزيدية قطّاع طرق ويعاملون بقسوة من يقع تحت أيديهم، هم لصوص عتاة، ولن يتوانواعن مهاجمة القوافل التي تمر من المناطق الموبوءة بهم، ويعاملون المسافرين ببربرية متناهية، يكرهون اسم النبي محمد إلى أقصى حد ويتعقبون نسله وينالون الجنة (Jannah) إذا ما قتلوهم، ومن يموت على يد مسلم يعتبر شهيدًا، ولم يتوانَ الأتراك عن منحهم هذه الفرصة إذ كانوا يقتلونهم بكثرة.

يولون الكثير من الاحترام للكنائس والأديرة المسيحية، ولكنني لم أسمع أنهم تجنبوا الهجوم على قوافل المسيحيين وإذا ما تعرضوا لهجومهم فإنهم يعانون من سوء المعاملة والسرقة، ولكنني أعرف أنهم عندما يدخلون أديرتنا وكنائسنا فإنهم ينزعون أحذيتهم ويقبلون الجدران، ولا يدخلون المساج أبدًا، بل يتجنبونها تمامًا.

يهابون أميرهم (emir) الذي يطلقون عليه لقب "أمير الظلام" ويلغون من لغتهم أي كلمة قد تتشابه مع اسمه، وكل حروف اسمه يُمنع النطق بها... ولهم كتابهم الذي يدعم معتقدهم، ويستندون على أن الشيطان يحكم العالم بالاستشهاد بأن الشيطان عرض على المسيح كنوز وممالك الأرض، مما يدل على أنه

يملك الأرض، لذا لا يجوز إغضابه، ويعرفون متى التوقف عن الاشتقاق من الكتاب المقدس حيث تتكرر كلمات لا تناسب معتقدهم.

يُعتقد أنهم من بقايا أتباع "مأني" ، لديهم رهبانهم والرجال الروحانيون، ورئيسهم يستطيع التواصل مع أمير الظلام الذي يعبدونه.

لكنني لم أوفق بالحصول على معلومات كافية حول معتقدهم، وهم يشعرون بالخجل ولا يحبون البوح بمعتقدهم للغريب ، ولديهم معبد للتعبد ويقيمون المهرجانات الدينية ويتجمعون كلهم بهذه المناسبة، ويقولون إن لديهم مكانًا في جبال كردستان.

من ملاحظة لون بشرتهم وشعرهم يبدو أنهم خليط من عدة أجناس، وعادة سكان الجبال لا يحلقون لحاهم وشواربهم.

حاول الكثير من قبل مختلف الباشوات القضاء عليهم، لكن كل المحاولات باءت بالفشل.

كان والدي يستقبلهم ويضيفهم في بيتنا، ويقول إنّ الإنسان يجب أن يقبل بالصالح والطالح سوية ولا يفضل أحدًا على الآخر وهذا يدل على منتهى التواضع مثلما فعل المسيح.

تقاليد الزواج في مسيوبوتاميا بين المسيحيين تختلف كثيرًا عن أوربا إذ أن الخطوبة تتم من قبل الأهل منذ الولادة ولا يتم أي اتصال بينهم إلى يوم الزواج، والفتاة التي تصل إلى سن الواحد والعشرين ولم تتزوج تعتبر (passee) ولا يتزوجها أحد.

المهر يدفعه الرجل حتى لو كانت الفتاة ابنة أمير فإنها لا تجلب أي شيء من بيت والدها، على العريس أن يجلب الهدايا لها ولوالديها وأقربائها والأصدقاء أيضًا بالإضافة إلى دفع كل المصاريف المترتبة.

وعند وفاة والد الزوجة فإن زوج البنت يحق له أن يرث والد زوجته.

يوم العُرس من الصباح الباكر يمتطي العريس صهوة جواده برفقة أصدقائه، بعد أن يكون قد تلقى البركة من رجل الدين، يتوجه إلى بيت والد خطيبته وعندها تركب العروس مهرة، والعريس على فرسه يحف بهم أصدقاؤهم والأقرباء، إن الفتيات غير المتزوجات غطاء رأسهن من الحرير الأبيض، والمتزوجات يضعن عليه حلية من الفضة.

يرافق الموكب عزف الطنبورة والمزمار والأبواق... وما أن يقترب الموكب من الكنيسة حتى يصمت الجميع، ويتوقف العزف الموسيقى... ثم يعود الهرج والمرج والصخب إلى ما كان عليه بعد تجاوز بناية الكنيسة، حتى يصل الموكب إلى بيت العريس، وأحد الأقرباء يحمل العروس وينزلها من الحصان وتخصص غرفة لها ولضيفاتها وغرفة أخرى للعريس وضيوفه

وتقام وليمة كبيرة جدًا للجميع ؛ للمدعوين ولغير المدعويين ، ويستمر هذا الاحتفال لمدة أسبوع. والفقراء لا يُهملون في مثل هذا الاحتفال، إذ أن أحد أصدقاء العريس يكون قد وضع الكثير من النقود في سلة وهو على ظهر الفرس يوزع النقود للمحتاجين، يسير الموكب وهم يرتلون، ويصلون بيت العريس حيث يكسرون جرة من الفخار موضوعة عند الباب ، ثم أحد أقرباء العروس والتي تبقى ورأسها مغطى يرفعها عن الفرس ويدخلها إلى بيت العريس، وبعدها يذهب العريس مع أصدقائه وأقربائه إلى القسم الخاص بالرجال... تستمر هذه الطقوس الاحتفالية لمدة أسبوع ، والحضور يكون ما بين الخمسائة والستمائة زائر ، وأحيانًا تستمر تسليتهم في مكان على مشارف المدينة حيث تُنصب خيمة ويقومون بـ fete champetre

ويبقى الفصل بين الجنسين قائمًا خلال هذه الاحتفالات.

خيمة العروس عادةً من اللون الأزرق السماوي.

وبعد انقضاء الأسبوع كلٌّ يذهب إلى سبيله ويترك العروسين لحالهما.

إن النزاعات بين الأزواج غير معروفة أبدًا والعهد الذي أخذاه على نفسيهما يبقى طوال العمر.

في حالة الوفاة مظاهر الحزن أيضًا تستمر لمدة أسبوع، إلا أن مراسيم الدفن تتم في نفس اليوم بعد ساعات، ولكن تم تعديل هذا الأمر لاكتشافهم أن البعض ممن اعتبروا أمواتًا قد عادوا إلى الحياة، ولهذا جعلوا المدة أربعًا وعشرين ساعة، ثم يدفن الميت، وخلال السبعة أيام لا يسمع غير صوت البكاء والذهاب للقبر للنواح على المتوفى ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يتم استئجار النواحات لغناء المراثي ومضاعفة الحزن.

إن التماسك واضح في التجمعات المسيحية أكثر من غيرها ، وفي كل الأحوال فإن الأب يبقى مع أولاده ولا يتركهم، وما أن يتوفى حتى يتحمل المسؤولية الابن الأكبر ويتمتع بنفس احترام الأب.

بالقرب من تلكيف تقع ثلاث تلال تلتقي في مساحة أرضية ساشعة، هناك شق أرضي كبير تتجمع فيه المياه ولا يعرف له قرار ويبدو أنه قد حدث نتيجة عوامل مناخية جوية عاصفة ويقال إن عمقه ٢٠ قدمًا، لكن لا أحد يعرف كم يبلغ عمق الشق من الناحية الأخرى، وبه تتجمع الكثير من السلاحف الغريبة الأشكال ويتجنب أهل تلكيف الاقتراب من هذا البحيرة.(١)

خلال إقامتنا في تلكيف كانت تسليتنا هي صيد طيور السماني. صيد الطيور رياضة تُمارس في تلكيف ويمارسها النساء والرجال برمي الطعم والحبوب لأعداد هائلة من طيورالسماني (طائر يتميز بوجود ريشة بارزة فوق رأسه) الطعم يغطي الشبكة المخبأة وهي مربوطة بحبل ويسحب الحبل في الوقت المناسب.(٢)

---

(١) حادثة سقوط رجل في الفرن، ولم يعثروا عليه بين ركام الفرن الذي كسروه والفرن حجمه هائل. في هذه الأفران يعد الجص أو الجير وهي قرب المقالع وهي كبيرة جدًا وتشعل بواسطة القش أو التبن. ولكن بعد سبعة أيام ومن بين الأنقاض سمعوا أنيناً وخرج الرجل سالمًا، وهذه الحادثة تعيد الذهن إلى ما هو مكتوب في سفر دانيال أيام نبوخذنصر والأنبياء الثلاثة الذين رفضوا أن يسجدوا لغير الله والقصة معروفة.

Misach Abedenago ،Sidrach ،Nabuchodonoso

رغم أن أسماءهم وردت مكتوبة بخطأ إملائي ، تسهب في إضفاء البعد الديني على هذه الحادثة.

(٢) تشرح بدقة كيفية صيد الطيور.

في طريق عودتنا من رياضة صيد الطيور واجهتنا قوة غير قليلة من السلابة العرب ، وكان عددنا قليلاً جدًا ولم يكن من الحكمة مقاومتهم، لذا أعطيناهم كل ما نملك، حتى الطيور التي اصطدناها، وأخذوا خيولنا وبغالنا وحميرنا... ولكن أخي أسرع بالوصول إلى مشارف تلكيف وأخذ يهيل الرمال بنثرها عاليًا ، وهذه علامة يفهمها أهل تلكيف ، فخرجوا بدون تردد يعتلون خيولهم وتعقبوا اللصوص واسترجعوا منهم كل المسروقات... لذا تقاسمنا ما اصطدناه معهم.

لو أنني ركنت إلى شرح أساليب الحياة والتقاليد لهذه المدينة الصغيرة فقصدي أن أوفر لمعلمي وأساتذة ديننا في الشرق [1] الاحترام والثقة والتعاطف التي تخول لهم من قبل مشاركتهم في أخوية المسيح، وإنني أنقل ما أعرفه عن مجتمع قضيت فيه عدة سنوات من عمري.

وهم لا يختلفون عما وصفتهم هنا أنا مهتمة بإنقاذهم من التجني المفروض عليهم ، كالتعصب الذي لا يحتمل والقسوة الدينية السلفية.

أنا لا أريد أن أعطي أبناء وطني نفس مكانة المتنورين الأوربيين وأعرف بأنهم لم يماروا الغرب في مهارتهم، نحن لا ندعي بأننا نملك خصائص رقة أو لطافة حضوركم البدني ولا

---

(١) الشرق تُطلق أحيانًا على كل المنطقة.

لدينا قابليات مهاراتكم في الجدال والمماراة، نحن متواضعون ومعفرون ، ميراثنا أمسى غريبًا ، بيوتنا صارت للغرباء ، أصبحنا يتامى ، أمهاتنا أرامل ، ندفع المال لنرتوي بمياهنا ، نشتري حطب أرضنا، منهكون لا راحة لنا.

مدننا كانت شاسعة وتنعم بالملايين ، بيوتنا عالية الجدران وأبراجنا المرتفعة في مسوبوتاميا الكبيرة والعظمية بتاريخها وتراثها، إلا أنها ترزح تحت وطاة عويل بنات آوى والضباع أو صراخ الوهابيين ، الذين يغافلون المسافرين ، هذه الأصوات تُسمع عوضًا عن نقرات الدفوف أو أوتار القيثارة التي كانت تشنّف أسماع الأمراء الذين نسوا مخافة الله.

وأتمنى أن يعذرني القارئ، لأنني تربيت في مجتمع يشجِّع على فضائل الصدق والأمانة والإخلاص بشكل فطري وبسيط ، الإخلاص والتسليم للإيمان بالله، إنها جزء من مخافة الله، وهي قمة ما يتصف به أبناء هذا المجتمع، أنا أحاول أن أسعى بكل جهدي المتواضع لأدافع عن أخلاقيات الرجال الذين أحيانًا يتعرضون للسلب وسفك الدماء ومحاطون بمن لا يقيم ولا يحترم حياة إخوتهم في البشرية.

من تلكيف عدنا إلى الموصل، وبعدها توجهنا إلى "القوش" وهي مدينة صغيرة تقع شمال الموصل، الرحلة ضمن قافلة من مائة شخص وأمي وأخي وخادمة واحدة، الرحلة تستغرق ١٢ ساعة، وابتدات بعد الفجر عند شروق الشمس، وفي طريقنا مررنا بتلكيف وبطنايي وعدة قرى أخرى حيث البيوت مبنية

من الحجر ، حلَّ الظلام ولم يبقَ أمامنا سوى ما يقل عن ١٢ ميلاً لنصل القوش، حيث وصلنا إلى سلسلة من الجبال، ولكننا كنا نسير في منطقة سهول، وهي المشهورة بعصابات السلب والنهب، أفلت الشمس وحل الظلام ونحن نتأهب للوغول في فج وادٍ حجري ضيق، ولم نكن متيقنين من أن رحلتنا ستدوم بأمان، وهنا تطوع أخي لاستكشاف المكان والذهاب وحده للاستطلاع.

لكنه عاد بعد فترة طويلة يرافقه اثنان من أكراد سنجار ويبدو أنهما من عصابات قطاع الطرق، فأكراد سنجار يمارسون هذه الجرائم... وتدور معركة حامية يصاب فيها أخي بجروح وأمي تحاول أن تثنيه عن المحاربة والقتال إلا أنني أشجعه وأطلب من أمي أن تكف عن ضعفها النسوي وأقول لها: بالله عليكِ يا أمي إن كنتِ لا تستطيعين أن تحفزيهم وتلهميم للقتال فكفّي عن زرع الضعف في عزيمتهم بخوفك الأنثوي، إن الله لا يتخلى عن أصحاب الحق.

الأكراد قاتلوا برماحهم الطويلة المشعة، أصبحت المعركة غير متكافئة، وأُصيب أخي بجرح وأخذ ينزف، وما كان على الجميع إلا التسليم... وبدأت عملية السلب والنهب، جردونا من كل شيء، الخيول والجمال والأموال ولم يبقَ علينا سوى ملابسنا الداخلية وغلالات من ثيابنا.

ترك الأكراد ساحة المعركة بعد أن قتلوا خمسة عشر فردًا منا، ولم يتوانوا عن تجريد الجثث من كل ما عليها، لقد حارب رجال قافلتنا الصغيرة كالأسود الشجعان، وأنا لم أدخر وسعًا في

إطلاق صيحات التشجيع والمؤازرة ، إلا أن أخي بقي فاقدًا للوعي نتيجة للنزف الدموي ، ولكن مع هذا لم تفتر عزيمتنا وقررنا مواصلة السير حُفاة عُراة منهكين ، واضطررتُ إلى حمل والدتي على ظهري لعدم تمكنها من السير ، وبعد ضنى وصلنا قرية استقبلنا رئيسها بحفاوة لأنه كان على معرفة بوالدي وبقينا هناك ثلاثة أيام لتضميد جراح أخي.

في هذه المعركة خسرت شيئًا مهمًا وهو كتاب أعتز به جدًا يحتوي على صلوات وأدعية.[١]

أرسلنا رسالة إلى خالتي في القوش التي بعثت ابنها مع الخيول لأخذنا إلى بيتها، وبقينا هناك إلى أن شفي أخي.

القوش تربض على قاعدة جبل عالٍ جدًا ، وعلى بُعد نصف ساعة منها يقع دير "مار ربان هرمز" المبني على قمة جبل. يحتوى هذا الدير على ١٢ كنيسة و٣٦ قاعة وعدد كبير من الغرف ومقبرة وسرداب تصل إلى القوش نفسها. إن المذبح في الكنيسة الكبيرة يصل عرضه إلى ١٢ خطوة وهو من العاج ومحفور بتماثيل لا حصر لها.

في هذا الدير يوجد رجال ماهرون في كل العلوم، يخطئ من يظن أن العربية[٢] لا تحتوى إلا على اللصوص الأغبياء أو

---

(١) أحاول اختصار الكثير من التفاصيل التي لا أجد مبررًا لها.

(٢) هكذا تطلق على المنطقة.

عبدة الأصنام أو المسيحيين غير المتنورين.

إن قطّاع الطرق وعصابات السلب والنهب من الأكراد هاجمت هذا الدير مرارًا ونهبت كنوزه وكُتبه، وغالبًا ما كان هؤلاء مسخرين ومدفوعين من قبل الباشا حاكم المنطقة.

لم يدخر والدي وسعًا في دعم دير مار ربان هرمز، هذه المؤسسة التعليمية، كان دعمه في أوقات الخير أو الشر لغرض علو ورفع وسائط التعليم والعلم في آسيا (١) ، ولأجل أن يبقى الشرق منارًا للعلم إذ أن نور المعرفة شعَّ منه.

في القوش قبر ناحوم الذي ولد في القوش، بنى اليهود كنيسًا حسب الشريعة الموسوية، ووجدتُ فرصة سانحة في أحد الاحتفالات اليهودية، ودخلت الكنيس الأمر الذي أزعج والدي، إن هؤلاء اليهود متلزمون بتعاليم دينهم أكثر بكثير من يهود أوربا ويفضل اليهودي الموت على حلق لحيته التي تمثل رمزًا لدينه.

أهل القوش على عادة سكان نينوى القدماء وقبل صوم الخمسين بعشرين يومًا يلبسون الملابس الخشنة والمتواضعة، ولمدة ثلاثة أيام يعفرون وجوههم بالرماد جريًا على العادة التي درج عليها أهل نينوى تجنبًا لغضب الله يلتزمون بالصيام، وهذا ما يجرى في جميع المناطق الأشورية، ولم أشاهد من يمارسها في أي

---

(١) وتطلق كلمة العربية أو آسيا أيضًا على المنطقة.

مكان. ولقد استمرت تتوارث عبر الأجيال منذ سقوط نينوى.

أهل القوش من عرق طيب، طوال القامة بجسم مملوء وبشرة بيضاء تميل إلى الشقار أكثر من بقية سكان هذه المناطق، النساء يلبسن غطاء رأس محلى بالفضة المزخرفة، وتمتد فوق الرأس على شكل منحنٍ ومتصلة بشريط أحمر، في حين أن الرجال يلبسون الطربوش الأحمر يتدلي إلى الوسط.

بعد أن تعافى أخي قررنا الذهاب إلى الموصل... ولكن ما حدث لنا بعد ذلك أقسى وأمرّ مما جرى لنا على يد العصابات الكردية.

إن الكنيسة في تلكيف لم تعد تكفي لِلمِّ أبناء الطائفة، وأخذ جدي موافقة الحاكم المسلم بعد أن منحة الهدايا الثمينة، على بناء كنيسة جديدة، وصدرت الموافقة على أن تبنى الكنيسة وفق مقاسات محددة وعلى ألا تتجاوز المساحة البنائية المخصصة لها[١]

نتيجة لسوء فهم بسيط فإن المعماري الذي خطَّط وأشرف على بناء الكنيسة تجاوز الحد المقرر للبناء بثلاثة أقدام، وكان من الممكن غض النظر عن هذا التجاوز الطفيف، لولا التعصب

---

(١) هنا تصف بناء الكنيسة وارتفاع هيكل المذبح عن ثلاث درجات عن الأرض ووجود باب يوصل بين الكنيسة والمذبح، ليس كما في الغرب أي شخص علماني لا يحمل صفة دينية لا يحق له أن يكون قرب المذبح، وإذا ما وجب وجوده هناك لسبب أو لآخر فإن اثنين من القساوسة يحملونه ليمر عبر المذبح.

الديني المحمدي، إذ انتبه لذلك أحد الأتراك من الذين لا يفوتون الفرص للنيل من المسيحيين، وهو إنسان ليس جشعًا فحسب بل قد نال حظوة دينية بين أصحاب دينه المضللين... هذا الرجل الذي يراقب المسيحيين في كل شاردة وواردة أو مخالفة فيما يخص القوانين ، أبلغ الباشا بأن جدي قد تجاوز الصلاحية الممنوحة له للبناء، وشُكلت هيئة للتحقيق والنتيجة واضحة، إذ حضر جمعٌ غفيرٌ من المحمديين يصرخون ويزعقون يطالبون بهدمه، كانوا كقطيع من الذئاب العاوية يصرخون بهتافات تقول (إن الكنائس المسيحية عبء على محمد وكل قدم إضافي كان عبئًا ثقيلاً على محمد).

سُجن جدي ووالدي، وقيدًّا بالأصفاد والسلاسل، ولكن الرشوة والغرامات أنقذتهما في النهاية، بعد أن دفع والدي كل ما يملك وتحول من ذاك الغنى إلى فقر معدم، لذا قرَّر السفر إلى بغداد تصحبه عائلته.

بعد وصولنا بغداد سكنّا في أحد بيوتنا غير بعيد عن ذلك البيت الذي قضيت فيه أيام صباي السعيدة ، ثم سافر والدي إلى الباصورة (Bassora) [١] حيث لديه بعض العلاقات لغرض استعادة ثروته

---

(١) على الأغلب "البصرة" إذ وجدت هذا في سجل أسماء مطارنة البصرة ، فقد كانوا يطلقون عليها "باصورة".

عاد والدي من الباصورة بعد أن نجحت تجارته، وقرر العودة إلى الموصل، لكي يلتف حوله المجتمع المسيحي، هذا المجتمع الذي كان يعتبر والدي رئيسًا له، ولم يتوانَ والدي عن القيام بهذا الدور، وخاصة بعد أن حالفه الحظ في تجارته في البصرة ونتيجة لتدبيره استطاع أن يجمع مبلغًا جيدًا من المال.

عندما كنا في بغداد ذهبتُ إلى بابل المدينة التي كانت تبعد مسيرة ساعة عن بيتنا في الطريق إلى الحلة، وتجولت في خرائبها. هذه المدينة العظيمة التي كانت فخر الكلدانيين والتي اعتبرت من أعظم المدن في العالم، إلا أن خرائبها كما يعتقد السكان المحليون مسكونة بالأرواح الشريرة وأن بابل مسكن الشيطان، ولقد كنتُ أشعر بهذا الشعور، لهذا كنت آخذ معي تعويذة كلما قررت الذهاب إلى هناك.

عدنا إلى تلكيف، وكان عمري حينها ١٦ سنة، واستعدنا أموالنا ونفوذنا، وتجمعت العائلة من جديد وكان عدد أفرادها يربو على ٤٠ شخصًا مع الخدم وسكنا كلنا سوية في منطقة واسعة شاسعة أستطيع أن أقول وأنا متأكدة من أن مساحة أرضها قد تصل إلى نفس مساحة اللوفر [١] .

بعد الطقوس الدينية نركب الخيل إخوتي وأنا للتجول في أرجاء الريف وخاصة في الربيع حيث الحقول مفروشة بالسندس ، الأرض تمور بالأزهار من كل لون ، الحنطة غير الناضجة والتي يلاعبها النسيم تبدو وكأنها بحر مخضر لا نهاية له، يمتد إلى مدى لا تستطيع العين أن تتعقبه.

---

(١) ثم وصف مسهب لممارساتها الطقسية والدينية ، وهذه ترجمة مقتضبة للنص: اعتكفت في غرفة خاصة بها في الطابق العلوي وكانت تذهب إلى ***** في الساعة السادسة صباحًا والأبواب تفتح الساعة السابعة ، وتبقى راكعة على ركبتيها في البرد (الآسيوي) القارص ، ومرة نزل البرَد (الحالوب) بحجم ثمرة الجوز فتسبب في قتل الكثير من الطيور بشكل لم يسبق له مثيل... لدغها عقرب وعولجت بمادة كاوية أو بالكي، رؤساء العشائر الكردية والبدوية يتعاملون مع والدها وأصبحت له صداقات حميمية معهم... تتحدث عن الطقوس الدينية وتصفها بالروعة لجمالها وتترك انطباعًا مؤثرًا في النفس حتى أن أحد الزوار الغربيين كان في ضيافتهم وأخذوه إلى الكنيسة وأخذ يذرف الدموع تأثرًا بالأجواء السامية. وهنا تشرح الطقوس : مائة متعبد يجلسون في صفين متوازيين وأمام الكورس كتاب ضخم جدًا موضوع على حامل ، هذا الكتاب ضخم وكبير جدًا لذا يحمله رجلان والتراتيل مكتوبة بخط كبير جدًا قد يصل قياس الحرف إلى إنش واحد. أصوات الكورس تترنم بشجى ديني حتى أن الضيف الغربي تعجب من الجو السماوي والذي لم يشاهد مثله في سفراته الكثيرة في بلدان العالم، هذه الطقوس تمارس في الهواء الطلق صيفًا.**

عادة نختار ضفاف دجلة أو أحد فروعها والذي اسمه باللغة الكلدانية Haousera حيث أقام والدي أكثر طواحينه (معامله). لنواصل ركوبنا ، كان أخي يركب فرسًا عربية أصيلة من فصيلة kaheilani تعود إلى والدي والتي كانت ذات قيمة عالية عنقها كان من قوس قزح وعيونها متوقدة كالجمر ، ذيلها كالصفصافة المسترخية، حوافرها كالتيس، وفي وثبها وعدوها كأنها تطير كالنسر... الكثير من البدو كانوا يسعون للحصول عليها واعتبروا أن لا مثيل لها ، غذاؤها الرز والخبز ، كانت ذكية ووديعة مع الأطفال، لا تؤذيهم وهم يلعبون بحوافرها.

ونحن ركوب على ضفاف النهر تولدت عند أخي الرغبة بأن يعوم مع الفرس في الجدول ، وبدون وجل ارتمت الفرس في الماء ولو كان مضيق باب المندب Bab el mandel [١] لما جفلت هذه الفرس ، ولكن الجدول كان أسرع مما خمَّن أخي وباءت محاولاته للخروج من الجدول بالفشل ولم يستطع إنقاذ الفرس وكان عليه إما أن يترك الفرس أو ينتهي معها، الفرس لم تعد تستطيع المقاومة لتنقذ نفسها ، وأخيرًا رمى أخي بنفسه من على ظهرها ، وبجهد استطاع الوصول إلى الجرف ، ولكن الفرس ماتت، وكان والدي يستطيع أن يطلب أي مبلغ من المال لقاء هذه الفرس العربية الأصيلة، إلا أنه لم يغضب على أخي وفقًا للتعاليم المسيحية. ووُجدت جثة الفرس واستخرج قلبها ودفن على سفح أحد الجبال.

---

(١) أعتقد : باب المندب.

الآن ولعدة سنين عشنا حياة لا يعكرها شيء ، وعندما كان والدي يريد أن يستضيف الأقرباء والأصدقاء ويقيم لهم حفلات الاستقبال فإنه كان يقيمها على ضفاف دجلة غير بعيد عن الموصل ، في مناطق ساحرة ، وكان بهذه الطريقة يحب أن يظهر كرم ضيافته. من المدعوين لهذه الحفلات بعض من الشيوخ الأكراد ورؤساء القبائل البدوية ، هذه الأيام كانت في منتهى الروعة حيث الطبيعة تزهو بملبسها المقدس ، إذ كان شهر أيار قد حل ، كل ما حولنا يبتسم ، النوائب قد ابتعدت عنا إلى الأبد واغتنى والدي مرة أخرى مما سيوفر له عيشة هنية إلى أواخر عمره المديد.

في هذه البقعة نصبنا خيامنا ، تشبيهًا بخيمة النبي إبراهيم كما هي مذكورة في الكتاب المقدس. ذُبحت الذبائح من الثيران والخراف وطيور السماني ، وحاولنا جهدنا أن نوفر المتعة لضيوفنا.

بعد انتهاء وجبات الطعام تفرقنا وأخذنا نتجول في تلك الأنحاء حيث خرائب نينوى التي من الممكن أن تستغرق ثلاثة أيام[١].

ولكن الأيام السعيدة هذه انتهت ، إذ وصل إلى سمع الباشا أن والدي قد عثر على كنز ثمين في أنقاض نينوى ، وأنه بثرائه يحاول التأثير على رعايا الدولة العثمانية لتحويلهم عن الإسلام،

---

(١) وصف مسهب لم أترجمه.

وبهذا يفقد والدي ثروته وهو الذي كدّ في الحصول عليها، ويفقد الناس الذين يستخدمهم مورد رزقهم ، والذين يضيفهم افتقدوا كرمه.

أُطلق سراحه بعد استبدال عقوبة الموت بمصادرة الممتلكات ، خرج من السجن وهو ركام روحيًا وجسديًا ، الكدمات والجروح تغطي جسمه تمامًا ، قدماه قد ازرقتا من ضرب الفلقة ، حاول الأطباء وجرَّاح ممتاز علاجه ولكن بدون فائدة ، لم تبقَ في والدي إلا أنفاس قليلة.

ناداني وقال لي : من سيحفظك من وحوش الصحراء ؟ من سيحمي أبناء جنسك أو عنصرك؟... ونصحني بأن أتبع رغبتي الملحة بالسفر بعيدًا عن هذه الديار إلى حيث عاش وعلم مخلصنا.

وبعد أن تسلم القربان المقدس لآخر مرة سلم روحه لخالقه وهو يقول: يا إلهي إليك أودع روحي.

أي لغه تعبر عن الرعب ، تلك اللحظات لم تبقَ أي دموع لأذرفها ، تمنيت الموت وسلمت نفسي للحزن والألم والنواح وسقطتُ مريضة بالحمى، ولكن كُتب عليّ البقاء والمعاناة.

(عمي/خالي) الآخر قضى نحبه، أما عمي مطران ديار بكر فقد شد وثاقه على حصان وأطلق صوب الصحراء ، وبعد أيام استطاع أن يحل الوثاق، وبقي يعيش على الأعشاب الصحراوية لمدة خمسة عشر يومًا ، بعدها استطاع الهرب وبقي يتجول

متخفيًا في عدة مدن إلى أن استطاع الوصول إلى بلاد فارس، ومن هناك عاد مرة أخرى إلى ديار بكر.

والدتي توفيت غمًّا وحزنًا بعد والدي بفترة قصيرة.

ولكن كأس أحزاني لم تمتلئ بعد، فبعد فترة قصيرة انتشر الوباء حاملاً معه في انتقامه خمسة وتسعين ألف نسمة ومن ضمنهم كل من لي بهم صلة الدم والرحم في هذه المدينة المشؤومة، فقد قتلهم الوباء.

وبقيت يتيمة في هذا العالم الواسع أتمنى الموت ولكن ملاك الموت تجاوزني، أخذت أتجول في الحقول لا أعرف أين أنا وماذا أفعل.

بعد سنين طويلة انقضت وأنا في الجمعية الآسيوية البريطانية، شاهدت كتابًا فيه صورة بالحفر لجسر الموصل، ترقرقت الدموع من عيني وكأنما لم ينقض على أحزاني إلا أيام معدودات.

بقيت وحيدة يتيمة كل ما أملكه بعض مخلفات أبي الذي كان قد أعطاها إلى أحد المطارنة وهي خاتمه وخنجره hanjar وساعاته وبعض المجوهرات من اللآلئ الثمينة وبعض الشالات الفارسية [١]

وكان المطران على علم بحالتي، عرض علي أن أصحبه إلى

---

(١) تطلق عليها أحيانًا اسم : ما شاء الله.

بغداد ونترك هذه المدينة المشؤومة ، اصطحبت معي سيدة أعرفها وجارية jairiah كردية وكلتاهما كانتا مسحيتين.

من الموصل أخذنا الكلك (kalak) [(١)] إلى بغداد وسار بنا على أمواج دجلة... كنا نترك الكلك ونمشي إذا كان الموج سريعًا ، أو لو أردنا التمتع بالمنظر الجميل. طوال الوقت كنت صامتة، أعاني من السوداوية والحزن، وعبثًا حاول مرافقيَّ أن يثيروا اهتمامي بالمحادثة، وسار بنا الكلك حيث جدول (naphtha) ينحدر من الجبال يصب في دجلة وهو مادة مشتعلة، ومحاولة منهم لإدهاشي رموا قطعة من القماش بالنهر وأشعلوها، بدأت النيران تغمر سطح الماء، وهذه الظاهرة الغريبة كانت مثار اهتمام الجميع... كنا ننام في الكلك، وفي صباح اليوم التالي استيقظت وأنا أكثر حيوية، صممتُ على أن أستعين بالله على مصابي وتحمل أيامي وأن أعتمد على الله تمامًا.

وصلنا نقطة خطرة من نهر دجلة، حيث تكثر فيها الحوادث بسبب كثرة الصخور قد تسبب تلفًا للكلك المصنوع من جلد الحيوانات، في هذه النقطة الناس عادة يبتهلون إلى الله تعالى أن كانوا محمديين أو مسيحيين، تركنا الكلك وصرنا نقطع المسافة مشيًا على الأقدام وكان هذا القرار حكيمًا جدًا ، كنا الشهود على قرب غرق عائلة بدوية بقيت مستقلة الفلك الذي انفجر نتيجة

---

(١) تصف الكلك مع بعض المناجاة الروحية وإشارة إلى خرائب نينوى كما جاء في الكتب المقدسة.

لتشققه، وقد وقع الجميع بالنهر ، ولكن البدو سباحون ماهرون لذا نجوا من الغرق.

في هذه المنطقة تكثر الأفاعي الكبيرة الحجم جدًا وعند المهاجمة تتخذ من جسمها وضعًا عموديًا ويبدو جسمها على شكل مضرب كبير أو هراوة عريضة(١).

بعد رحلة استغرقت خمسة أيام، وصلنا بغداد في بداية الربيع، بل في أواسط الربيع حيث ذوبان الثلوج من قمم الجبال في الشمال. في هذا الفصل يصبح دجلة سريع الجريان بحيث السفرة لا تستغرق أكثر من يومين.

عند وصولنا ، كان هناك رجال نصف عراة إلا من سروال قصير ، يحملون ركاب الكلك من النهر إلى الجرف ، وأحيانًا تتسبب حوادث إذ ينزلقون بأحمالهم من البشر ويضحك الناس بدون مبرر على الحالة المزرية لغيرهم.

حال وصولي بغداد سكنت مع بعض الأصدقاء ، وخلال فترة إقامتي معهم فكرت بمشروع مهم جدًا ، وجهت له كل طاقتي وكان المشروع حيويًا جدًا وهو إنشاء معهد لتدريس النساء، إذ كان لدي خبرة في تجربة مماثلة عندما كنت في تلكيف ولم أكن أعدم الوسائل المادية لإنشاء مثل هذا المشروع، إذ لا يزال لدي بعض الممتلكات القليلة، وبدعم من الأصدقاء الأغنياء ، الذين

---

(١) يبدو أنها تتحدث عن الكوبرا.

يحبون ويرغبون في التعاون كنت أشعر بالثقة من إمكانية القيام بهذا المشروع.

كان هناك رجل يرافقني وهو مسؤول عن حمايتي ، فاتحته بالموضوع لم يصغ إليّ واعتبر ما أقوله مجرد مشروع خيالي، ولن يفكر بمثل هذا المشروع إلا شخص شديد التفاؤل أو واسع الخيال وأن هذا المشروع لا ولن يفيد أي أحد.

ولكنني لست من الذين يحبطون بسرعة ، سعيت بكل جهد وحماس واستعرضت الفائدة من تثقيف المرأة فكريًا وبدنيًا ورفع مستواها الذي سيجلب السعادة للعائلة والمجتمع ، وما سبب أن تصل المرأة إلى أدنى المستويات الآن ؟ أليس بسبب الجهل ؟ ومن سبب أن يعم الجهل مجتمع النساء ؟ ومن الذي يوقف صراخ اللواتي يطلبن العلم والتقدم ؟ الرجال طبعًا هم الذين يمنعون النساء من التعلم وثانيًا يشتكون من قلة معرفة المرأة وجهلها، وكل هذا نتيجة لتعسفهم ومنعهم المرأة من التعلم.

قلت له : دعنا ألا نكون مسيحيين بالاسم فقط ، هل هناك أي تعليمات من جهتك تقضي بأن لا يجوز للمرأة أن تتعلم ؟ ألم تُخلق المرأة لتكون شريكة ومشاركة للرجل في كل شيء؟ وبأي سلطة أباح الرجل لنفسه أن ينصب نفسه ديكتاتورًا على حياة المرأة؟ أليس الرجل إنسانًا فانيًا مثل المرأة؟ ألا تعرف المرأة الخطأ والصواب ولديها الإحساس بالتفرقة بينهما؟ ألا تملك قلبًا يحس ويشعر بالامتنان والسعادة؟ ولكن لماذا تُعامل على أنها لا تملك دماغًا أو قلبًا ؟... ألم نشاهد النساء البدويات يتغلبن على

الرجال في الرماية والركوب والفروسية ؟ أليس ما تقوم به المرأة من أعباء منزلية هو عمل مرهق ومضنٍ وتتحمله؟ أفلا يدل على قوتها البدنية؟ أليس الرجل يجلس يتمتع بتدخين غليونه والمرأة هي التي تنصب الخيمة؟ وإذا اعتبرت المرأة المسيحية الشرقية جاهلة فهذا بسبب تجاهلها وفرض الجهل عليها، وبهذا الجهل يكون قد خلقنا التسلط وخلقنا من النساء العبيد الأرقاء.(١)

وبهذا المنطق حاولتُ إقناع الرجل الذي يحميني بقبول الفكرة، وعززتها بتمكني من اللغات الأوربية اللاتينية والإيطالية والفرنسية ، والهندوستانية والسريانية والكلدانية والعبرية والعربية، كل هذه المؤهلات ستجعلني أستطيع إقناع أي جهة رسمية بقدراتي.

وأخيرًا اقتنع حاميَّ بفكرتي، وأجرَّنا بيتًا في بغداد وبدأنا بقبول الطالبات بغض النظر عن العمر أو المنشأ أو الخلفية الاجتماعية ودرسنا القراءة والكتابة وأشغال الإبرة والامبرودري... ونجح المشروع نجاحًا منقطع النظير ، ولم نغفل تدريس التعاليم الكاثوليكية.

---

(١) هذه ترجمة مختصرة إذ تحكي قصة شعب يختار ملكًا غريبًا ليحكمهم ، وما أن يشعروا بأنه قد بدأ بالظلم حتى ينفوه وحيدًا بدون أي أموال ويجعلوه يتيه في الصحراء ، إلى أن جاء رجل ذكي حكم بالعدل وابتعد عن الإسراف والظلم ، وفي الوقت نفسه وفر لنفسه الثروة وخبأها في مكان بعيد آمن تحسبًا للطوارئ ، ولأنه رجل عادل لم يلاق ما لاقاه من سبقه ، ولكنه في الوقت نفسه حسب حساب الأيام العسيرة.

لم نبغِ شهرة ، كما لم نتوقع أي تدخل ، ولكن معهدنا أُغلق ومشروعنا أحبط، نتيجة لتدخل جماعة من المبشرين الأوربيين الذين يسكنون بغداد.

هذا الشخص الذي حصل على تفويض للعمل في الشرق ، بواسطة شخص متنفذ وغني كان يستعرض قوته وفرسانه بما يبدو وكأنه أهم من الباشا، كان في الحقيقة رجلاً لا يفقه شيئًا أبدًا لا يعرف ممّا يعاني أبناء الشرق، ولا مشاكلهم، استقبلناه بذراع مفتوح للترحيب به كرجل غربي مؤمن برسالة المسيح، ولكنه قلب لنا ظهر المجن وآثر أن يغلق معهدنا لأنه هو المخول.

إن الغرب يتصرف بشكل غير مسيحي أبدًا حيال الشعوب الشرقية، ولو حدث هذا التصرف من قبل شخص مسلم فإننا نفهم البواعث، ولكن من قبل الغرب الذي يدين بالمسيحية التي تروج للسلام والمحبة شيء لا نفهمه، سوى أن هناك بشرًا يريدون أن ينتفعوا من وجودهم في الشرق ليراكموا ثرواتهم، لذا لا أستطيع أن أفهم تصرف الغرب بهذا الشكل وربما أن أهل المدن يفكرون بطرق تختلف عنا، إذ كل ما يريدونه هو إيذاء الآخرين وإلحاق الضرر بهم، أي هنا في الشرق، لذا قررت أن أختلي في الصحراء إذ أن الصحراء تمنحنا ضميرًا حيًا نقيًا، لذا قررت الابتعاد واللجوء إلى الصحراء النقية حيث العدو عدو لا ذئب يرتدي ثوب الحملان ولن يخدعني من شاركته الخبز والملح.

قررت أن أبعث برسالة إلى الشيخ (Dryaah) في مضاربه بين بغداد وبابل والذي كان على معرفة بوالدي ويتعامل معه، ولقد استضافه والدي عدة مرات ولم أشك بأن رسالتي لن تلقى الترحاب منه لذا كنت أستعد للتهيؤ لهذه الرحلة... ولم يخب ظني إذ أن رئيس قبائل اسمه (Dryaah Ebn Shalan) أرسل ابنه وابنته لأخذي إلى مضاربهم، وما أن رأيتهما حتى أوشكت على البكاء وغمرني شعور عميق بالامتنان لهذه الشهامة بالقياس إلى ما عانيته من قهر من ذاك الر جل الأوربي الذي لا بد أنه ينظر إلى رئيس هذه القبيلة على أنه بربري وخارج عن القانون.

بعد معاناتي وأحزاني التي سببها رجل البعثة التبشيرية كان قبول البدو لي كأنه شعاع نافذ من الفردوس ، وبمرافقتي للفارسين توجهنا نحو مضاربهم ، شعرت وكأنني أتجه نحو والدي، كنت اعتمد على حُسن وقوة ضيافتهم وعزتهم وشرفهم وتمسكهم والتزامهم بوعودهم.

ولم نكد نشعر إلا ونحن في مضاربهم قرب بابل القديمة، على ضفاف الفرات. تم اختيارهم لهذا الموقع لخصوبة الأرض وغزارة حشائشها ونوعية أعشابها الممتازة.

مهما وصفت فلن أستطع أن أفي حق حفاوة الاستقبال الذي لقيته. وحال وصولي لخيمة درياح أو(Dryaah Ebn Shalan) قدمت لزوجته ولقريباته بطريقة تشير إلى الكثير من مظاهر التكريم لي والاعتزاز بي.

أول منظر يسترعي النظر عند اقترابي من المضارب هو امتداد

الخيم على مد البصر ، وأعداد لا تحصى من قطعان المواشي والأغنام والجمال التي كانت ترعى في تلك البراري لا جبال ولا أشجار تكسر من هذا الامتداد أرض خلاء نفاه واسعة لا حدود لها. كنا في شهر أيار والخضرة الطرية لفصل الربيع تطغى ، تنبع من بينها زهور ملونة ، ونهر الفرات بأمواجه الهادئة ، يبدو المنظر وكأنه حدقات العيون المرحة للشباب في أيام الصبا. يبدو المكان وكأنه موقع وموضع للبراءة والسلام ، وقلت لنفسي : هل هناك أنجع من هذا المكان لعلاج النفس المتكسرة ، وإلى أين تلجأ النفس المضطهدة لتنعم بالراحة والسلام؟ أليس لهذا المكان حيث هو مرتع للسلام والأمن حيث الطبيعة كما هي في بساطتها وأول انبثاقها قبل أن تأتي يد الإنسان وتفسدها أو تدمرها... الإحساس بالحرية والوعي ، بأنني قد تحررت من عبودية وأسوار المدينة والتي اقترنت بتجربتي القاسية مع المبشر الأجنبي ، والقهر والقمع الذي عانيته منه جعلني أشعر وكأنني قد سممت ، لم أحس بهذه المرونة الروحية إلا في ذلك اليوم الذي تمشيت فيه على ضفاف دجلة مع والدي.

خيمة رئيس العشيرة أو الشيخ واسعة رحبة جدًا كانت تتوسط المضارب ، يبلغ طولها حوالي السبعين قدما ومنسوجة من وبر الجمال الأسود (١)

---

(١) عادةً الخيام تصنع من شعر الماعز.

الخيمة مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الوسط لزوجة الشيخ ومرافقاتها، الخلف للخدم والطبخ وخزن المستلزمات الضرورية، والجزء الأمامي للشيخ لاستقبال زواره والأغراب الذين يرومون الزيارة أو الالتجاء وأيضًا غرفة الاستقبال (RABKA) (١).

بدأت الاستعدادات لتوفير مكان مناسب لي في قسم النساء وكان علي تعليق ستارة لتمنحني بعض الانعزال عن بقية النساء. وكذلك كي لا أسبب مضايقة أو إحراجًا أو نفورًا لأي امرأة إذا ما مارست طقوسي التعبدية الدينية.

يجب أن أقرَّ بأنني أُصبت بقليل من الاضطراب لتصوري النوم على الأرض، على سجادة وبدون سرير لعدم تعودي ذلك، ولخوفي وارتعابي من الحشرات والزواحف، فمنذ طفولتي تعودت النوم على سرير مصنوع من سعف النخيل ولم يخطر ببالي بأنني سأستعيض عن سريري بسجادة، ولحسن الحظ لا توجد عقارب هنا، ليس مثل بغداد فإنها - هناك - تتسلق وتصعد الأسرَّة المصنوعة من جريد النخيل محاولة لسع النائم بذنبها السام.

بعد ذلك جلسنا كلنا نتسامر ونتناول وجبة مقبلات لذيذة من التمر المقلي بالزبدة والبيض ونشرب حليب النوق، أكلة شهية جدًا.

---

(١) لم أجد اسمًا مطابقًا لهذا اللفظ الإنجليزي، قد يكون هناك خطأ مطبعي، إذ أن هذه الكلمة تُكتب بشكل مختلف في مكان آخر من النص.

بعد هذه الوجبة الخفيفة أخذنا نتمشى تحت السماء الرحبة الصافية والهواء العليل والطبيعة في أبهى حللها ، سرنا على جرف (نهر الفرات) Nahr al Fraat ، صادفتنا قطعان من الغزلان الجميلة يزيد عددها عن الألف تملأ هذه المنطقة وتمرح فيها، لحمها لذيذ جدًا، والبدو يستطعمونها ويقدمونها في الولائم.

الغروب في الصحراء يشبه الغروب في البحر حيث يتلقف أفق الصحراء أو البحر الشمس تدريجيًا ويبتلعها.

حان موعد عودتنا إلى المضارب حيث استقبلنا الشيخ في خيمته وقد أعدَّ وليمة... مائدتنا لم تتصف بميزة الموائد المعدة وفقًا لأعلى مواصفات المطابخ، ولكنها لم تعدم أصنافًا جيدة جدًا ، وحتى من كان صعب الإرضاء، لا يستطيع أن يقول إلا أنه قد تمتع بوجبة مشبعة من لحوم الأغنام والحملان والغزلان ، والأخيرة هي أكلتي المفضلة.

بالإضافة إلى ما سبق، وخلال إقامتي مع البدو لم أستطع أن أوطِّن نفسي على وجبة وأن أستطعمها، وهي ساق جمل محمرة كانوا يتشاركون في اقتسامها بشهية. في الحقيقة هؤلاء العرب يكونون مستعدين لوجبتهم بشهية عالية بعد الجهود البدنية الشاقة التي يزاولونها.

بعد العشاء قُدِمت أصناف من الفواكه، كنت قد جلبت معي كميات من الليمون والتمر والتين واللوز ، بالإضافة إلى الكيك والفواكه المجففة والمحفوظة بالسكر ، لهذا فقد ساهمت بجزء من هذه الوليمة.

البدو يأكلون بأكفهم فقط ولا يستعملون الشوكة أو السكين، يقولون: لِمَ قد أعطانا الله فمًا وزوجًا من اليدين، هذه الأعضاء تستخدم بالتوافق مع بعضها، لماذا نخرب عمل الروح الخالدة بتعويد أنفسنا استعمال أدوات غريبة من المعدن أو الخشب؟ هل سيحتقر السن الإصبع؟ أم سيزوغ الإصبع عن طريق السن؟ وأي شوكة تتساوى مع الشوكة الطبيعة وهي كف الإنسان؟

هكذا يتكلم البدو، هل ماتوا جوعًا في الصحراء؟ ألم تعد سنين وجودهم بعدد ذرات رمال الصحراء وتجري في عروقهم دماء العافية، وفي عقولهم ملح الحكمة.

ما فتئ البدو يأكلون بأياديهم، أما أنا فلم أتعود على هذه الطريقة في الأكل، فقد جلبت معي ملعقة، ولكنني احترامًا لهم لم أستعملها وشاركتهم في طريقتهم في الأكل إلا أن أصابعي ولسوء الحظ قد أصابتها لسعة حرارة الطعام الساخن جدًا.

بعد العشاء قدمت القهوة وشعرت بالسعادة، البدو يحبون القهوة جدًا عكس الوهابيين الذين يحرِّمونها، إلا أن البدو يرفضون التبغ ويسمونه النبتة الملعونة ويمنعون استعماله تمامًا.

شعرت بشوق إلى النارجيلة ولقد جلبتها معي ولكن احترامًا للموقف امتنعت عن تدخينها كي لا أسبب إحراجًا للبدو، إلا أن الشيخ كان يعرف أنني أدخن النرجيلة، إذ قد شاهدنا نفعل ذلك في بيتنا، وطلب مني عدم الامتناع، بل شجعني على أن أدخن، لم أستطع أن أرفض كرمه هذا، ويا ترى لو أن هذا الرجل كان من الحضارة الأوربية هل كان سيفهم الموقف ويسمح لي

بالتدخين؟ لا أعتقد بأن الأوربي سيكون في غاية الأدب مثل هذا البدوي.

بعد انتهاء العشاء وحسب التقاليد المرعية، تحلق الجميع في حلقة واسعة وبدا كل واحد حسب دوره في حكاية سالوفة، وأغلب مواضيعهم كان يدور حول الخيول الأصيلة أو حول حادثة هرب بشق الأنفس من مقابلة مع قبائل معادية أخرى، كان يتخلل القصص أغانٍ وأحدهم غنَّى أغنية بصوت خفيض عذب ما يدل على أن القبائل العربية الرحالة لا يعدمون الموهبة الموسيقية... من القصص البدوية التي استهوتني خلال جلسة رواية الأحاديث والسوالف هذه قصة عن رئيس إحدى القبائل واسمه (Rejal el Hamed) والذي امتلك مهرة جميلة رائعة جدًا تسابق ريح الشمال (el shemale) في عدوها... وصل صيت هذه الفرس إلى كافة القبائل، عرضوا عليه الفضة والذهب إلا أن كل هذه العروض لم تغرِه لمفارقة فرسه الجميلة.

كان هناك شيخ قبيلة أخرى اسمه (Fares el Aanta) تملكته رغبة شديدة في الحصول على هذه الفرس التي تعدت شهرتها الآفاق، لم يبقَ أحدٌ شرقًا أو غربًا، شمالاً أو جنوبًا لم يسمع بها، بعث بالعروض الكثيرة إلى صاحب المهرة، ولكن رجال الحميد لم يوافق على بيع الفرس أبدًا ولم يشأ أن يفارقها... وكلما رفض صاحب الفرس بيعها ازداد تعلق فارس بها وازدادت رغبته بتملكها، حتى وصل به الأمر إلى تقديم كل ما يملك حتى قطعان الجمال للحصول عليها، إلا أن الشيخ صاحب الفرس قال في

نفسه: يمتلك فارس الجمال والخيول والأغنام، أليس بقية البدو هذا ما يملكون؟ لو فقد جِماله فإنه سيذهب إلى أحد جيرانه ويعرض عليه أن يعطيه القمح مقابل أخذ الجمل وسيملك فارس الجمال. وفي السنة القادمة فإن حقول فارس ستنتج قمحًا أيضًا وبهذا لم يخسر فارس أي شيء بل أصبح لديه قمح وجمال، ولكنني لو قلت لفارس خذ هذه الفرس فمن أين لي أن أجد فرسًا مثلها والتي اعتبرها كضياء الشمس لقلبي؟ من أين سأجد مثلها فرسًا تسابق الريح وعيونها تقدح نارًا؟

إلا أن "فارس" فكَّر بوسيلة أخرى للحصول على الفرس بعد أن فشلت المفاوضات والمساومات إذ قرَّر الاحتيال على صاحب الفرس وأخذها منه بالخديعة... تنكر بملابس رثة وطلا وجهه بصبغة تنبئ عن مرض، استلقى على جنب الطريق حيث يعرف أنه الطريق الذي يسلكه الشيخ رجال الحميد... بقي فارس مستلقيًا على قارعة الطريق منتظرًا بصبر مرور رجال الحميد، ولم يطل انتظاره طويلاً، إذ مرَّ رجال الحميد معتليًا صهوة مهرته الشهيرة... وبصوتٍ متهدج قال فارس: إسعاف (essaf) وبصوت خفيض يدل على المرض والوهن كما وأن ملاك الموت قريب منه وقال: أرجو ألا تتخلي عن إنسان بائس على وشك الموت ميتة الكلاب، أستطيع أن أرى الجوارح تحوم حولي تنتظر أن تمتص دمائي، الله سوف يجزيك وكل أيامك يعمها السلام، أحلفك برزق والدك لا تترك أخاك في الإنسانية وهو في أمسِّ الحاجة إليك إذ إنني لم آكل أو أشرب منذ أربع

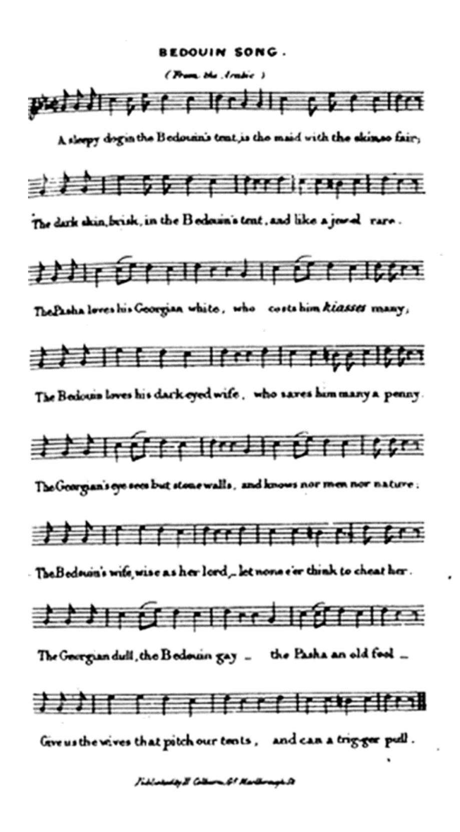
وعشرين ساعة مضت أنقذني وإلا مت.

الشيخ رجال الحميد كان إنسانًا طيبًا وقلبه يتسع لكل محتاج، ولكل من يعاني من الضيق، فقال له: اركب خلفي على فرسي هذه التي تسابق الريح وسآخذك إلى خيمتي حيث تأكل ونعتني بصحتك لتسترد عافيتك، فقال له فارس: كيف لي أن أنهض وأعتلي فرسك وأطرافي منهكة وكأن عيوني قد أبصرت شمس ألف صيف؟

الشيخ الطيب القلب لم يتوانَ عن النزول عن فرسه لمساعدة المحتاج، ترجل عن الفرس ومد يده، حمل الرجل المدعي وأركبه الفرس الجميلة، وبلمح البصر دس الرجل المدعي قدمه في الركاب ومسك عنان الفرس وأطلقها للريح... وعندما ابتعد مسافة ليست بالطويلة ناداه الشيخ رجال الحميد قائلاً له: يا من ادعيت المرض والوهن إني راضٍ بإرادة الله (Takounaradet Allah) ولكن لي طلب واحد عندك: هو ألا تحكي لأحد عن هذه الخدعة وأنك بتنكرك استطعت أن تأخذ فرسي.
فقال له فارس: ولِمَ لا؟
ردَّ عليه الشيخ رجال: لو علم الناس بهذه الخديعة فإن الجائع سيتضور جوعًا، والمريض سيموت، ولن يساعدهما أحد.

هنا ترجَّل فارس عن الفرس واحتضن رجال الحميد وقال له: هذه فرسك خذها، رجل بسمو أخلاقك يجب أن أعلن له ندمي وأسفي، ومن الآن أعلن صداقتي الأبدية معك، ولتتبارك والجنة ستكون مقامك وأن تكون سنوات عمرك بعدد رمال الصحراء.

تلت هذه القصة أغنية جميلة تستهزئ بالأتراك وتصف وجوه رجالهم الباهتة اللون كوجوه الجواري الجورجيات،



تلت الأغنية قصة أخرى وأخرى وأخرى كلها تتحدث عن مغامرات ومعارك بين القبائل، وبعض القصص المرعبة جعلت شعر رأسنا يقف هلعًا، إذ تصف الأفاعي المفترسة الضخمة.

وما أن حلَّت الساعة الحادية عشر حتى تفرَّق الشمل، كلٌّ ذهب إلى خبائه، والشيخ وعائلته وضيوفه إلى خيمة الشيخ.

خلال طقوس حكايات القصص والغناء لم يطلق أحد أي تعليق قد يخدش الأسماع أو يسبب الامتعاض لأي كان، في حين أن كل القصص كانت تروِّج للأخلاق الحميدة والعالية، كل هذا نابع من بساطة وسمو خلق البدو. [١]

استطعت أن أحظى بإعجاب زوجة ووالدة الشيخ، إن النساء البدويات من النساء المفضلات والمحبذات، سمراوات البشرة طويلات القامة أجسادهن مكتملة وملفوفة كجذع النخلة، لا يستخدمن المشدات لضغط أجسامهن، أياديهن، أكفهن، وأقدامهن ناعمة رقيقة وصغيرة تدل على سمو أصولهن، طول قامة الواحدة منهن قد يبلغ خمسة أقدام وست عقد (إنشات) شعرهن أسود حالك وطويل، قسم منه مرخي إلى الخلف يغطي أكتافهن والقسم الآخر مقصوص ويغطي جباههن بطول إنشين (عقدتين)، أنوفهن مزوقة بما نسميه (kharanfel) [٢]، إلا أن هذه قطع الزينة معلقة في المسافة التي تحت أرنبة الأنف وليس على جهة الأنف كما تفعل نساء الشرق عادة، أنوفهن إغريقية الشكل، وهذه الحلية في الأنف تتناغم مع خط الأنف، شفاههن

---

(١) تصف ماء نهر الفرات بالصافي مثل البلور وتسترسل بوصف أحاسيسها، وكذلك طبيعة المكان الأخاذة وتقرن ذلك بتأملات دينية بحتة.

(٢) الخزامة أو أقراط للأنف.

صغيرة، أسنانهن ناصعة البياض، يعجبهن أن يلون الخط حدود شفاههن بالوشم بلون أسود أو أزرق غامق كنوع من الزينة، ينزل الوشم إلى الحنك ويصعد إلى الجبهة ، وعلى أكفهن يرسمن بالوشم صورة الصليب، ووجدت هذا غريبًا جدًا ، على كل سلامية حتى الأظافر.

يلبسن إيشاربًا يغطي الرأس ويُعقد من الخلف ونهاياته تعقد مرتين حول الخصر أو الوسط والـ ماشاء الله (mashaallah) وهي شال فارسية يرمينها على أكتافهن وهذه مطرزة وأحيانًا محلاة بالذهب، ويلبسن الجزم الصفراء التي تصل إلى الركبة ويطوينها من الأعلى وتشبه جزم الفرسان الأوربيين.

أخلاقهن تعادل كمال ومتانة أجسادهن، وعليَّ الاعتراف أنني أحترم سمو أخلاق الرجل البدوي، ولكن المرأة البدوية أعلى خُلقًا وأدبًا وشجاعةً وتحملاً ، ولا تقل شأنًا عن الرجل البدوي أبدًا ، في حين تفوقهن على الرجال من ناحية الثقافة والذكاء وطيبة قلوبهن ورحمتهن وتعاطفهن مع بنات جنسهن بدون أن يفرقن بين المستوى الطبقي أو الديني، إنني أقول هذا من مراقبتي لهن ومن تجربتي معهن بنات الصحراء هؤلاء أود أن أبدي امتناني لهن امتنانًا لن يمحوَه الزمن.

كَوني مسيحية لم يسبب لي الإهانة أو الأذى وأنا بين البدو ، رغم أنني لم أقم باستعراض لطقوسي أو لديني أمامهم، بل كنت أمارس تعبدي في خلوتي كي لا أسبب لهم الإحراج ، إنهم يعتقدون أن البشر إخوة يساعد واحدهم الآخر ، ويرفضون

القبول بكل فكر استباقي غامض الدلالة، أو فكر أو عقيدة دينية بهذا المنحى بكثير الازدراء إن لم يكن بالمقت والكراهية، ولا يتوانون عن الإعلان عن ذلك لكل من يحاول أن يزعج ويشوش أفكارهم بأنهم لا يرتاحون لهذه الأمور أبدًا.

يومًا ما زار أحد الملالي عشيرة (Dryaah) وفي نيته أن يحول هؤلاء العرب غير المؤمنين إلى (Kebleh) وأن يضيء ظلام أرواحهم بنور الإسلام، ولم يدخر وسعًا أو سبيلاً في استغلال كل الفرص والظروف لخدمة قضيته الدينية ، كان معتمرًا عمامة خضراء ، مما يدل على أن نسبه يعود إلى النبي ، وكعربون وشهادة على أن الفكر الرفيع المستقر في تلك الجمجمة مقرونٌ بهذا النسب، ورغم عراقة وفخامة انتمائه؛ إلا أنه أظهر فقر حياته الأرضية، إذ دخل إلى مضارب العشيرة ممتطيًا حمارًا... الملا اعتقد بأن خطته المصحوبة بتقواه وتواضعه ستكون مؤثرة خاصة أن التصدى للكفار هو علامة طريقه... غير أن العمامة الخضراء والحمار لم يجديا نفعًا... ولم يستغرق طويلاً إذ أخذ يشرح، وقوبل بصيحاتٍ من الاستهجان والسخرية وعدم الرضى، ولم يهب أو يتخوف، بل استمر في طرح الموضوع الذي جاء من أجله والحملة الصليبية التي يقودها - إذا صحَّ التعبير - ضد المسيحيين، مستخدمًا لغة بليغة وبغضب بالغ قائلاً : لا يجوز مخالطة ومعاشرة المسيحيين إذ إنهم لا يستحقون ذلك حتى من قِبل كلاب المؤمنين.

ثم قال مظهرًا قوة تقواه: دعونا نرمي هؤلاء الكفار القذرين، لا

تدعوهم يأكلون من ضيافتكم ولا تدعوهم يستلقون على سجادكم الذي افترشوه نتيجة كرمكم غير المحدود ، اصطادوهم من خيمكم لحماية أطفالكم من اللعنات وزوجاتكم من الفساد.

وما أن انتهى من كلامه هذا ؛ حتى عمَّ الغضب من قِبل الجمع المستمع، أوقفوه عن الكلام وأمسكوا به من لحيته ورموه خارج المضيف ، وأصبح أضحوكة... وبهذا اتعظ جميع الملالي ولم يقتربوا بعد ذلك من عرب نهر الفرات.

إن البدو العرب يؤمنون بالله الواحد القدير خالق كل شيء، وأن الخير من عند الله كما وأن المصائب تأتي لعدم رضى الله، لذا لا يتذمرون منها بل يقبلونها على أنها أمر الله ، يعتقدون أن البشر كلهم سواسية ويعتبرون الطائفية الدينية في كل الأديان ممقوتة جدًا، ولا يمارسون الصلاة المنتظمة.

عيون المرأة البدوية واسعة وجميلة وسوداء ومتألقة وذات لمعان، ويخففنَّ من حدة لمعانها بإضافة خط أسود على الجفن من الأسفل ، وهي مادة سوداء تُضاف إليها مادة أخرى ، ويستعملون ما يسمى بالميل (mil)، هذه المادة بالعربية تسمى الكُحل (kahal) ، والكُحل يحفظ بمحفظة صغيرة تسمى (jizdana)... إن الميل يرطب قليلاً ثم يغمس في الجزدانة ويرسمون به الخط الأسود تحت الجفون، ويعتقدنَّ بأن الكُحل يحافظ على العين من الأذى والإصابات، ولكنني لا أشك بأن المرأة البدوية تقوم بوضع الكحل استزادة في الجمال والفتنة وهذه الرغبة الموروثة من حواء، والكحل يزيدهن فتنةً وسحرًا.

هذه الممارسة تعود إلى التاريخ القديم ، فالشيخ أخذ يحزّرني حزورة يقول إن الملكة بلقيس قد حزرتها للنبي سليمان ، وهي حسبما نطقتها شفاهُه الحكيمة:

- هناك عينٌ من الخشب عوضًا عن وجود الماء كان بها أحجار جاء من يسحب الماء من العين وملأ دلوه بالأحجار وأخذها للعين التي سترتوي منها.

أخذت أفكر بهذه الأحجية ولم أستطع أن أحلها وطلبت زيادة المهلة، وافق الشيخ... عدتُ إلى مخدعي وبدأت بالتأمل الطويل لتركيز أفكاري... ثم وجدتُ الحل ، وقلتُ للشيخ : لقد استطعتُ حل الأحجية : إن بئر الخشب هو الجزدانة، والدلو هو الميل، والحجارة هي المادة التي يُصنع منها الكُحل ، والماء الذي سيشرب الحجارة هو البلور السائل الذي يدور في عيون الجميلة.

قال الشيخ: يا سبحان الله (Ya sabhan Allah) وتترجمها للغة الإنجليزية (jenabki nabbia) وتترجمها ساحرة.

البدو ينفرون من الكتب، كما ينفرون من التزامات الدين المنظم لذا كنت أتجنب عرض كتبي القليلة التي أخذتها معي ، وكنت أقرأ فقط في خلوتي ، وكان معي كتاب جيد جدًا اسمه موازنة المواقيت (توازن الوقت) والذي يتناول المبادئ السامية ويصور نماذج فضائل الناس والمسرة التي تنتج عن ممارستها والتعاسة

من عدمها.[1]

عند عودتي من السير عادةً أتسلى باللعب مع الجمال وكيف أن صغارها تمرح وتلعب مع الإنسان كأي حيوان أليف وتأكل من يدي وخاصة جمل صغير عمره خمسة عشر يومًا. الجمل مهم للبدوي وله قدسية، باعتباره دعامة من دعائم حياة البدوي.

بعد أيام من بقائي مع عشيرة (Dryaah) تعرفتُ على شخصيات رئيسية من قبائل مجاورة ، إذ بادلتهم الزيارات وتلقَّوني بترحاب شديد وكرم لا متناه ما يدعوني إلى البوح بأنه من الممكن إقامة علاقة صداقة حميمة - وخلال يوم واحد - مع الكثير من هؤلاء الذين يعتبرون من الخارجين عن القانون، في حين لا يمكن إقامة علاقة صداقة في أوربا المتحضرة ، ومن الممكن أن تسكن في أوربا لمدة نصف قرن بدون أن تعرف من

---

(١) أترجم هنا بإيجاز القصة وأترك الإطناب والكلمات التأملية : زوجة الشيخ تريد معرفة ما مكتوب في الكتاب وتتهرب منها ماري ، ولكنها تذعن لها وتروي لها قصة الإنسان والوحش الذي يطارده ، ووقوع الإنسان في الحفرة ، والوحش يتبعه ثم يتسلق شجرة يجد عليها خلية نحل وعسلاً ، يعيش على العسل ويجد أسفل الشجرة جرذًا أسود وآخر أبيض يقضمان الشجرة ، وأربع أفاع تحيط بالشجرة ويبقى الإنسان يعيش على العسل إلى أن تسقط الشجرة ويلتهمه الوحش. قصة مصير الإنسان وترجمتها: الوحش الموت المتربص الإنسان ، والجرذان الليل والنهار ، والأفاعي الأربع العوامل الأربعة ، والعسل ملذات الحياة.

توافق على رواية القصة مرة ثانية لزوجة الشيخ وصديقاتها بشرط أن يذهبن لصيد الغزلان لأنها لا تحب أكل ساق الجمل. وبهذه الطريقة ستتنعم بلحم الغزلان وثانيًا لأنها تحب أن تستمتع برياضة الصيد.

هم جيرانك. ومهما كانت نقائص أخلاق البدوي، إلا أن الصداقة الحميمة ليست واحدة منها، وما إن توثق عُرى الصداقة حتى تكون أبدية مهما تغيرت حظوظ الأصدقاء وتقلبت أحوالهم، فالصداقة أبدية، حتى أعداؤهم لو انقلب بهم ظهر المجن فإن أبواب الضيافة ستبقى مشرعة لهم.

هذه الحادثة حصلت وأنا كنت مع البدو، إذ أن غريبًا حلَّ ضيفًا على هذه العشيرة بعد أن ترك مضايفهم وجد نفسه تحت حماية قبائل مجاورة بحيث أُسيئت معاملته وقُتل عبده، ما دعا قبيلة (Dryaah) إلى إعلان الحرب والأخذ بثأر الرجل الذي كان ضيفًا عندهم.

حدثوني عن قصة الأرملة التي لم تكن تملك غير خروف واحد وذبحته لتطعم غريبين من الهند كانا في طريقهما إلى دمشق [1]

للبدو الكثير من الفضائل، لذا أردت أن أقودهم إلى الإيمان الكاثوليكي الصحيح، حتى أنني تماديتُ وعمَّدتُ سِرًّا بعض الأطفال، ولكني وجدت هذا العمل غير مجدٍ، إذ إنهم يتبعون فكرة رفض التعبد والدين المنظم ولا يحبون الكتب إلا أنني كنت أحبب لهم الأخلاق الحسنة بتكرار تعاليم الوصايا العشر، وبصعوبة كنت أتجنب الوصية التي تقول "لا تسرق"، ولكنني وجدت أنهم يعرفون الوصايا الإلهية السماوية، بل وحتى يطبقونها في حياتهم اليومية.

---

(١) قصة بها الكثير من الإطالة فتغاضيتُ عن سردها.

بعد أسابيع من إقامتي معهم في مرابعهم حدث الهرج والمرج إذ إنهم قرروا الرحيل إلى مضارب أخرى، الرجال والنساء كلٌّ يقوم بواجبه، الرجال يعدون الخيول ويحملون البعير أثقالها، والنساء يفككن الخيم ويرتبنها لكي توضع فوق الجِمال.

الخيول لا تحمل الأثقال بل الجمال تحمل المؤن وكل الحاجيات الأخرى، وتسير القافلة على هذا النسق إلى الموضع الجديد، حيث الرجال في المقدمة يمتطون الخيول ويشهرون بأياديهم الرماح اللامعة، ثم النساء المهمات منهن يركبن (aharah) [١] والعبيد والخدم برفقة النساء، ثم تتبعهم الجمال المحملة بالأثقال والحاجيات، وقطعان الماشية مع الرعاة تتبعهم، ورجال يسيرون بمحاذاتهم يعرضون عليهم وجبات الطعام وينادون بصوتٍ عالٍ على الجياع، وكل ساعتين يقفون لشرب القهوة... وأخيرًا وصلنا إلى مكان على فرع لنهر الفرات اسمه نهر الخشون Nahr el Kashoun هنا فكوا الأحمال وبدأ الجميع بتنفيذ مهامهم بدقة ومهارة، ففي صباح ذاك اليوم وعدهم الشيخ بوليمة ونفذ وعده إذ نصبوا مائدته على العشب قُرب النهر، ثم نُصبت الخيام وأُلجمت الخيول بعد أن شربت الكثير من حليب الجمال الذي يعطيها القوة لتحمل مشاق السفر، تكونت المائدة من سبعة جمال وخمسة وعشرين خروفًا وعدد لا يحصى من الغزلان.

---

(١) يبدو أن هذه التسمية تطلق على الهودج وهنا وصف دقيق له.

أعدت الوليمة على ضفاف النهر ، بعض هذه الصحون كانت ستكون مدعاة دهشة الأوربيين ، وسيفتحون عيونهم واسعة لو شاهدوها لكبر حجمها بحيث تتطلب أربعة رجال لحملها ، ومن مادة معدنية لماعة تشبه الفضة، إلا أنني لم أتأكد من المادة التي صنعت منها ، وأفضل طبق كان ما يسمى (السمبوسك) وهي خليط من الطحين المحمر الممزوج بالعسل والزبدة مغلفة بعجين مقسب (محمر) على شكل مربع ، بعد أن تفتح بشكل رقيق ويوضع الخليط في الوسط وتلف أركان المربع الأربعة بشكل متقاطع ثم تخبز.

أعجبتني كل هذه الأكلات إلا مفصل الجمل الأحمر اللحم الذي اعتبرته غث الطعم ، وتصورت أنني لن أفكر بأكله يومًا ما مطلقًا ، وكم كنت مخطئة سنين طويلة مرت بعد أن نكرني أصحابي ، ليس عندما كنت وسط البدو بل في وسط مجتمع أوربي مسيحي متحضر مليء بالغنى والوفرة من كل نوع.

إن الحدث الذي وقع لي في الحقيقة ترك انطباعًا في فكري وأرجو المعذرة لذكره هنا ، إذ أن العظة والمغزى الذي يوصله قد يزيد الإنسان علمًا ، إن الفترة التي أشير إليها عندما كنت في أكبر العواصم الأوربية.

في الفترة التي كنت قد فقدت كل ما أملك نتيجة لظروف معينة، في ذلك الوقت استأجرت شقة متواضعة جدًا من امرأة جمعت ثروتها من الشرق ، موردي الوحيد لأعتاش كان تدريس اللغة العربية مرتين في الأسبوع لطالب ، رشحني لهذا العمل

المرحوم دوق أورلينز طيب القلب... كنت أسعى لتدريس اللغات الشرقية التي أجيد بضعة منها، ولكنني لم أجد من يهتم بتعلمها. رغم أن الأجور من تدريسي للغة العربية كانت قليلة جدًا لا تتعدى القروش القليلة، إلا أنني كنت مصرة على أن أواصل هذا العمل لأعتاش منه بدلاً من مد يدي إلى الأصدقاء والمعارف.

عندما شحّت مواردي اقتصدت في مصاريفي، ولعدة أشهر لم أتناول إلا وجبة واحدة في اليوم من دقيق السمولينا مغلية بالماء، لم أكن أستطيع أن اشترى المحروقات لاستعمالها في المطبخ لغرض الطبخ، لهذا كنت أستعمل مصباحًا كحوليًا لغلي الماء، وأكلي لم يتعدَّ هذه المادة مع قطعة من الخبز... أوصلني الفقر إلى درجة من الهزال ولكن القروش القليلة التي كنت أحصل عليها يوم الثلاثاء والجمعة كانت تساعدني على البقاء حية.

في يوم من الأيام على عادتي ذهبت إلى تلميذي لأعطيه الدرس كنت معدمة فعلاً ولم أتناول أي شيء لثلاثين ساعة، كنت أريد أن أدرسه ليدفع لي أجوري كي أستطيع أن أشتري بعض الطعام الجو بارد قارس، والثلوج تغطي الطريق والنهر قد تجمد... عندما وصلت إلى الحي الراقي الذي يسكنه، وجدته يعتذر مني لعدم استطاعته الدرس اليوم، لأنه مدعو إلى حفلة رقص وعشاء، اعتذر مني وأنا كنت متأكدة من صدق كلامه، وما فائدة الاعتذار إذ إنني لن أقبض أي مبلغ منه، وكنت أعول على ذلك. غاص قلبي بين ضلوعي وعدت في هذا الجو القارص إلى البيت وأنا أجرّ نفسي جرًّا، دخلت الفندق الذي كنت قد

استأجرت فيه مكان سكني، ووجدت أن أحد النزلاء يقيم حفل عشاء والخدم ينقلون الصحون من المطبخ إلى غرفته، ورائحة الطعام تنبعث من الممر، أفسحت لهم المجال ودخلت غرفتي، استلقيت على فراشي منتظرة الموت ومتذكرة موائد أبي العامرة كم كان "دانتي" محقًا عندما قال على لسان "فرنجيسكا دي رميني" (Nessun maggior dolore che ricordarsi del tempo felice nella misereria)

وتذكرت لحم الجمل الذي لم تكن تقبله نفسي، كنت أتمنى لو كان لي ذلك الفخذ، سآكله بشهية حتمًا.

قضيت تلك الليلة الباردة، وفي صباح اليوم التالي تذكرت أن لي صديقة كانت تذيل رسائلها لي بتوقيع "صديقتك المخلصة إلى الأبد"، كتبت لها رسالة ولكي أتأكد من وصولها إليها أرسلتها مع مراسل خاص، قلت له سأدفع أجرك بعد أن يصلني الرد، ولكوني كنت واثقة من أنها ستقرضني بعض المال أرسلت رسالة أخرى مع هذا المراسل، ولكن كانت خيبتي عظيمة إذ لم يصلني أي رد.

وما كان علي سوى أن أبيع أعز ما أملك، والشيء الوحيد الذي تبقى لي هي هدية البابا، وهي ذخيرة مقدسة كانت عبارة عن صندوق صغير يحتوي على بقايا صغيرة من صليب السيد المسيح، أهداني إياها قداسة البابا، كنت أحملها معي أينما ذهبت كانت من الذهب الخالص، بثمنها دفعت للمراسل أجوره واشتريت الطعام.

والآن أعود إلى الحياة مع البدو ، بعد مدة ليست بالطويلة من استقرارنا على ضفاف نهر الخشون وصلت شيخنا دعوة من قبيلة مجاورة لحضور حفل زفاف أحد أبناء أعيانها.

تقاليد الزواج عند البدو متفردة ومسلية، وهي أن يتقدم العاشق الولهان مع أهله وأصدقائه وأقاربه لزيارة إلى أهل المحبوبة أو المعشوقة، والبدو كما بينت بالسابق يعِزون ويكرمون الضيوف إلى أقصى درجة ، ويؤثرونهم على أنفسهم إلا في حالات الزواج والخطبة، فإن الأجواء تنعكس تمامًا وتتغير ، إذ أن أهل العروس لا يظهرون الاهتمام والاحترام والمجاملة المفروضة لأهل العريس بل لا يرحبون بهم ولا يقفون احترامًا لهم عند دخولهم الخيمة، وإذا أبدوا أي علامات من المجاملة فهذا دليل على الوضاعة والانحطاط، إنهم بهذه الطريقة يظهرون للزوار أنهم لا يهتمون بعروضهم ، ولديهم الاستقلالية التامة في تصرفاتهم.

يبدأ المفاوضات أحد أصدقاء العريس ويقول : بما أنكم استقبلتمونا بهذا البرود وعدم الاهتمام فنحن نقول لكم نحن لم نأخذ مهرتكم النجدية ولم نهرق دماء شبابكم ، وإذا قد نسيتم أصول وتقاليد الضيافة فسنعود أدراجنا حالاً.

خلال هذه الفترة الفتاة التي هي موضع الخطبة تكون على اطلاع بما يدور من خلال ثقب في الجدار ، وتستطيع أن ترى الشاب الذي جاء لخطبتها ، وإذا ما أبدت الفتاة عدم ارتياحها وموافقتها على الشاب فإن أهلها لا يظهرون أي شيء من

الاحترام ويطلبون من الخُطَّاب أن يغادروا مثلما جاءوا ؛ صفر اليدين... ولكن إذا ما انعكست الآية وأبدت الفتاة الرغبة والارتياح للشاب الخاطب فإن الوضع سينقلب والوجوه ستعلوها الابتسامة وعبارات الترحيب ستنطلق ويقولون : أهلاً وسهلاً (sahalan wa Ahalan) حلت البركة فيكم (Halat elbaraka fikum) نحن لا نضيفكم فقط بل نلبي كل طلباتكم، اسألوا ونحن نجيب، أملاكنا هي أملاككم ونحن عبيد لكم.

في هذه المرحلة يقول الشُّبان أصدقاء العريس: إننا جئنا نخطب ابنتكم، وما هو المهر الذي تطلبونه؟

وهنا وبدون مساعدة من محامٍ تبدأ قائمة الطلبات: عدد الجمال (nakas) وهي نوع للركوب ، والخيول والأغنام والعبيد والعبدات، وكم زوج من الجزم الصفراء، وأخيرًا الهدايا التي ستوزع للعروس والأصدقاء.

الفتاة التي ستكون العروس كانت قد اختيرت (Hafta) وهي الحافظة لعشيرتها في حرب كانت قد اندلعت مع عشيرة مجاورة إذ أن العشائر قبل أن تدخل غمار أي حرب تختار أجمل الفتيات من بين فتيات العشيرة لتثير شجاعة الفرسان، ويسبغ عليها مسح ديني، إذ سيكون بين يديها أرواح الفرسان الذين تشجعهم، وكلما ازدادت شجاعتهم كلما قلَّ تعرضهم للموت نتيجة لاستبسالهم.

تركب الحافظة ناقة بيضاء مغطاة بقماش قرمزي ومزوقة بالتزويقات المعتادة للجمال ، إلا أنها تكون موشاة ومحلاة

بالذهب وتبقى في حمى المعارك قريبة من الفرسان تحثهم وتدفعهم للقتال ، ويتمنى الفائز منهم والذي سيجلب لها رأس العدو الزواج منها ، نصف الفرسان يتحلقون حولها حماية لها كي لا تقع بيد الأعداء.

قبل بدء القتال كل فارس يتقدم منها على حدة معلنًا اسمه ويسألها أن تلهمه الشجاعة والقوة ، ويلقي أمامها كلامًا مزوقًا ، وترد عليه بكلام أجمل قائلة له : ليكن قلبك مثل قلب الأسد وسهامك حادة وتصيب، وثمني هو رأس العدو.

إن العُرس الذي سيقام هو للحافظة التي كانت قد شجعت فرسان قبيلتها على خوض غمار الحرب وجاء لها فارس برأس العدو وقبلت الزواج به، وهذا العرس الذي دعينا إليه هو عرسها.

كانت لدي ملابس تناسب بغداد وكان عليّ تهيئة ما يناسب العرس البدوي ، إذ إنني كنت أتلهف لحضور العرس لإرضاء فضولي ولرغبتي في التعرف على التقاليد البدوية في الأعراس.

يُعرف عن البدو تقشفهم وعدم الإسراف وحب البهرجة، إلا أن ملابس العرس كانت تختلف تمامًا فكانت على درجة عالية من العظمة والجمال.

اختيرت لنا أفضل الخيول وخرجنا بنحو عشرين خيَّالاً متجهين نحو مضارب العرس، وسرنا نحو ثلاث ساعات للوصول إلى مبتغانا. وصلنا إلى قبيلة فارس الحمدان (Faris el Hamadan) والد العريس حيث قطعان الماشية والخيم التي لا

يقل عددها عن الألف خيمة كل شيء يتحدث عن غنى وثراء، استقبلتنا نساء القبيلة بعبارات الترحيب قائلات لنا : آنستونا شرفتونا (Anastuna sharafuna)

هنا أيضًا تمتعتُ بخلق البدو العالي، إذ سُمِح لي بتدخين أركيلتي رغم أنها محظورة فيما بينهم، إذ يطلقون على التبغ النبتة الملعونة أو العشب الملعون، لكن ابنة الشيخ Dryaah هي التي هيأت هذا الأمر وسهلته لي.

بعد العشاء تمتعنا بليلة هنية إذ بقينا نغني ونرقص حتى شروق الشمس، بعدها توجهنا لزيارة مضارب والد العروس وسرنا بهذا الترتيب : الفرسان أولا يحملون البيارق (byrakh) المشدودة على عارضة والتي يبلغ طولها ١٥ أو ١٦ قدمًا وكانت بيضاء، وكانوا يرددون : نحن سنذهب لنلقى الشرف غير الملطخ، بعد الفرسان جاءت الجمال محملة بمتاع العروس غطيت بأغصان وورود قطفت من على ضفاف الفرات، ثم تبعهم العبيد، إذ كانوا جزءًا من المهر لمقدم للعروس، يلبسون ملابس رائعة ويعتلون الخيول، ومحاطين بالمشاة الذين يغنون أهازيج الفرح، ثم تلا ذلك مجموعة من الفرسان يشهرون بنادقهم البارودية، بعد الفرسان تأتي مجموعة من النساء يحملن المباخر، تتبعهم قطعان الماشية والرعاة الذين كانوا يترنمون بأغنية تبدأ: هكذا فعل شيبوب أخو عنتر منذ ألفي سنة، مما يدل على تعلق البدو بأسلافهم وتراثهم. ثم تبعهم العبيد السود يرتدون الملابس الفخمة، يتبعهم حوالي ٢٠٠ من الرجال المشاة

يرقصون ويغنون مختلف الأغاني ويتقدمون جهاز العروس الذي عرض على جمل كبير وضخم، ولقد اختير لهذا السبب، والتي كانت معلقة وتبدو واضحة للعيان لغرض إدهاش وجذب أنظار الناس، عرضت شالات الماشاء الله المشغولة بالذهب، وكذلك الجزم الصفراء كانت معلقة وتبدو واضحة. بعد هذا تقدم طفل في حوالي الثامنة وهو أحد أبناء أشراف القبيلة يعتلي جملاً يصيح: شعبنا منصور دائمًا، وطفل آخر على جمل مجاور له يرد: آمين.

بعد ذلك وصل ركبنا إلى مضارب والد العروس حيث اُستقبلنا بالأغاني المناسبة، وأُنزلت الأحمال وجهاز العروس من على ظهر الجمل ووضع جهاز العروس في الخيمة في (rabha) [١] أي الجزء المعد للاستقبال.

الخيمة كانت مفروشة بالسجاد العجمي ودِلال القهوة الضخمة منتشرة، شربنا القهوة ثم قدموا لنا حليب النوق، سرنا بعد ذلك بموكبين باتجاه الصحراء حيث أنقسم الركب إلى مجموعتين: أصدقاء العريس في مجموعة وأصدقاء العروس في مجموعة أخرى، نسقوا أنفسهم وكأنهم في وضع قتالي، ولكن المشهد كان تقليدًا للحرب ومحاكاة فقط، في حين كان كبار السن هناك لا يستطيعون السيطرة والمناورة، كل هذا من أجل الحصول على

---

(١) هنا تكتب بشكل آخر وليس rabka كما وردت سابقًا ما يدل على حدوث إما خطأ مطبعي أو باللفظ.

الحافظة أي العروس. وأخذ جماعة العروس يتراجعون ليسمحوا للجماعة الأخرى بأخذ العروس وسلموها إلى مجموعة من النساء قريبات العريس وأغلبهن كن من غير المتزوجات حيث اصطحبنها إلى خيمتها ، كان هناك جمل ناصع البياض بانتظارها، على ظهره سرج من قماش قرمزي اللون تتدلى منه شراشيب بألوان متعددة، رأس الجمل كان محلى بريش النعام وشريط تلتمع فيه الألوان المختلفة والمرايا الصغيرة، وكذلك مرايا صغيرة معلقة هنا وهناك على مختلف أنحاء جسم الجمل تتطاير منها إشعاعات جميلة أخَّاذة.

(الهودج) (Mahraha) وضع فوق الجمل كان مفروشًا بسجاد عجمي مع وسائد من الحرير ، بعد أن استقرت العروس في هودجها اتجه الجميع وهم يغنون صوب خيمة العريس، الأغاني تصدح والدعوات بالسعادة تُسمع وخراف تذبح كأضاحٍ ، تبع جمل العروس جمل يحمل خيمتها وأثاثها وجمل آخر يحمل أدوات المطبخ.

بعد أن استقرت العروس حضر الجميع حفلة العشاء التي كانت من الضخامة بحيث أنني لم أشاهد مثلها أبدًا.

في اليوم التالي بدأ تقديم الهدايا، ولكي لا أكون مقصرة قدمت للعروس جزدانة كحل والميل من ذهب، مع قلادة وإسوارة من العمبر ، في حين أن العروس أهدتني خاتمًا وعليه فص من الزمرد كبير الحجم مع شال فارسي يصل إلى الأقدام من أفضل أنواع الصوف الكشميري بحيث يصبح حجمه صغيرًا جدًا لو

طوي. ولقد بعته في روما بسعر ٢٠٠ سكودي scudi. بالإضافة إلى عقد ثلاثي من اللؤلؤ.

إن البدو لا يعرفون قيمة الأحجار الكريمة والمجوهرات، وقد يبادلون قطعة من الماس تساوي آلاف الفرنكات بكيس من التمر لا تزيد قيمته على الخمس فرنكات أو الشالات الفارسية العالية القيمة مقابل كيس من الرز.

إن الهدايا الثمينة التي أعطتني إياها العروس جعلتني أفكر بأنهم ربما قد حصلوا عليها من القوافل التي تسافر من البصرة عبر بغداد وإلى دمشق، وشعرت بأنني يجب أن أرفضها كي لا أقبل أموالاً مسروقة، وبقيت أقلّب الأمر في نفسي كيف أرد للعروس هداياها وكيف أرضي ضميري، إلا أنني تذكرت بأن (عمي/ خالي) كان من ضمن إحدى تلك القوافل، ولقد نُهبت أمواله وكذلك بقية القافلة فوجدت أنني أستطيع تبرير قبولي الهدايا لأن أموال عمي ردت إليّ.

بقينا ثلاثة أيام هناك، وأخيرًا عدنا إلى مضاربنا، لم نكن نفعل شيئًا سوى الأكل والنوم والغناء، وفي الأماسي تُشعل نار ويتجمع ما لا يقل عن خمسين شخصًا حولها، ويبدأون الغناء والرقص كل واحد ممسك بيد من يجاوره ويعزفون الطمبورة والآلات الموسيقية النافخة (pipees).

لم أشاهد قومًا أكثر حبورًا وسعادةً من هؤلاء البدو، إذ إنهم لا يحملون هم الغد، يجلسون يستمعون للقصص ويقومون بحركات تهريجية مضحكة للتسلية، إلا أنني لم أكن أستوعب

الفرح، وكنت أهرب من هذا الحشد المرح وأختلي بنفسي.

بعد استقرارنا في مضاربنا عدت إلى روتين حياتي اليومي أصحو مبكرة أذهب إلى الصحراء للتأمل والعبادة وأركع على ركبتي.[(١)]

قضيت أيامي مع البدو بكثير من القناعة، في ضيافة البدو، ولو لم يكن هناك جوع روحي حقيقي للممارسات الدينية، وتحفظات البدو تجاهها، لا أشك لحظة بأنني كنت سأفكر بتركهم أبدًا، وأنني كنت سأقضي أيامي معهم بسلام، ولكنت جنّبت نفسي كل تلك الفواجع التي أصابتني وأنا بين قومي.

كما وأن الخير الروحي الذي حصلت عليه في بحثي عن المناقب في أوربا المتحضرة بتركي هؤلاء البدو الرحماء والذين هم أبناء الطبيعة، لم يكن بمستوى توقعاتي المتفائلة.

كم كنت أتمنى أن أقطع هذا الطريق إلى فلسطين مع والدي، وأنه كان سيوافق بدون شك، ولكن موته على يد التعصب

---

(١) في الصحراء تتعبد راكعة وغشاوة تصيبها وهي تتأمل وتخاطب الله، والبدويات يكتشفن ذلك ويردن معرفة الكتاب إن كان فيه طلاسم سحرية، وتشرح لهم إحدى القصص الدينية عن ملكوت السماء ويسألنها أسئلة ساذجة : هل يوجد جمال في الجنة ؟ وعن حليب النوق. وتقرا لهن فصلاً من الإنجيل وتصفهن بالساذجات البسيطات ، وتترك فكرة تبشيرهن بالمسيحية ، تتأجج رغبتها في زيارة الأراضي المقدسة ، وتشعر أنها الآن بحاجة إلى غذاء روحي بعد أن استقرت نفسيًا وسعدت بالاطمئنان والرعاية التي تلقتها من البدو الأعراب. أرادت أن تسير على جبل الجلجلة وأن تذهب إلى بيت لحم. لم يكن هناك بد من الرحيل وتحكي عن رؤيا وتأملات دينية.

الأعمى الذي سبب مقتله حرمني هذه الأمنية.

وبما أنني حرمت من عائلتي، فقد قررت السفر بمفردي، وهجر أرض أجدادي، أرض تلوثت بدماء من هم أعز عليّ من الحياة، أرض خربها حاكم وحوّل أبناءها إلى منبوذين بائسين في هذا العالم الواسع.

قبل أن أقول الوداع لأصدقائي البدو، سرحت أتجول في خرائب بابل أعظم ممالك العالم، والتي كانت فخر الكلدانيين، هذه المدينة التي عدت أعظم المدن بالنسبة لكل الشعوب. حين كانت خطواتي تصد الكثبان المبعثرة وكسر الفخار المنتشرة، كان هذا كل ما بقي من بابل ملكة المدن، هنا استقر رأيي لهجر خيمة مضيفي الشيخ الرحوم (Dryaah Eb Shalan)، وأن أتجه بخطواتي نحو فلسطين، وما إن وصلت المضارب حتى توجهت مباشرة لخيمة مضيفي لأعلن له عن رغبتي، أبدى أسفه لأنني قررت الرحيل بهذه السرعة، ولكنه قال: إن كان هذا هو المصير الذي قد كتب عليّ فلا فائدة من اعتراضه على سفري.

وجدت من الصعوبة أن أفارق صديقاتي البدويات اللواتي اكتسبن محبتي لم يكن سهلاً، كأنما كنت أودّع صديقات مقربات أو أقارب.

وبعد التعبير عن الندم والعويل للفراق، ومن بين آمالي بلقاء آخر نزعت نفسي من بينهم، هؤلاء الذين آوَوني لمدة ستة أشهر واتجهت إلى بغداد بحثًا عن قافلة تتجه نحو دمشق.

وُدّعت بتمنيات حارة بالوصول بالسلامة والأدعية البليغة من قلوبهم المنيرة تقرأ وتنهال على رأسي. شيخ القبيلة بكل حنان عرض عليّ أن يرافقني إلى بغداد ، ولكنني لم أجد مبررًا للاستزادة من طيبته.

الوداع يا أصحاب القلوب البسيطة يا أولاد الصحراء أودعكم وأترك خلفي فضائل عميمة وكثيرة ولن أجد مثلها مستقبلاً في أماكن أناس متحضرين.

في مجال الضيافة والخير من يساويكم من البشر ؟ في مجال واجبات الصداقة من يستطيع أن يتجاوزكم؟ صحيح أنكم سُرَّاق وتبطشون بالرجال، ولكن يقال إنكم خلقتم لهذا السبب. وتؤكدون أن الله العظيم قد وهب لكم ميزات من أبيكم الأكبر إسماعيل ، وأن الرب العظيم ليسعده أن يرى شجاعتكم المهيبة وصبركم واحتمالكم وصداقتكم الممتازة وكرم ضيافتكم ولامحدوية خيراتكم، وعفتكم لا غبار عليها والتي تعتبر التقوى الأعم في المسيحية، وبهذا إنكم تفوقون كل البشر الأحياء من الجنوب إلى الشمال من مشارق الأرض إلى مغاربها.

عند وصولي بغداد علمت أن هناك قافلة تستعد للسفر إلى دمشق منذ أشهر عديدة ، ولكنها لم تغادر لأن الطريق كان موبوءًا بقُطاع الطرق ، لذا فإن القافلة ستغادر في شهر آذار القادم إلى دمشق، قررت أن أسير مع هذه القافلة، القافلة التي ستتكون من ناس من مختلف المشارب والأقوام واللغات. ومن الذين كانوا ينتظرون سفر هذه القافلة مطران من TARTARY القفقاس اسمه (دبير ستيفان Deir Stefan) يبلغ الخامسة والأربعين من العمر ، بعمر والدي ، وعرضت عليه أن نسافر سوية ووافق بحبور ، مع هذا الرجل الورع ومع سيدة مسيحية كلدانية من البصرة مع أطفالها الاثنين والكثير من العبيد شكلنا عائلة صغيرة، المطران هذا الرجل الورع التقي كان بمثابة الأب لي وأعتقد أنه ما زال على قيد الحياة وأتمنى يومًا ما أن أحظى برؤيته.

نُصبت خيم لهذا الحشد الكبير في مساحة واسعة على مسافة ساعة ونصف من بغداد ، ولن أبالغ لو قلت إنّ عدد الجمال والخيول في هذه القافلة يزيد عن ١٥ ألفًا ، مصحوبين بعدد لا يحصى من الحجاج والتجار من المحمديين والمسيحيين.

كان يأتي قادمون جُدد للانضمام إلى القافلة كل يوم ، أحيانًا عوائل كاملة من الحجاج بالإضافة إلى التجار المتجهين إلى دمشق وأجزاء أخرى من سوريا ، كان هناك فُرس وأتراك عصمليون وتجار من البصرة. لمدة عشرة أيام كانوا يتوافدون ولم يكن هناك شيء مسلٍ ويشرح النفس مثل النظر إلى هذه

الأقوام المتعددة والمختلفة اللغات والملابس والعادات وكثير من المشاهد التي تحز في القلوب من مناظر الوداع ودموع الزوجات والأطفال.

أمّا بالنسبة لي فأنا وحيدة لا أحد يودعني، إذ فقدت جميع عائلتي كم شعرت بالمرارة بسبب وحدتي، كنت أبدو كسعفة نخلة متوحدة في الصحراء تتقاذفها الريح ولا بشر يهتم بها، إن ربيع حياتي قد جفّ وكأس عواطفي قد فرغ.

اتجهت بخواطري إلى السماء، ارتفعت صلواتي إلى مانح كلّ شيء جميل ورجوته أن يحمي ابنته التعيسة من مخاطر الصحراء ورياح السميري (samiri لسموم)، من اللصوص والمجرمين، صليت لوالدي الحبيب ليشفع لي أمام عرش المجد لأنجو من المخاطر تلك وليغفر لي خطاياي.

حلّ موعد رحيل القافلة، كل واحد تموّن لمدة تكفي شهرين إلى ثلاثة أشهر، إذ أن الفرصة لن تسنح لنا للحصول على التجهيزات الطازجة الضرورية في مسيرتنا، وحظنا في الحصول عليها ليس أكثر من حظ باخرة وسط المحيط.

جمل مُحمّل إثر جمل، كلّ أحمالها من الطحين والبسويكت والرز وكميات من البسطرمة (basterma، simsim kaourma، halawah) [1] مع أكوام من السجاد والوسائد

---

(١) تشرح معنى البسطرمة والقاورمة والسمسم وطريقة صنعها وكيفية أكلها.

وأغطية الفراش وأدوات المطبخ معلقة على جوانب الجمال ، المطران والسيدة التي من البصرة وأنا اقتسمنا خيمة واحدة جزء منها للرجال والآخر للنساء.

رغم أن قافلتنا كانت تتكون من أعداد هائلة من الجمال والخيول إلا أن عدد الناس فيها لم يكن يتجاوز الخمسة آلاف نسمة، إذ أن أغلب الجمال كانت تحمل البضائع التجارية ، والتي كانت بكميات هائلة، كما أن المسافرين احتاجوا إلى عدد من الجمال، والمطران كان له خمسة جمال وأنا كذلك مع حصان واحد، في حين أن السيدة التي من البصرة كان لها خمسة عشر جملاً تحمل ما تحتاج إليه مع أطفالها.

الجمال كانت من ممتلكات أصحاب القافلة ، وكنا نحن المستأجرين ولم نكن مسؤولين عن إطعامها أو إفراغ حمولتها أو إعادتها إلى ظهر الجمال، بل كان هناك من يقوم بهذه المهمة ويسير مع الجمال يرعاها، وراكب في المقدمة يقودها.

لقد دفعت ثلاثمائة قرش (بياسترس piastres) قيمة تأجير هذه الخدمة لكل جمل ولم أتحمل مسؤولية أي شيء خلال الرحلة، كل صباح قبل مباشرتنا المسير أجد جمالي محملة ومهيأة للرحيل ، وكان الرجال المسؤولون عن هذا العمل يقومون بعملهم بكل جدية وحرفية عالية.

بالإضافة إلى الجمال الخمسة استأجرتُ فرسًا أيضًا ، كنت أمتطيه في الأوقات التي أحس ببطء سير الجمال، وعندما كنت أحس برغبة في أن أطوي الصحراء على ظهر الفرس ،

وخاصة عندما تتعبني حركة الجمال التي تميل يمينًا ويسارًا ، أحيانًا كنت أعير الفرس إلى نيافة المطران وكان شاكرًا صنيعي هذا دائمًا.

وأخيرًا حلَّ فجر اليوم الذي سترحل القافلة فيه ، حيث سيترك الأحبة والأهل والأصدقاء ونظرات الجموع المودعة الحاشدة الحزينة لهذا الموكب المصفوف الطويل الذي لا ينقطع من الأحياء ، والذي يجاهد في سيره بخطوات متلكئة والذي يبدو وكأنه أفعى هائلة لا نهاية لها ، تزحف بطريقها على هذه المساحة من الأرض الواسعة وتلك الجموع لا تنفك عن ترديد الأدعية والصلوات طلبًا لسلامة وصولنا والدموع تنهمر من مآقيهم.

سارت الجموع الحية متبعة طريقها، الجمال تسير بجدية ووقار كأنها مدربة عسكريًا، تبقى صفوفها مستقيمة مما كانت ستثير إعجاب واستحسان أي مدرب عسكري أوربي.

الجمال المقدر لها أن تحمل الركّاب شدت الهوادج الملونة (mahraha) على ظهورها ، ألوانها من الأحمر القاني إلى الأزرق الغامق، وكل هودج يحمل ستة أشخاص، ويبدو وكأنه مدينة ملونة تتحرك.

الفرسان المرافقة كانت مخصصة من قبل باشا بغداد ، وكانوا كلهم تقريبًا من الجورجيين ، ويبدون في تضاد لوني ببشرتهم الفاتحة اللون مع وجوه وطلعات وسمرة بشرة أصحاب القافلة والمعنيين بحراسة القافلة والذين يسيرون في المقدمة والمؤخرة.

الجمالون ساروا بمحاذاة جمالهم، والقافلة كانت مكونة من جمال تحمل الأثقال وأخرى للركوب وجمال للبضاعة التجارية مع الخيول والفرسان والحجيج الفقراء والأغنياء، قسم منهم يركبون الجمال والقسم غير الموفق يسير على الأقدام، العبيد ورعاة القطعان من الماشية كانوا يسيرون مع القافلة على أمل أن يشترى أحد من المسافرين منهم وهم في هذا الطريق الطويل، وإذا لم تخني الذاكرة كان هناك قطعان من الثيران تسير وتغطي مسافة لا تقل عن الميل الواحد، وجاورتنا في سيرنا ولمدة عشر ساعات، وكذلك كان هناك قطعان من الغزلان لا حصر لها تفرقت في كل الاتجاهات في الأرض الممتدة.

السرعة التي بها تنزل الأحمال وتنصب الخيام كانت مذهلة، في أقل من نصف ساعة مدينة شاسعة من الخيام تنصب أو تفك بلمسة عصا سحرية، في حين أن المسافرين يراقبون هذا بكثير من الدهشة، الخيمة التي تنصب على يمينه وما أن يدير المسافر وجهه ناحية اليسار حتى يرى صفًا لا ينتهي من الخيام قد نصبت، كأنما قد نبعت مدينة من باطن الأرض إذا جاز لي أن أصف موقع الخيام هذه بالمدينة، وسورت بصف من الجمال إذ أن الجمال قد تم إطعامها نواة التمر. هذه الجمال مسرجة وواقفة على شكل حلقة تحيط بالخيام، وهذا نوع من الاحتياطات تؤخذ لحماية القوافل من هجوم مفاجئ والمسافرون يستعدون لتناول العشاء.

القصابون المسافرون مع القافلة كانوا على أهبة الاستعداد

فالخراف تذبح وكل يشتري حسب حاجته والأجور لرطل من اللحم هو خمس بارات، يعني وزن خمس باونات من اللحم بسعر خمسة فارذنج.

الطباخون لم يكونوا أقل مهارة من الذين نصبوا الخيام وهيأوا الموقع، إذ بسرعة بدأوا يحضرون الطعام، أشعلت النار وبدأ صوت الحطب الذي أضرمت النار فيه يصدر هسيسًا يبدو بعد صوم طويل أحلى من صوت الحبيبة للعاشق المتأوه.

وأمام كل خيمة فرش العبيد مفرشًا أبيض على الأرض وبدون إضاعة الوقت التمّ الجميع حول تلك القطعة البيضاء، وفي أقل من نصف ساعة اختفت الخراف وتسطحت أكداس أكوام الرز، وما تبقى - وكان وفيرًا - قُدّم للخدم والعبيد، مجموعتنا كانت من اثني عشر فردا. بعد العشاء بقينا نتحادث إلى الساعة الحادية عشر، وحان بعدها وقت النوم.

إذ قبل هذا الوقت لم يكن من الممكن أن ننام، صوت الضحكات غير منقطع والضجيج للحرس الجورجي جعل النوم مستحيلاً، ولكن عند الساعة الحادية عشر فرشنا السجاد للنوم إذ قد تعودت على النوم أرضًا الآن، ولهذا نمت طوال الليل.

في الحقيقة إن بقائي مع البدو كان فرصة جيدة لأتدرب على حياة البداوة والتي ساعدتني في تحمل مشقة السفر ضمن هذه القافلة، فكنت أفضل تحملاً وتقبلاً لمشاق السفر في الصحراء من أبناء المدينة.

في الفجر وبنفس الطريقة وعلى نفس المنحى لملمت الخيام وركبنا جمالنا بدون فطور فكل واحد كان معه ما يسمى (الخرج khorji) يحملها الجمال على كتفه، فيه مستلزماته من الجبن والبسكويت والبسطرمة والبيض وغيرها، وهي للفطور والغذاء يتناولها المسافر وهو على جمله، وكذلك جلد حيوان مليء بالماء تسمى (مطارة matarah). وأحيانًا ينام المسافر وهو على جمله ولن ينزل إلى أن تصل القافلة مكانًا يكون مضربًا لها في تلك الليلة.

استمرت رحلتنا لمدة عشرة أيام مررنا بمحاذاة الفرات الذي أنعشتنا خضرة روابيه الربيعية، نبني مدينتنا في الليل ونهدمها صباحًا ولا نترك أثرًا ونأخذ كل شيء معنا.

بما أننا كنا نتجه غربًا فكان علينا أن نعبر النهر ونترك الضفاف الجميلة وذلك من منطقة هيت (Hid)، ولكي نعبر النهر كان علينا أن نستعمل العبّارات، ولم تكن بالعملية السريعة والسهلة آخذين في الاعتبار كبر حجم القافلة.

ومن أجل أن نخفف عن الجمال مشقة العبور والتي من الممكن أن تسبب في غرق العبارات ربطت رجل الجمال اليمنى الواحدة بالأخرى وكان الجمال يهدئنها بالحدو.[1]

---

(١) هنا تشرح للقارئ الإنجليزي ما يعني الغناء للجمل، وتقول هو نوع من الأغاني التي تهدئ الجمال وله وقع عليها، وتبدأ الأغنية بكلمات (شيخ.... شيلونو Shekh shillunu وتترجمها : ساعدوا كبير السن... الخ.

العبارة التي كنت عليها مع رفاقي في السفر والجمال المحملة لم تكن بسعة كافية، حشرنا كلنا في هذه العبّارة، وكانت ميحاف العبارة قد انخفض قريبًا من الماء ولم يكن يبعد سوى بضع إنشات، وحينما كانت العبارة تتمايل في المجرى المائي من جهة إلى أخرى، أحد الجمال كان يحاول نزع ساقه من الحبل المربوط به ما سبب اختلال في توازن العبارة بالإضافة إلى صياح الحيوانات الخائفة، وأعترف بأنني أحسست بالخوف عندما وجدت أن العبارة قد ابتعدت عن المكان الذي كان يجب أن ترسو فيه وربان العبّارة كان يجاهد للسيطرة عليها، ولكننا استطعنا أن نرسو في مكان بعيد عن بقية العبارات بمسافة نصف ساعة مشيًا على الأقدام.

وما أن وضعت قدمي في المدينة الصغيرة هيت حتى شكرت الله على إنقاذنا وشعرت بأنها معجزة.

الوهن والتعب أخذ مأخذه من الجميع، جلسنا نستعد لوجبتنا المسائية، بعدها كنا في منتهى السعادة لنسلم أنفسنا للنوم، وصباح اليوم التالي اتجهنا للقيام برحلتنا والتي فيها سنفارق وجه صديقنا نهر الفرات الباسم، والذي كان مبعث بهجتنا خلال تلك الرحلة، وها نحن سندخل الصحراء حيث الرمال المالحة.

الأرض أصبح لونها أبيض من ذرات الملح، مكان مقفر وكئيب حتى تعجز المخيلة عن تصوره، حيث لا يمكن الحصول على التجهيزات أو الماء، وبقينا يومين نجهز أنفسنا بكل المتطلبات وملأنا الماء من الفرات، وكنت محظوظة جدًا، إذ جهزت

نفسي بكثير من المتطلبات الضرورية وأصبحت موضوع دهشة زملائي المسافرين لكمية البيض والدجاج وبقية الأشياء التي استطعت شراءها وأنا في هيت.

واصلنا سيرنا باتجاه الصحراء، يمّمنا نحو الكابة، حيث لا بقعة خضراء ممكن أن تُشاهد في أي اتجاه، ما استطاعت العين أن ترى أي شيء يريحها من هذا المنظر الرتيب المتكرر، وإلى أي مدى يمتد النظر لا يجد سوى سطح واحد مستوٍ كسطح البحيرة لا يحدده أي شيء، وكل ما كانت تلمحه العين ويريحها حركة حيوان راكض مرعوبٍ من منظر هذه القافلة الهائل، ولكنني لم أستطع أن أميز هذه الحيوانات إلا أنه قيل لي إن بعضًا منها أسود، لا وجود لأي أثر لنتبعه، كل ما كان يدلنا على طريقنا هو البوصلة والنجوم.

الجمل بمثابة الباخرة للمسافر يحمل عليه المسافر كل أحماله وسرجه مريح جدًا، كما أن وقع خطوات الجمل متناغم مثل هزات مهد الرضيع ما يساعد المسافر على الاسترخاء التام، ويستطيع تناول وجبتين هما الفطور والغذاء لوحده، ولكن العشاء دائمًا يكون بصحبة رفاقه المسافرين معه وبجوٍّ اجتماعي مريح جدًا.

قضيت وقتي في القراءة، ولكن حركات الجمَل المتأرجحة يمينًا ويسارًا تشجِّع على النوم العميق وتصعب مقاومة النوم.

أتذكر وأنا أقرأ غفوت وسقط الكتاب من يدي على الأرض، حينها توقف الجمل عن السير إلى أن التقطنا الكتاب، هذا

الحيوان الأريب الحصيف يكون طوع رغبات الإنسان ويعرف بفطنته أن يقف لأن الراكب قد فقد شيئًا ما وهي حاسة طبيعية لديه لا يحتاج إلى تدريب بل هي بالفطرة والغريزة، يركع متى أحس بحركة بسيطة إن كان الراكب يريد النزول.

في ثالث يوم بعد تركنا مدينة هيت وجدت أن هناك اضطرابًا وحركة غير اعتيادية في مقدمة القافلة، وبالطبع أقلقني هذا، وجاء رجل يركض محذرًا مرددًا: الساميري (samiri) تقترب. قلت: كيف يكون ذلك والسماء صافية لا أثر لغيمة ولا نسمة من الهواء تهب؟ كيف عرفوا أن هذه الرياح العاصفة ستهب، بأي الوسائل توصلوا لمعرفة قرب هبوب هذه الرياح الصحراوية الحارقة التي ستنصب على رؤوسنا؟

وعرفت أن الجمال بفطنتها الطبيعية وغريزتها رفضت السير وبقيت لا تتحرك من مكانها تُعلم البشر بخطورة ما سيحدث وذلك قبل ساعتين من هبوب الرياح الصحراوية الخانقة القاتلة، وأخذ أصحاب القافلة يحذرون الناس قبل وقت مناسب، وفعلاً أخذنا الحذر وبدأ أصحاب القافلة بتغطية رؤوس الخيول بالأقمشة ووضعوا القطن في آذانها، ونصبت الخيام واستلقى الناس في الخيام مغطين رؤوسهم بالماء شاء الله، أما الجمال فتركت لفطنتها فهي بحاستها الغريزية تعرف كيف تحمي نفسها.

امرأة تركية هوَّنت من توقعات ما يدور، ودَعتني إلى مشاركتها فنجانًا من القهوة مع غليون تركي أعده عبيدها، فوافقت، إلا أن

الريح جاءتنا بدون مقدمات وحميت نفسي منها بالنوم أرضًا وتغطية نفسي بالماشاءالله، وأن الخيمة كانت تهتز وحرارة الجو ارتفعت إلى درجة أنني شعرت بأن الخيمة قد تحولت إلى ما يشبه الحمام الحار والعاصفة استمرت سبع إلى ثماني ساعات.

بعد انتهاء العاصفة استعد الجميع للسفر، وتم تحميل الجمال وتركنا خلفنا بضع جثث لبعض من العرب. سرنا لعدة أيام بدون أن يحدث ما يستوجب الحديث عنه ومضى ثمانية أيام بدون أن نرى ماء، وخلال كل تلك الفترة جمالنا لم تذق قطرة ماء.

في اليوم التاسع لاحظنا أن الجمال تشنف آذانها وتتشمم الهواء وبدا عليها التحفز والإثارة، أخذت تركض ناسية أدبها وتحفظها القديم، وكنت على أعلى جمل قد اخترته لكي أشاهد ما حولي، أخذني الجمل وهو يعدو سريعًا مع بقية الجمال إلى جدول ماء وغمرني إلى أن وصل الماء إلى يدي، وبدأت استنجد بالّجمال وقلت له: سأغرق أنا وجملك لو لم تأتِ إلى إنقاذي، فقال: لا تخافي الجمال تعرف طريقها جيدًا ولن تغرقي، فقلت له: من أين يعرف الجمل عمق هذا الجدول؟ فأكد لي بأن الجمال تعرف بحاستها، وقال لي: (أحلف بلحية والدي وبنور عيوني بأنك في أمان تام)، هدوءُه أعاد إلي الطمأنينة، وعندما ارتوت الجمال وانتفخت بطونها بالماء، عادت بهدوء إلى سيرها الهادئ وتذكرت حكمة الجمال ومقدرتها الخارقة على الفهم لأجواء الصحراء. استغليت هذه الفرصة وأخذت أسير على ضفاف الينبوع.

في اليوم التالي وقعنا ضحية قبيلة تريد أخذ الإتاوات منا ، استجبنا لمطالبهم، وأعتقد أنهم كانوا من قبيلة عنزة (Anazi)، والأفضل في هذه الحالة إن كنا لا نستطيع القتال أن نستجيب وحتى لو اضطررنا للعق أقدامهم، وتقرر أن يدفع كل واحد مقدارًا من الضريبة المفروضة عليه، وجدت من كان قبل ساعات يتباهى ويتبجح بغناه أخذ يبكي على سوء حالته المادية، وفي الأخير تمّ الاتفاق على مبلغ معين وكانت حصتي منه ما يعادل ١٥٠ بياسترس، أي ثلاثة أو أربعة باونات، وكنت في حينها أحمل كمية كبيرة من اللؤلؤ والمجوهرات، كنت أريد أن أوصلها إلى تاجر من مدينة بغداد يسكن في دمشق بناء على طلب أحد المعارف.

إن البدو يحكمون الصحراء والسلطان لم يكن يستطيع أن يمارس حكمه عليهم أبدًا ، حتى إن قوافل السلطان نفسه تُسلب من قبل الوهابيين، وخاصة تلك التي تحمل العطايا لقبر النبي في مكة.

وبعد إكمال دفع فلوس الإتاوة، جلس السراق والمسروقون والسالبون والمسلوبون سوية للمشاركة في وليمة على حساب القافلة ، علت أصوات صاخبة بالمرح والفرح والانشراح والحبور، وبقي الاحتفال إلى ساعة متأخرة... وفي صباح اليوم التالي واصلنا مسيرنا.

لحد الآن صحتي كانت ممتازة ولم تؤثر الرحلة عليَّ سلبًا، إلا أنني بدأت أشعر بألم في بطني، وازداد مرضي، وبدون شك

كان بسبب الماء الذي كنت أشربه من المطارة المصنوعة من الجلد، إذ أن هذه المطارات يجب أن تُعامل بإبقاء قشرة الرمان المنقوعة في داخلها لعدة أيام لكي تحافظ على نقاء الماء، ويبدو أن مطارتي لم تكن قد مرت بهذه العلمية، بقيت مريضة جدًا وحرارتي مرتفعة لعدة أيام، لم أستطع النزول من على ظهر الجمل، أرسلت في طلب المطران ورجوته أن يؤدي الطقوس المناسبة قبل الموت، وفعلاً قام بواجبه على النحو الكاثوليكي، وأوصيته إذا متُ أرجو أن أدفن في خرائب تدمر إذ لم تكن بعيدة جدًا ، وأن يكتب على شاهد قبري : "هنا ترقد ابنة النكبات". والآن خمس عشرة سنة قد مرت على تلك الأيام. (ما يدل على أنها كانت قد تركت العراق سنة ١٨٢٩.[١]

ولكنني بعد أيام شفيت، وعندما وصلنا تدمر كنت قد تعافيت واستطعت أن أركب فرسي وأتجول في تدمر مدينة زنوبيا الملكة الفخورة، ملكة الشرق والتي كانت محاطة برجال حكماء ولكن لم يكن هناك من رجل شجاع يستطيع أن يحمي مدينتها من الخراب الذي ألحقه بها مدمرها، ولا أن يمنع عنها قيود الفاتح المغتصب. ملكة بنت مجدها وأسست مدنًا عظيمة جدًا في تدمر والصحراء ومدنًا أخرى قوية ومهمة في (Emath).

المسافر المنهك من قطع أيام المسيرة في الأرض الرملية الجرداء يطفئ عطشه كما في أيام سليمان النبي من ماء تدمر

---

(١) شرح ومناجاة وجدانية ودينية.

العذب ، ويتمتع بخضرة الطبيعة قبل أن يواصل سيره عبر الصحراء.

في هذه الأيام الغني من الشرق ما زال يسلك طريقه من هنا ، ولكن عوضًا عن أن يحتمي تحت سقف من المرمر ، لا يجد مأوى سوى ستائر خيمته ، وعوض أن يلتقي بقوافل تحمل رجالاً متحضرين، محاطًا بكل أنواع الفخفخة والغنى الذي يأتي من كل الأصقاع من الشرق أو الغرب ، الشمال أو الجنوب ، عوضًا عن هذا يلتقي قلة من العرب بئيسين يكتسبون مبلغًا طفيفا من مادة رديئة وتجارة تافهة بالملح والصودا (soda) التي يحملونها إلى دمشق.

ونحن في ركوبنا ممرنا بأعمدة كورنثية موجودة في كل البنايات ماعدا في معبد الشمس، هذه الصفوف من الأعمدة قد تمتد إلى مسافة ميل ، قسم منها ما زال محافظًا على سلامته ، والقسم الآخر يتعرض للتهديم، ولاحظت واحدًا أو اثنين منها لم يكتمل العمل فيهما ، إن أسس البيوت وما بقي منها تدل على سير اتجاهات الطرق والشوارع وتخطيطها ، كل شي صامت ، أشجار النخيل التي ورد ذكرها في المخطوطات خلال عظمة روما والتي من اسم النخيل اشتق الرومان اسم هذه المدينة لا أثر لها، قلة من الناس تسكن تدمر ، يسكنون أكواخًا بئيسة بنيت على أنقاض معبد الشمس والتي يسمونها القلعة (Elkhala).

بعد أن قضينا وقتًا في غابة الأعمدة هذه والتي يدل بياضها الناصع على حسن ونقاوة جو تدمر ، منظرها الجميل يعطينا

بُعدًا متناقضًا مع المنظر الخارجي العام لأرض اليباب التي تحيط بها ، ذهبنا لنزور وادي القبور (Wadi el khabour) الذي يقع خارج حدود المدينة.

كانت هذه الجولة مثيرة للدهشة والإعجاب إذ أن القبور تبنى من ثلاثة طوابق وكلها تحتوى على كوة تدخل منها الجثث ، ويقال إن بعضها كانت محنطة على الطريقة المصرية ، وعلى الكثير من سقوف هذه البناية ما زالت الرسوم واضحة وأغلب الرؤوس المرسومة كانت داخل شكل معيني ، هناك نافورة كبيرة محاطة بالحجارة يقال إن أورليان قد شيدها ، والآن يطلق عليها عين أورنوس (Ain Ornus).

بالإضافة إلى تجارتهم بالملح والصودا الذي يبيعونه لتجار الصابون في دمشق ، إلا أن سكان تدمر لا يشغلون أنفسهم بأي عمل ، لا يبذرون ولا يحرثون ولكنهم يعتمدون على دخلهم الضئيل من هاتين المادتين.

الطريق الذي سنأخذه من تدمر إلى دمشق والذي يبلغ ١٤٠ ميلاً سيكون خاليًا صحراويًا مثل الطريق الذي قطعناه من هيت إلى تدمر ، مشينا مسيرة يومين ولاح عن يسارنا جبل ممتد ومرتفع ، سكان هذه المنطقة على ثقة تامة بأنها صادوم وعامورة المدينتان المنكوبتان ، كما في القصص ، ويقال إن هناك نبع ماء يجري ويصل إلى سفح الجبل ، هذا الماء خبيث جدًا وضار بالبشر إلى أقصى حد ، ويوعز العرب السبب إلى أن لعنة الله العلي العظيم ما زالت نافذة على هذا الموقع.

تعلو الجبل غمامة ضبابية، الآن السماء صافية مشرقة حولنا، ويقال إن هذه الغمامة لا تفارق الجبل أبدًا وهي رمز آخر لغضب الله تعالى، وحتى يقال إن عمود الملح الذي تحولت إليه زوجة لوط ما زال موجودًا في الجوار. رغم أن هذا الحديث وصلني على أنه مؤكد إلا أنني لا أستطيع تأكيده بدون أن أتحقق منه، وأعترف بأن لي رغبة تصعب مقاومتها للتحقق من هذا الأمر.

المدة التي تستغرقها الرحلة عادة لا تتجاوز الأربعين يومًا ، ولكن الحجم الهائل لقافلتنا والكمية الكبيرة من السلع التجارية التي كانت معنا كانا السبب وراء استغراق الرحلة مدة شهرين.

سرنا في القفار حيث الرمال فقط وتركنا خلفنا تدمر، نسير حيث لا عشب أخضر أو تلال، أرض مسطحة مستوية فقط ورمال، مازال اتجاهنا إلى الشمال الغربي.

تركنا خلفنا تلك الجبال الكبيرة المهيبة في المدى البعيد، وبعد مسيرة أربعة أو خمسة أيام وفي أحد الصباحات ونحن نستعد لمتابعة الرحلة بدت في الأفق قباب ومنائر دمشق تلوح لنا، تقف أمام سلسلة جبال لبنان ، مصبوغة بلون الشفق الوردي لا يستطيع إنسان أن يتصور مدى جمالها، قلوبنا خفقت بشدة من الفرح، وعوضًا عن الجو الكئيب الذي ساد أحاديثنا ونحن نقطع الصحراء بدأت تظهر نغمات أحاديث مليئة بالفرح والمرح في جوّ مليء بالحياة. كل العيون شخصت تنظر إلى منظر المدينة، وتتطلع إليها ونحن نقترب فقدت المدينة ما أحاطها من الحلم

والخيال، وبدأت تبدو لنا على أنها مدينة حقيقة يسكن بها بشر حيث يتعاملون بينهم لتمشية حياتهم اليومية.

في حوالي الساعة الثالثة وصلنا إلى المكان المعدّ للقوافل للوقوف، يبعد مسافة نصف ساعة عن المدينة من ناحية بوابتها الشرقية ، على يسارنا وبعيدًا ظهرت مرتفعات حوران (Houran) مغلفة كلها بالخضرة ومحاطة بالوديان ، وتبدو غلتها ومزروعاتها والتي يطلق عليها مخزن أو سلة غلال دمشق، لا شيء يدهش ويبهر مثل التناقض بين المنظر الكئيب الذي تركناه خلفنا، وهذا المنظر البهيج الذي يبدو أمامنا.

بيننا وبين المدينة تقع مقبرة المسيحيين، تتناثر أمامنا على سهل واسع محاطة بسلسلة من الجبال عالية جدًا ، وبأشكال مختلفة من التلال البسيطة الارتفاع إلى الجبال الجرداء المكللة هاماتها بالثلوج ، تبدو البيوت البيضاء غير منتظمة تحت الشمس الحارقة والسماء الصافية التي تشوش البصر، إلا أن ما يهدئ العين هو منظر قباب الجوامع والكنائس والأديرة التي لا تعد ولا تحصى، المنائر الأنيقة والبارعة الصنع تعلو على كل شيء لا بد من الاستمتاع بتتبع جمال انسياب خط طللها (Out line) الأنيق والذي في المدى البعيد، تؤطره سلسلة جبال لبنان.

إن مصدر مياه نهر بردى هما أبانا والفرفار (Abana and Pharphar) حيث أن قنواتهم السبع هي سبب خصوبة هذه الأرض، نستطيع أن نميز عن يميننا وبمنخفض عن المدينة، مساحة خضراء حيث تصطف أشجار على الضفاف، وعلى

جوانب الجنائن والبساتين أشجار الزيتون والنخيل والتين والمشمش والرمان هذه البقعة هي (شامة حُسن على خد دمشق).

نسير في الشارع الرئيسي والذي ذكر في كتاب الرسل اسمه الطريق الضيق ، يمكن ملاحظته ما بين القلعة والجامع الذي كان كنسية القديس يوحنا ، وما بين السبيل الضيق والجامع يقع القسم المسيحي من المدينة المميز بكنيسته وبرج الدير.

حين وصولنا إلى المضارب الأخيرة للقافلة ، وجدنا المستقبلين وقد نصبوا خيامهم المتعددة الألوان حيث بقي الأقرباء والأصدقاء في لهفة بانتظار وصول القافلة ، يا له من منظر ، هرج ومرج عندما اقتربت القافلة منهم تسمع أسئلة تُسأل وأجوبة ترد عليها ، الحماس والتشوش ، سؤال يعقب سؤالاً ، الكل يتكلمون في الوقت نفسه والبهجة تبدو واضحة ، لا بد أنهم عانوا من قلق وخوف الانتظار ، وبعضهم عرف أن تجارته بشق الأنفس قد نجت من أيدي البدو ، وكل ساعة يأتي مستقبلين جُدد لموقع القافلة وكانوا مصرين على الأسئلة ولم يصبروا لسماع الردود.

الآن علينا أن نصفي حسابنا مع أصحاب القافلة وقررنا أن نقيم حفل عشاء يشترك فيه الجميع القادمون والمستقبلون احتفالاً بسلامة وصولنا وعلى شرف أصحاب القافلة وتكريمًا لهم. نصبت الخيام مجددًا لنبقى وننام فيها أخر ليلة.

كنتُ قد جلبت معي توصية إلى أحد تجار دمشق المعروفين واسمه الخواجة يوسف عنحوري (HANHOWRI) [١] كان الخواجة يوسف عنحوري بانتظاري مع أولاده وأخيه، وبأدب جم عرض علي أن نبقى في بيته إلى أن نجد مكانًا لنستقر به وكان عرضًا كريمًا لم نستطع رفضه.

صباح اليوم التالي خرجنا كلنا سوية المطران والسيدة التي من البصرة مع عائلتها ويوسف العنحوري ودخلنا الشام الشريفة (Sham El Sherifa) الفردوس الأرضي (Fferdos El Arthee) ولدى وصولنا الباب الشرقي وأنا على فرسي منعني الحرس من دخول المدينة معتليه الفرس، إذ أن في كثير من المدن الشرقية لا يسمح للمسيحي بدخول المدينة راكبًا بل يجب أن يكون ماشيًا ولقد عرف الحرس ديننا من ملابس المطران الذي كان معنا ومن ملابسنا كلنا.

ولكن الخواجة يوسف رفض هذا المنطق وبدأ مناقشة حامية مع الحرس لأنه شخصية معروفة في البلد، وبعد أخْذ ورد ومناقشات أرسل يوسف رسالة إلى القائد وجاء الرد بالموافقة، لذا سمح لنا بالدخول وأنا أعتلي الفرس التي كنت قد اشتريتها.

بقينا في جناح خاص بنا في بيت يوسف، وكان مثال الرحمة وطيبة القلب.

---

(١) عائلة عنحوري عائلة دمشقية عريقة من أصل فلسطيني ما زالت موجودة في دمشق.

في اليوم التالي زوجة يوسف عرضت علينا أن نذهب للحمام (hamam)، ووافقت بسرعة والمرأة البصراوية كذلك أتت مع ابنتها، ذهبنا للحمام وكان عددنا عشرة ورافقتنا عشر عبدات.

كنتُ بحاجة ماسة للحمام بعد مرور شهرين على عدم الاستحمام خاصة وأنني معتادة أن أستحم مرتين في الأسبوع.

الحمام الذي ذهبنا إليه من أروع ما يكون، ودمشق مشهورة بحماماتها العامة، جدران القاعة كانت من المرمر المصقول والأرضية أيضًا ، والغريب أنها مطعمة بالموزائيك الفائق الجمال والذي يلمع مثل المرآة.

السقف على شكل قبة مليئة القاشاني (البلاط المزجج) بألوان جميلة أخاذة وزجاج من مختلف الألوان، كان هناك الكثير من الغرف في الحمام ولكن هذه القاعة كانت من أكبرها وأجملها، في القاعة الكبيرة كان هناك حوالي ٢٢٠ امرأة كلهن عاريات ما عدا فوطة من قماش الحرير الأبيض بحافات مخططة بالأحمر وألوان أخرى وتصل إلى الركبة.

قسم منهن كن يستحممن والأخريات يشربن الأركيلة وقسم منهن مستلقيات يشربن المرطبات، هنا وهناك تجد بعضهن بأجساد بديعة يعجز إزميل أي نحات عن الإتيان بها، أغلبهن مندمجات بأحاديث وتنطلق منهن الضحكات مما يدل على حيويتهن.

طريقة أو أسلوب الاستحمام لا يختلف عنه في مدن الشرق، على مدار جدران القاعة هناك حنفيات للماء التي تزود بالماء

الحار والبارد بشكل آني، تحت كل حنفية وضعت أحواض من الرخام تستقر على حامل مصنوعة بشكل جميل وبحرفية عالية يبلغ ارتفاعها وقطرها قدمين.المستحمة تجلس على مصطبة من الخشب ارتفاعها قدم واحد وتأتي الغسالات (rhsalat).

وهن اللواتي يحممن النساء، وعادة اثنتان منهن لكل امرأة تنوي الاستحمام ، واحدة تقف للأمام وتسكب الماء على رأس المستحمة ، في حين الأخرى تقف في الخلف لتدلك جسم المستحمة ورأسها بمادة تجلب من حلب تسمى(gil) في اللغة الكلدانية ، وتكون ممزوجة بالأعشاب المعطرة ، هذه المادة توضع في إناء ويسكب عليها الماء الحار لتصبح أفضل مادة لتنظيف وتنعيم الشعر والبشرة ،بحيث تصبح البشرة حريرية ناعمة وبعدها يغسل الشعر والجسم بهذه المادة لمدة دقيقتين أو ثلاث ، ثم تشطف بالماء الدافئ الذي تسكبه المساعدة الثانية، جرار من الماء تسكب واحدة بعد الأخرى على جسم المستحمة، بعدها يغطى جسم المستحمة برغوة من الصابون المعطر بآلاف الروائح ، بعد هذا فيض من الماء الدافئ يسكب على جسم المستحمة، ثم يدلك جسمها بكيس أبيض مصنوع من نوع من النبات اسمه الليف (leef)، وهو خشن ويعطي الإحساس ذاته، كأنه مصنوع من شعر ذيل الحصان ، ويمنح سطح الجسم الدفء، يفرك باطن القدم بحجر بركاني به ثقوب وعادة يكون بمقبض من الفضة أو الذهب.

هذه العملية قد تستغرق ساعة، عادة بعدها تتمدد المستحمات

ليتمطين بأجسادهن على الأرائك الموضوعة في الغرفة الكبيرة أو يستلقين على المرمر يشربن الشربت أو القهوة أو يدخنّ النركيلة ، في حين أن الإماء يدلكن أجساد سيداتهن بعطور بروائح عطرة غنية نفاذة.

في حمام النساء هذا تسمع أنواع الأحاديث إذ إنها سوق الفضائح الدمشقي هنا معرض للدمشقيات لتصفية حسابات الغراميات وترويج اللافتراءات.

عادة يستغرق البقاء في الحمام اليوم طوله ،يتمتعن بالحديث والأكل وشرب الشربت وتدخين النارجيلة وحتى الرقص ، والعبدات الزنجيات يستخدمن هنا للرقص وكل سيدة تشارك بالرقص عندما يحين دورها ولا تجلس حتى تكون قد أنهكت.

كوني غريبة بينهن جلبتُ انتباه هؤلاء النساء الشقراوات، وما أن عرفنَّ من أكون حتى تجمعنَّ حولي يسألنَّ آلاف الأسئلة، قد أحتاج إلى أسبوع للرد عليها وقلت لهن: إنني من بغداد وأخذن يستفسرن عن نساء بغداد ما يرتدين ؟ ما مظهرهن ؟ وكيف يتسلين ؟ قصيرات طويلات شقروات سمروات نحيفات بدنيًا ؟ عاداتهن ؟ كيف يعاملهن أسيادهن ؟ أجبت باختصار على قدر إمكاني.

تعرفت على امرأة تسألني إن كنتُ من بغداد، وتطلب مني أن تحادثني وأقول لها: (Bismillah) ويدور حوار بيننا، تحكي لي بأنها مسيحية من بغداد وكيف توفي والداها وهي في الثالثة عشرة، وكان هناك أغا تركي صديق العائلة أرد أن يتزوجها،

ورفضت وعرض عليها أن يعاملها مثل الأميرة (Amira) ، وأخيرًا استطاع تخديرها، وعندما وعت وجدت نفسها في جناح الحريم (zenana) وأعلنت موافقتها على تغيير دينها والدخول في الإسلام والموافقة على الزواج أيضًا وهي غير واعية ، وتقول إن الإسلام لا يجيز الزواج إلا بموافقة المرأة، ولهذا كان عليه أن يحصل على موافقتها ، وبعد أن يقع الأمر تكتشف الخدعة، تستسلم للأمر الواقع، وحسب القوانين فإنها لا تستطيع أن تظهر أنها مسيحية لأنها ستعتبر مرتدة ويحق قتلها، لذا تخفي إيمانها في قلبها، وعلنًا تجاري زوجها ومحيطها بكونها مسلمة. تعرض علي أن ازورها وأن ترسل لي (tahterawan) وهي كرسي محمول مغطى بالستائر ، ولكنني أتحجج وأرفض لأنني أعرف كم أن المسلمين عامة، وخاصة المتعصبين من دمشق يمقتون المسيحيين وأنا أخاف أن أزور بيوت المحمديين، إلا أن تحججي لم يثمر وقالت إن زوجها ليس من النوع الذي يمقت المسيحيين. [١]

وعندما ودعتني بعد أن حكت لي قصتها خرجت من الحمام تتبعها عشر جواري والتختروان في انتظارها يحف بها جمع من المماليك والخصيان.

بعد ذهاب تلك المرأة اتجهت إلى القاعة الكبيرة حيث النساء وما أن شاهدنني حتى صحن: ما شاء الله ها هي صديقتنا من بغداد

---

(١) أوجزتُ هذه القصة الطويلة في هذا النص.

نريد أن نرى رقص بغداد، ويطلبن مني الرقص وأرفض لأنني لا أعرف أي خطوات راقصة ، كما وأردت أن أبقى أتمتع بالنارجيلة ، وأنني ما زلت موهنة نتيجة سفري الطويل والمرض الذي أصابني خلال رحلتي ، بالإضافة إلى النكبات التي قد أصابتني وخبت روحي بسببها ، ولكن هؤلاء النسوة المرحات لم يقتنعن ، تقدمت واحدة منهن ورمت إكليلاً من الزهور على رأسي ، والأخريات غمرنني بعطور شهية رائعة ورفعنني عن الأرض وبدا لي أن لا مفر لي ، وبعد إلحاحهن رقصت وسقطت بعد أن تزحلقت على الأرض المرمرية وأصبت بجرح في رأسي وبنزيف حاد ويغمى علي ، يرسلون إلى العطار (aatar) الذي زودهن بالمواد اللازمة ولا يستطيع الرجال دخول إلى الحمام ، وعقوبة ذلك القتل ، وأخيرًا أعالج بحرق شعر ذيل الحصان والذي أوقف النزف تمامًا ، ثم صحوت ووجدت نفسي محاطة بالنساء ومنهن المرأة البغدادية الطيبة والحنون وأن مثلها قليل وجودهن في المدن الكبيرة المتحضرة.[١]

أبقى في بيت يوسف العنحوري عشرة أيام طريحة الفراش ثم أشفى تمامًا أقرر أن أزور الصديقة التي تعرفت عليها في الحمام.

---

(١) اختصار لتفاصيل كثيرة لا أجدها تخدم النهج الذي التزمتُ به.

في يوم ما من شهر أيار تركت بيت يوسف العنحوري الذي يقع في القسم اليوناني من دمشق برفقة زوجة يوسف والمرأة البصراوية وفي نيتي أن أقدم الامتنان للمرأة الشقراء واتجهت خطواتنا صوب بيت الأغا.

البيت من الخارج سياجه اعتيادي لا يجلب النظر، بل يدل على أنه بسيط جدًا وغير مهم، توجد كوة في الأعلى عليها مشبكات من الحديد ولا يدل البناء على أنه يعود إلى شخصية مهمة من شخصيات دمشق، ولكن خلف ذاك السياج المنظر يختلف تمامًا حوش واسع كبير مرصوف بالمرمر وتظلله شجرة جميز كبيرة وصفصافة فارسية مع نافورة كبيرة جدًا في الوسط تقذف برذاذ الماء بقوة وترطب النسيم، حيث شعاع الشمس الدافئ، جدران هذا الحوش مغطاة بعرائش من الكروم مرتبة بشكل أخاذ ولم أستطع أن أخفي إعجابي بطريقة الاعتناء بهذا الحوش بهذا الشكل الأنيق، وبعد دقائق أخذوني إلى غرفة جلوس، وهي صالة واسعة جدًا وجاءت الصديقة الجميلة واستقبلتني وفرحت لرؤيتي وقالت لي: إن أثاث الغرفة كلفته مائة وخمسين ألف بياسترس وأن هناك عشر أو اثنتي عشرة صالة مثلها في هذا البيت. وقالت مهما كان جمال وفخامة ما يحيطها فإنها تعيش حبيسة في هذا البيت إذ إنها ما زالت مسيحية المعتقد إلا أن روحها وجسمها يئنان من العبودية.

في الصالة كان هناك عدد من زوجات الأغا والرقيق كلهن يبدو الابتهاج على محياهن الجميل، رقيقات أخاذات، إلا صاحبتي

فقد كان الحزن والألم مخيمين عليها.

إن النساء التركيات يحتفظن بشبابهن بطريقة مدهشة، وليس من المستغرب أن نشاهد الأم والبنت ونعتقد أنهما أختان ، إذ أن معظم الأوقات الفرق بين عمريهما لا يتعدى الثلاث عشرة سنة، إذ إنهن ينجبن في سن مبكرة جدًا ، ويتحملن المسؤولية في سن مبكرة جدًا ، ويبدو أن هذا المسؤولية لا تترك عليهن أثرًا سلبيًا كما في بقية الدول حيث يظهر على النساء الكبر المبكر.

يقضين أوقاتهن بدون عمل أي شيء فقط بالاستماع إلى الموسيقى أو التطريز أو الرقص ولا يحملن أي همّ، اذ لا يعرفن ماذا يدور حولهن، قليلات منهن يُجدن القراءة والكتابة، الأتراك يقولون لِمَ نحملهن هموم رحلة لن يسافرنها ؟ وكذلك إن غيرة الرجال سبب مهم لعزلهن وبقائهن جاهلات.

الزنانا مجهز بكل ما يحتجن والحمام مكان التقائهن بصديقاتهن وللتمع بحياة هنية رخية.

نساء دمشق من أكثر نساء الشرق أناقة قاطبة، يتركن خصلات شعرهن ملفوفة بحلي من الذهب واللؤلؤ والماس ، قسم منها يتدلي إلى الأرض.

أجدهن ودودات كريمات بقلب طيب ، تصرفاتهن طبيعية ، خاليات من أي علة أو عيب ومملوءات مودة وحنانا.

وعندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أو الماضي وأسترجع الصفاء الذهني والسكون الروحي الذي تتصف به هؤلاء النساء

الشرقيات الأميات، وأقارنهن مع حالة اللواتي يعشن في مجتمع قدر لي أن أسكن فيه في أوربا، دائمًا هناك سؤال يثير الشك: هل تلك النسوة أو من ذكرت، لديهن أي سبب لحسد الأخريات؟

بعد أن قدمت لنا القهوة والنركيلة أردات زوجة الأغا أن أبقى فترة أطول لأتعشى معهم، إلا أنني اعتذرت، إذ وعدت مضيفي أن أرافقهم في زيارة إلى أحد معارفهم، وهو من الطائفة اليونانية الأرثذوكسية ولديه بيت جميل جدًا يقع شمال المدينة وبه حدائق غناء مثمرة، فيها أنواع من الفواكه اللذيذة. كان الرجل غنيا جدًا ولكن على عادة الأغنياء المسيحيين الذين يعيشون تحت حكم إسلامي أن يخفوا غناهم عن السلطة، وهذه عادة ممارسة شائعة ومفيدة، وودعت صديقتي على أمل أن أزورها مرة أخرى.

بيت صديق مضيفي كان على مسافة أربعة أو خمسة أميال من دمشق، يقع في بقعة ساحرة قرب نهر بردى، وبعد رحلينا بمدة ساعة وجدنا أنفسنا على مشارف بوابة بيته، عند دخولي تلك الأرض أدهشتني خصوبة التربة ولم أتمالك نفسي من إبداء إعجابي واحترامي بكيفية التنسيق والعناية بتلك الأرض.

أشجار الفواكه كانت تبدو كغابة، والجداول كانت تقطع الأرض بكل الاتجاهات، تجري فيها مياه من بردى، أعداد كبيرة من الجمال هنا وهناك، ترعى من الأرض الخضراء أو مستلقية تحت الشمس.

الدار مثلما كانت الأرض على درجة عالية من الغنى ومرتبة

جدًا ، وجدنا السفرة جاهزة بانتظارنا في الصالة قرب نافورتين من المرمر تدل على حذق ومهارة صانعها مزوقة بورود عطرة من الحدائق والروائح الزكية تنبعث من كل مكان.

مجموعة الضيوف كانت مؤلفة من أربعين شخصًا ، الصينية الكبيرة التي كانت الوليمة معدة عليها ، حيث أنها تقليد شرقي ، كانت موضوعة في الوسط مغطاة بأجمل سجادة فارسية وقعت عيني عليها وتستند على حامل من خشب الأرز من جبل لبنان ، مطعّم بالصدف المجلوب من سواحل البحر الأحمر ، جلسنا على شكل حلقة : النساء في جهة والرجال في الجهة المقابلة ، حيث الرجال والنساء يتناولون الطعام سوية ، على عكس عادة المسيحيين أهل الموصل وبغداد ، وخلفنا وقفت مجموعة من العبيد وأذرعهم متصالبة.

أكلنا أفضل الأكلات من اللحوم المشوية والبلأو والكباب السمبوسك وبقية الصحون الشرقية وجلد الفرس (Jild el faras) تصنع من المشمش المغلي بالماء ويصبح على شكل مربى ثم يعمل على شكل رقائق ويلف.

شربنا عدة أنواع من النبيذ وأتذكر منها ما يسمى النبيذ الأصفر (Nebid el Asfar) ، إنّ الإيطاليين يستوردون منه الكثير ، وعلى طريقة اليونانيين الأرثوذكس فإنهم يستأجرون فرقة موسيقية يعزف فريقها على الناي والقيثارة والكمان ، والكل يشارك في الغناء ، قسم منها أغانٍ اعتيادية ، وقسم منها تراتيل دينية ، وعندما حان دوري بالغناء اعتذرت وأقنعت ابنة المرأة

من البصرة أن تغني عوضًا عني، وكانت تملك صوتًا ساحرًا.

بعد أربع ساعات من تناول وجبتنا التي كانت في الساعة الواحدة ظُهرًا ، توجهنا كما في أوربا إلى صالة أخرى لتناول الفواكه، حيث بعدها قدمت لنا القهوة والأركيلة. عادة تترك هذه الفترة الطويلة لكي يهضم الأكل ، فإن الاعتقاد السائد في هذه البلدان لو تم تناول الفواكه مباشرة بعد الأكل فإن ذلك يسبب عسر الهضم.

كان من ضمن المدعوين الأغا التركي، حدثني بأنه قد عاد حينا من رحلة للحج إلى بيت الله (Beyt Allah) ويقول إن النبي في إحدى زيارته إلى الأعالي (إلى السماوات) يقال إنه رأى معبدًا أعجبه جدًا وتجرأ وطلب من الله أن يستعمله المؤمنون هنا في الأرض وأرسل هذا المعبد إلى مكة مراعاة للمؤمنين ولبلبلة الكفار ، والآن تحرسه الملائكة، كي لا ينتهكه لو وجد هؤلاء الكلاب القذرون في الجوار. إن الحج للكعبة مرة واحدة على الأقل للمتمكن لتُمحى الذنوب ، كما وأنها الاتجاه الذي يولي المصلي إليه وجهه.

بعد رمضان ، ثلاثة قوافل كبيرة اتجهت إلى مكة المقدسة من بغداد ومن دمشق ومن مصر لا يقل عددها عن مائة ألف حاج، وعند وصولهم يدورون حول الكعبة التي يسمونها بيت إبراهيم سبع مرات ويعتبرونه واجبًا (wajib)، ويقبِّلون الحجر الأسود الذي يقال إنه نزل من السماء أبيض ناصعًا ، واسودّ بمرور الزمن، ثم أخذ يحدثني عن مدينة قم، وقبر فاطمة ابنة الرسول،

والذي يرتفع حوالي ١٢ قدمًا عن الأرض ومحلى بالذهب والفضة والأغطية المطرزة.

ولكنه أكد بأن فاطمة العذراء البتول أم الأئمة الاثني عشر ، الذائعي الصيت لم تدفن هناك أبدًا ، بل الحقيقة أنه قد رفعت وصعدت إلى السماء بجسدها بقوة الله العظيم، وأن هناك قبرين آخرين ليسا بهذه الأهمية.

يحدث دائمًا أن أسمع اسم السيدة مريم العذراء وابنها المقدس يُذكران بكثير من التمجيد من قبل الأتراك والفرس، هذا لن يثير استغرابي أبدًا ، وهذا الحاج الثرثار الذي خصني بتلك الأحاديث لم يذكر اسميهما إلا بكثير من الاحترام، ومع هذا فإنني لم أقابل رجلاً أكثر منه تشبعًا بروح الأصولية ومتيقنًا من كرهه للمسيحيين قاطبةً بدون تعيين ومهما كان توجههم.

غادرنا دار مضيفنا عند غروب الشمس وتمتعنا ونحن على صهوات خيولنا بجو ممتع على نهر بردى ، حيث الخضرة والرياحين والروائح العطرة والرياح الغربية القادمة من جبل لبنان، وصلنا وقت حلول الظلام وذهبنا إلى النوم مباشرة.

في اليوم التالي صباحًا ذهبنا لأسواق دمشق الملتصقة بخان أسعد باشا الذي يستغرق نصف ساعة لقطعه، حيث الهدوء التام لا صوت عربات أو جياد غير الجدران الصماء التي تحاذي الشوارع الضيقة ، ولكن الأصوات تقطع الصمت ونسمع لغة مختلفة كاختلاف عادات المتحدثين بها.

ومرَّ موكب الباشا وملابسه الزاهية الألوان التي على تناقض واضح مع العباءة (abaa) الزي المحلي البدوي الخشن والملتفع بها ، الأغا الثري والذي يرتدي الملابس الغالية من الفراء وحزامه المزين بخنجره المرصع وسيفه الذي ينسحب على الأرض شاهدناه يمر بهدوء وخطوات ثابتة متبوع بعشرة أو خمسة عشر عبدًا ، قسم منهم يحمل أرجيلة الأغا مع حقيبة من القماش المطرز الفاخر تحوي التبغ وكماشتين من الذهب لتعبئة التبغ.

بالإضافة إلى هذا كان هناك الدروز والمسيحيون من السوريين الذين ملابسهم أقل قتامة مما يرتديه الناس في بقية مدن الشرق، وكل هذا كان له تأثير صارخ ومؤثر جدًا ، وفاقَ كل ما قد رأيت سابقًا.

ذهبنا إلى القسم الذي تباع به بضاعة من الهند، حيث أندهشت من الأقمشة الرخيصة جدًا من الحرير والساتان بكل أنواعها، وكلها مطرزة ، وطريقة تعامل تجار دمشق اللبقة والمليئة بالاحترام والمجاملات ويخدمون المشتري ويساعدونه في الحصول على مطلبه حتى لو لم تتوفر المادة عندهم.

اشترينا الذهب والفضة بسعر رخيص جدًا ، أرخص مما تُباع في أي مكان حتى من فلسطين ولبنان ، السوق يعجٌّ بأناس يتكلمون لغات مختلفة، وقبة خان أسعد باشا الفخمة و لم أجد ما يضاهيها إلا عظمة قبة الفاتيكان.

أهل دمشق المعروف عنهم أنهم يحبون الحياة المتنعمة والمريحة والزاهية وأنهم على درجة عالية من المجاملات ويطلق عليهم شامي شومي (Shami Shumi) أي الحاذق والماكر.

ثم ذهبنا إلى ضفاف البردى وجلسنا في المقاهي القريبة من النهر وبضاعتنا بقيت مع العبد والذي كان يضعها بالقرب من الجرف ، وتجرفها مياه النهر ويحاول العبد استرجاعها بكل الطرق ، إلا أنها تغوص ويركض العبد ونعتقد أنه قد هرب بجلده خوفًا ، إلا أنه يعود ومعه غطاس (rhathas) ليغطس في النهر لاستخراج المشتريات، إلا أننا وجدنا عدم جدوى الانتظار وعدنا إلى البيت. وفي اليوم التالي جاءوا بما اشترينا ، ولكن البضاعة كانت تالفة، إلا أننا لم نتذمر لأنها إرادة الله.

بيت يوسف العنحوري مقسم نصفه للنساء والنصف الآخر للرجال ، الصالون أجمل ما رأيت من فن الرقش والتطعيم ، والكوة في السقف ، ليدخل منها النسيم العذب وتغلق بمشبكات تدفع إلى الداخل ذات تصماميم راقية وأنيقة جدًا ، في وسط الصالون نافورتان للماء ، وعلى الجانب قفص كبير جدًا للطيور من كل الأنواع بلابل وببغاوات تغرد بأصوات شجية وليس من المستغرب أن تشاهد حمامات غريبة تحط على النافورة تنعش نفسها بالماء، وأحيانًا تكون رسل غرام تحمل رسائل العشق بين الأحبة المغرمين.

أرضية الصالون مفروشة بسجادة ثمينة جدًا من بلاد فارس، في

نهاية الغرفة منصة أو دكة بارتفاع قدم واحد عن الأرض مغطاة بأغلى أنواع السجاد حيث يجلس المضيف يستقبل ضيوفه ، الجدران مغطاة بأجمل زخارف الأرابيسك.

في هذا المكان البهي ليس من المستغرب أن ترى مهدًا لطفل وأمًا تهدهده وهي جالسة مع أقاربها تطرز أو تشتغل بشغل الإبرة، وهو نوع من التطريز، ويمتاز عملهن بمهارة عالية، إذ رأيت محافظ رائعة لا توصف، قطعًا وتحفًا فنية على درجة عالية من الذوق الرفيع.

ولا توجد امرأة لا ترضع طفلها، إذ يعتبر عدم إرضاعه نوعًا من الجريمة، كما يحدث مع القبائل الرُّحل.

العوائل المسيحية تحافظ على التقاليد العامة، والتي تنطبق على الجميع ويحترمها الكل من الأتراك والفرس أيضًا ، إذ إنه لا يجوز للزوج وزوجته أن يتماسكا الأيادي أو يبديا أي عاطفة واضحة الواحد تجاه الآخر، ولا يخرج عن هذه التقاليد أحد أبدًا.

يوم السبت هو اليوم المخصص للحمام ويوم الجمعة ينقضي كله بالاستعداد ليوم الحمام، أما من ناحية العبادة فهن ملتزمات تمامًا بمواعيد الصلاة يوم الأحد، ولا يهمهن إهمال الفطور أو الغذاء مقابل الالتزام بالصلاة.

ربُّ العائلة يقضي أيامه في القسم المخصص له يتمتع بتدخين الغليون أو الأركيلة وفنجان القهوة (figan of coffee) يجلبه له أحد الخدم. تصرف الكثير من الفلوس على تزيين وتزويق

الأركيلات، ورأيت الكثير منها في بيت يوسف العنحوري، قسم منها مطعم بالذهب والفضة أو من العاج، وخاصة القسم الذي يوضع في الفم، بالإضافة إلى الأراكيل يستعمل الرجال من المسلمين والمسيحيين السبح، ويسبحون بها دائمًا، حباتها كثيرة العدد تتدلى إلى الأرض أحيانًا، وحبات السبحة عادة تكون من العنبر، ويسبحون وهم يكررون الصلوات أو الدعوات.

لم يمر يوم بدون أن تصلني دعوة من زوجة الأغا بواسطة أحد عبيدها للوفاء بوعدي لزيارتها، وفي أحد الأيام قررت إجابتها وزرتها ، وحال وصولي أخذت إلى الصالون في القسم المخصص للنساء ، وجدت صديقتي الشقراء مع الكثير من الجواري الجورجيات يطرزن ويخِطن القمصان الحريرية للأغا ويزوقنها بالدانتيل ، وكذلك يضعن الموسلين حول حافة الطربوش ويزوقنه بالدانتيل بمهارة فائقة.

إنهن يقضين أوقاتهن كل يوم بهذه الطريقة ولا يخرجن إلا إلى الحمام، وإذا صادف واضطررن للخروج فيكون بصحبة الكثير من العبيد، ويحملن على التختروان الذي تحيط به الستائر لمنع النظرات عنهن، وحسب الدين الإسلامي فإن النظرات تعتبر من المحرمات.

كلهن أُميات ما عدا صديقتي البغدادية ، إذ يتم شراؤهن وهن صغيرات السن ويفرض عليهن اعتناق الإسلام كدين، ولكنهن يتشوقن إلى العودة إلى دين آبائهن وهو المسيحية، إلا أنهن لا يستطعن ذلك مطلقا ، إلا أنهن في الخفاء يبدين التعظيم للدين

المسيحي أكثر مما يبدينه للسلطان نفسه ، وعندما علمن بأني سأذهب إلى القدس الشريفة (El Khods El Sherifa) كما نطلق عليها يقلن لي : "هانيالك يا حاجة" (Haniah leki ya hajiah) "جنابهي سعيدة" (jenabhi saidah) ، اذكرينا في دعائك (Ezkerina fi daaki).

بعد أن تمت الممارسات الاعتيادية لغسل اليدين باللكن (Lackan) تم تقديم القهوة والشربت والنركيلة والعطور ، بقيت أتحدث مع صديقتي ، ثم قدم الغذاء وكان فخمًا جدًا بحيث يصعب وصفه ، ولم أرَ ما يضاهيه أبدًا ، عدد العبيد الذين يخدموننا لا حصر له إلى درجة كان الواحد منهم يتعثر بالآخر.

أرسلت رسولاً أخبر مضيفي العنحوري بأنني سأبقى في بيت الأغا وبقيت أقضي أمتع الأوقات ، بعد الظهر صعدنا للسطح الذي يطل على بساتين الفواكه والتي تمتد إلى ثلاثين ميلا حول المدينة ، وأن جمال الطبيعة لا يضاهيه أي جمال حيث تشاهد قباب الجوامع والمنائر وألوان البلاط الملمع والمصقول بألوان ذهبية براقة أخاذة والقبب الهائلة وسلسلة جبال لبنان وبردى الكريم يروي بسخاء هذه المدينة النبيلة.

بعد فترة بقية النساء تركن السطح ، إلا أني بقيت أشخص بنظري للتمتع بهذه المناظر الساحرة لا يشاركني سوى صديقتي، أبلغونا بأن الحلويات قد هيئت لنا ، ولكنني طلبت من صديقتي أن نبقى حيث نحن ما دامت السماء مضيئة، وما إن بدأ يحل الظلام حتى اتخذت خواطرنا منحىً دينيًا ، أو استولى علينا

شعور بالتقوى، وهنا أخذت صديقتي تتحسر لأنها أجبرت على تغيير دينها، وتطلب مني المساعدة على الهرب من هذه الحياة، ولكنني أحاول إقناعها باستحالة ذلك، وأذكرها بالعز الذي تتمتع فيه، والمخاطر التي ستحف بها لو ألقي القبض عليها، فإن الموت عقابها، وتصر الصديقة على رأيها وتلح في طلب المساعدة.

ثم نلتحق بالبقية وتستمر المسامرة مع بقية النساء، ويأتي الأغا بنفسه مع والده، وحينها وضعت النساء الطرحة (turha) على وجوههن، تغطي كل وجوههن ما عدا العيون، وابتدأت ألعاب التسلية، ومنها ما يسمى الفنجان (fangan) إذ يخبئون خاتمًا تحت أحد الفناجين وتعصب عينًا أحد المشاركين، وعلى اللاعب إيجاد الفنجان الذي يخفي الخاتم، ثم لعبنا الشطرنج... وفي الساعة الحادية عشرة ذهبت إلى غرفتي للنوم.

بعد ذهاب الأغا لحقتني صديقتي وأخبرتني بقرارها النهائي في الفرار، وكانت مصممة، وتقدر الخطورة التامة لخطوتها هذه، وهي تفضل الموت لو قبض عليها على أن تبقى مع الأغا الغني وتعيش حياة لا ترغبها، وكانت تعرف بأنني سأذهب قريبًا إلى لبنان وأرادت أن آخذها معي، ولكنني بينت لها خطورة هذا الأمر، وخاصة وأن الأغا يتمتع بقوة هائلة، وبعد نقاش وأخذ وردّ اقتنعتُ بكلام صديقتي زوجة الأغا وقررت مساعدتها.

سرنا سوية متجهتين إلى الصالة حيث صديقتي - على عادتها - تقضي أغلب أوقاتها هناك، ولحسن الحظ لم نجد أحدًا هناك،

وكنا نفكر بخطة الهرب ، هنا في الصالة توجد أفضل أنواع الأراكيل مرصوفة قرب الجدار ، وكلها من أجمل ما أنتجه المهرة من الصناع والحرفيين ، وتقرر صديقتي إهدائي أغلى وأجمل واحدة منها وهي هدية كان قد قدمها لها الأغا ، المبسم من الفضة المطعمة بأغلى أنواع الأحجار الكريمة ، ولكنني رفضت قبول الهدية.

ونحن نتجادل حول هذا الموضع دخل الأغا متسائلاً عن فحوى نقاشنا ، وعندما علم بالموضوع وافق زوجته على منحي تلك الهدية الثمينة ، وأخيرًا وافقت على قبول الهدية الثمينة التي لا تقدر قيمتها الحقيقية ، ومن الصعب رفضها حتى أن حافظًا أو الفردوسي لم يكونا ليترفعا عن التمتع بمثل هذه الأركيلة التي كأنها أزهار من الشعر ، لذا قبلت الهدية.

أخذتني صديقتي لنزور قسم الحريم (الزنانا) وهو على نفس الفخامة مثل بقية أرجاء هذا البيت ، الغرف أكبر وأكثر بهاء ، القطيفة والحرير والمطرزات الذهبية تملأ المكان وفي كل اتجاه تنبئ عن غنى لا محدود ، الحدائق كانت تعادل نصف حجم ريجنت بارك ، ولكن النساء لم يكن سعيدات إذ أن راحة البال لا تشترى بالمال ، في قسم الحريم نجد أنواع الحمامات القمريات لإرسال الرسائل الكئيبة والتي تهدهد البال في شجن عذب ، كما ولا يعدم وجود الببغاوات الثرثارات اللواتي يبددن كآبة وشجن الشقراوات ساكنات الحرم.

تقرر زوجة الأغا أخذي معها إلى المسجد الكبير وأكدت لي بأن

لن يكتشفني أحد وستساعدني للتنكر بملابس مناسبة، رغم أن صديقتي زوجة رجل متنفذ جدًا إلا أن هذا لن يشفع لي لو شك بي أحد، إذ إنني أعلم لو كشف أمري بأنني مسيحية، اعتبر قد دنست الجامع فإن الموت عقوبتي، غير أنني وافقت على المخاطرة لأنني أريد الاطلاع على المراسيم والطقوس الدينية المتعبة.

تنكرت من رأسي إلى أخمص قدمي على الطريقة التركية، ودخلنا المكان الرهيب ويتضاعف رهبة بالنسبة للمسيحي، وصعدنا إلى الطابق الأعلى للشرفة وهو المكان المخصص للنساء، الرعية كانت قد تجمعت، الرجال في الطابق الأسفل حيث السجاد الفارسي يغطي الأرضية، والملا قد اعتلى المنبر وابتدأ بالخطبة. ولقد استغربت كثيرًا من الطريقة التي بها أخذ يشرح أسباب عدم شرعية أكل لحم الخنزير إذ قال: إن النبي نوحًا عندما بنى فلكه وقت الطوفان وأخذ من كل الأحياء زوجين لم يأخذ معه الخنزير، لأن الخنازير لم تكن قد خلقت حينها، فإنّ الخنازير تكونت نتيجة تجمع غائط الفيلة!

واستمر يقول إنّ فشل النبي محمد في أن يخرج الماء عند ضرب الصخرة، كما فعل موسى، كان بسبب أن الخنازير كانت قد لوثت المنطقة ما سبّب في نضوب الماء، وهكذا استمر في رواية هذه الحكايات.

ثم قام يؤم المصلين ووقف في الوسط والجميع خلفه وقال:

(La haoula wala kouta ila b Allah)

وأخذت جموع المصلين تردد صلواتها ، وعند الانتهاء من الصلاة يديرون وجوههم ناحية اليمين واليسار ويحيونهم بكلمة السلام. وكانوا يقرأون آيات من القرآن وهم يهزون رؤوسهم وجذوعهم، وهي عادة متبعة وتقليد يتبعه المسلمون.

النساء كن يصلين وهن في الشرفة، ولكنني لاحظت أن إحدى النساء كانت تحدق بي، وسمعتها تهمس لامرأة أخرى وتقول: (Ghiaour fi l jamaa) أعرف طلعتها فلقد رأيتها في الحمام.

وترد عليها الأخرى:

(Ente wraltana) أنت غلطانة.

إلا أن الأولى تؤكد وتقول:

(whdhaiat el nebbi ena maakeda) وحياة النبي أنني متأكدة.

تحدثت مع صديقتي بالأمر وطمأنتني وخرجنا من الجامع وقررت البقاء معها في بيتها، إذ هو آمن لي لو فضح الأمر، كما وأنني لم أكن أريد أن أسبب أي إحراج إلى مضيفي يوسف العنحوري لو كشف أمري وجاءوا يبحثون عني.

في بيت مضيفتي البغدادية، بقيت مختبئة في قسم الحريم بعيدة عن الأعين وحدث أن جاء القاضي لزيارتهم وشعرت بالخوف وحاولت الاختفاء بين عدة مفارش هندية كانت موضوعة في غرفة في الوقت الذي كان العبيد ينظفون الغرفة ولم يروني، وأخذوا يكومون بقية المفارش فوقي، وعندما تحركت تصوروا

أن هناك جنيًا وهربوا ، ولكن صديقتي جاءت تطمئنني بأن زيارة القاضي لا دخل لها بزيارتي للجامع وأنقذتني من الاختناق وأخرجتني من بين المفارش الثقيلة المكدسة فوقي ، وإلا لكنت اختنقت. ومرت الأيام ولم يحدث ما يقلق ، بعدها عدت إلى بيت يوسف العنحوري، وتحدثت مع مرافقي المطران عما سمعته من زوجة الأغا وخطة الهرب ، إلا أن المطران يرفض الفكرة تمامًا ولا يشجعني على الاستمرار بها ويصر على رأيه، إلا أنني لم أصب بالخيبة، واستمر في دعم صديقتي التي أزورها كل يوم ونحن نرسم الخطط للهرب. أخذت أتهيأ لسفرة لبنان ووضع الخطط لمساعدة صديقتي على الهرب ، تحدثت مع المطران مرة وأخرى ورفض الفكرة رفضا قاطعا لخطورتها، إلا أنني لم أحبط وقررت الاستمرار في تنفيذ خطة الهرب.

الجزء الثاني من الكتاب

الحياة في لبنان وأوربا

بعد أيام من مغامرتي تلك تركتُ دمشق برفقة المطران الذي رافقي في رحلاتي متجهين إلى زحلة. نصبنا خيمنا على سفح جبل يطل على المدينة حيث بقينا عشرة أيام، عند انقضائها نذهب إلى بعلبك، وصلنا بعد رحلة ممتعة عبر لبنان البلد الشامخ مارّين عبر أجمل ريف رومانسي، مكتنفًا جبال لبنان شرقًا ومطلاً على البحر غربًا.

أتذكر ونحن في طريقنا قابلت نساء يرتدين غطاءً للرأس مثيرًا ويلفت النظر، لم أرَ مثله أبدًا ، عبارة عن ترس لا يقل قطره عن اثنى عشر إنشًا من الفضة أو النحاس يربط من خلف الرأس، وقسم صغير منه إلى اليمين.

لم أرَ شيئًا أكثر تشويهًا منه على ما أتذكر. في البدء ما أن وقع نظري على هذه المجموعة حتى شعرت بالارتياع لأنني تصورتهم عصابة من قطاع الطرق، ولكن ما إن اقتربوا منا وقدموا لنا التحية المفعمة بروح الصداقة حتى عرفت أنهن مجموعة من النساء.

بعد أن زرنا بعلبك عدنا إلى زحلة، ثم تجهزنا بالمؤنة وتوجهنا إلى جبل لبنان، نصبنا خيمتنا بالقرب من أحد الأديرة حيث انضمت إليَّ زوجة الأغا متنكرة بملابس رجالية. وكانت قد أضحت سيدة نفسها ومصيرها، وُفِقت في الهروب من بيت الأغا في أحد الصباحات الباكرة، قبل انبثاق النهار، وعندما نجحت في الوصول إلى العراء، لم تستغرق وقتًا لتجد دليلاً مرافقًا لها، وخلالها أبدت شجاعة فائقة في مراوغة متبعيها

والباحثين عنها وتجنبت كل مخاطر الطريق. اغتبطت عند رؤيتي لها ولم أضيع وقتًا في تقديمها إلى رئيسة الراهبات التي كانت من أهالي ديار بكر، وهي صديقة ومن معارف عائلتي، كنت أراسلها منذ وقت طويل، قدمت لها زوجة الأغا على أنها واحدة من الأقارب، ولقد وعدتني الرئيسة بأن تقدم لها ما تستطيع من العناية وستمنحها حق الالتجاء الدائم للدير، خاصة بعد أن حدثت رئيسة الدير عن حكايتها المؤلمة والأخطار التي تكبدتها للعودة إلى حضن الإيمان الحقيقي.

إن مكان الدير له وقع ترحيبي خاص بالنسبة لمن يريد أن ينعزل تمامًا عن العالم، ويقف متوحدًا بعيدًا بأميال عديدة عن أي موقع سكاني. يجثم عاليًا على منحدر الجبل محاطًا بمناظر مجهمة وموحشة.

حدائق الدير واسعة تحتوي على كل الثمار التي تفي غرض الدير، وعلى الكثير من الينابيع المائية. تعيش في الدير خمسون راهبة ما عدا الرئيسة، بالإضافة إلى القس المسؤول عن الاعترافات، والعمال الأجراء الذين يسكنون خارج الدير. أغلب الراهبات كُنَّ من عوائل معروفة في بغداد والموصل وديار بكر وبلاد فارس، حيث لا توجد أديرة هناك.

بقيتُ يومين مع صديقتي، ثم تابعت سيري مع مرافقي إلى الأراضي المقدسة بعد أن وعدت صديقتي بالعودة بعد إنهاء جولتي وقضاء بقية الأيام معها، دفعتُ أجور بقائها في الدير وأوصيتها بالحذر كي لا يكشف مكمنها.

توجهنا غربًا نحو البحر في اليوم التالي، لا أستطيع أن أجد بلدًا يصعب استعمال الخيول فيه مثل لبنان، إذ إنه من الصعوبة على الجياد أن ترتكز على قوائمها وتثبت حوافرها لوعورة الأرض وصعوبتها ولكثرة الارتفاعات والانخفاضات التي تكثر في كل الدروب وعلى بعد خطوات معدودات.

وبعد مسيرة يوم وصلنا قرية صغيرة في قلب وادي الصليب (Wadi el Salip) والتي أعتقد بأنه كان من غير الممكن الوصول إليها لكثرة التعرجات والارتفاعات والانخفاضات التي جابهتنا والتي استغرقت منا ساعة، ما اضطرنا إلى الترجل والسير على الأقدام. وما أن وصلنا حتى تقدم منا أهل القرية الموارنة وهم يرحبون بنا، كل واحد منهم يتنافس مع الآخر لضيافتنا. وبعد لأي أخذنا إلى أحد البيوت الذي يعود إلى شيخ القرية والذي عاملنا وكأننا من أفراد عائلته، وغمرنا بكثير من الكرم والضيافة بالمأدبة التي أعدت لنا، ثم دخل الغرفة شاب وسيم، ببنية ضخمة وقوية، إلا أنها متناسقة، كان في الرابعة والعشرين من العمر، يرتدي الفروة (farwa...) مفصلة على الطريقة التركية من جلد الخروف مبطنة بقماش الستان الأحمر القرمزي، ومحلاة بحواشي الذهب وكان أنيقًا جدًا ، كما يبدو عليه الثبات والاحتمال بعدم البوح عن نخوته وشجاعته، سماته متمالكة، ولكنها لا تكف تنبئ عن غم، والدموع عالقة بين أحداقه. وجوده كان مثيرًا، ربما مصدر غبطة وأسى لعائلة الشيخ، عندما استفسرتُ عن الأمر أخبروني بأنه قبل وصولنا

بيوم واحد كان الشاب يرافق أخته التي ستزف في مدينة زحلة، وفي منتصف الطريق إلى زحلة وهما يجلسان على ضفة جدول في وادي الصليب (Wadi el Salip) يتناولان المرطبات والأطعمة، التي كانا قد جلباها معهما، وهما على وشك التهيؤ لمباشرة رحلتهم ظهرت لهم عصابة من المتولين (Motowlies) مؤلفة من عشرة رجال يترأسهم شيخهم، صعقوا لجمال الفتاة المخطوبة، توقف الشيخ وبدا له أن لا حول ولا قوة للشاب وأخته، وكان الشيخ مصرًّا على إرضاء شبقه فأمر أتباعه بخطفها وحملها عنوة. وهم على وشك تنفيذ أمر الشيخ، وجد الأخ بأن أخته سينتهك شرفها، وكان حينها مسلحًا، لم يجد بدًا من أن يطلق عليها عيارات من بندقيته ويقتلها، وهجم بغضبة الأسد على العصابة التي تفاجأت به يطلق عليهم عيارات نارية، ثم تولاهم بسيفه وخنجره كالمجنون، ولم يتوقع المتولية هذا الهجوم فأصيبوا بالذعر والخوف وقُتلوا كلهم. عاد الشاب بهذه الأخبار للقرية متحدثًا عن خسارته، مثخن الجراح والدماء تغطيه، من حينها وهو أسير الغم والحزن لفقدان وموت أخته الحبيبة على يده، وكان يتمنى لو مات هو ألف مرة على أن يؤذي شعرة من رأس أخته. ولكن تصرفه اعتبر من قبل مجتمعه وأصدقائه على أنه عمل يتصف بأعلى مستويات الفضيلة والبطولة. والفروة التي كان يلبسها قدمها له الشيخ هدية كعربون على الإعجاب والاحترام.

إن المحبة بين الإخوة والأخوات في هذه البقعة شيء رائع، ولا

توجد أي تضحية تعز عليهما الواحد تجاه الآخر. إن روح الغيرة والأنانية معدومة تمامًا بينهم. كلنا بكينا على مصير الفتاة التعيسة التي كان أمامها مستقبل مليء بالفرح للحظات قبل مقتلها.

وبعد أن تمتعنا بضيافة الشيخ خلدنا للراحة، وفي اليوم التالي شكرناه على حسن الضيافة والمعاملة الحسنة وتمنينا له الصحة والسعادة وتوجهنا عند طلوع النهار لنواصل رحلتنا.

كان أمامنا مسافة إلى أن نصل إلى قلب الوادي، كان الطريق وعرًا مملوءًا بكتل صخرية كبيرة ذات طبيعة يصعب معها ركوب الخيل، لذا ترجلنا وأخذنا نسير وخيولنا سيقت خلفنا، ما جعلني أفرح لهذا الأمر لأن فرسي كانت ثمينة جدًا.

بعد جهد وصلنا إلى مكان حيث جدول ماء، جلسنا نعد قهوتنا وأراكيلنا، بعد ذلك واصلنا سيرنا ركوبًا. طريقنا يتجه صعودًا بالجهة المقابلة للجهة التي نزلنا منها سابقًا ، الطريق أشد وعورة وصعوبة من الطريق السابق، ويبدو أنه من الصعوبة لأي مخلوق ما عدا الزواحف والذباب أن يتواجد على هذا الطريق والذي يرتفع إلى الأعالي من الوادي بشكل عامودي كجدار عال، هكذا سرنا نتعثر ونترنح نعرض رقابنا لخطر عظيم بكل خطوة نخطوها، إلى أن وصلنا إلى صخرة عالية جدًا تعثّر فيها حصاني وسقطنا سوية لعدة أمتار أسفل الطريق، أصيب الحصان بجروح بالغة وأصبت أنا بكسر في ذراعي الأيسر من المرفق وكان من المتعذر إنقاذ الحصان.

علم مرافقي بمصيبتي ، هرع لمساعدتي ووجدني في حالة ميئوسة تمامًا ، ما اضطره إلى حملي وسار بدون أن يضيع الوقت إلى أقرب قرية ، ولعدم وجود جراح متخصص بقيت أعاني من آلام الكسر الشديدة بدون وجود أي طريقة لتخفيفها ، ما جعل مرافقي يضمد الكسر حسب معرفته ومهارته ، ونتيجة لذلك بقيت أعاني من الأوجاع المبرحة وشديدة العذاب والآلام الشديدة. واصلنا سيرنا لمسيرة ثلاثة أيام بدون حدوث أي حادثة تستحق الذكر ، وصلنا إلى دير على قمة جبل إلى الجهة الغربية من سلسلة جبال لبنان محاط بأربعة جبال كل واحد منهم أعلى من قمة الجبل الذي يقع عليه الدير ، الدير كان يعود إلى رعية القديس أنطوان ، هنا قررت البقاء فترة قصيرة لأجل أن أتعافى قبل مواصلة الرحلة.

في وقت وصولنا كان هناك ستون راهبة في الدير ، من اللواتي كن يعملن في تربية دود القز وإنتاج الحرير الذي كان يدر على الدير مردودًا اقتصاديًا جيدًا ، ومثل ذلك الدير الذي تركته قبل فترة قصيرة كان لهذا الدير حديقة كبيرة جدًا مزروعة بالخضروات بجميع أصنافها مثل البامية (bahmia) التي أعتبرها من أفضل الخضروات ، بالإضافة إلى أشجار البرتقال والليمون والرمان والعنب والتين والخوخ وأنواع أخرى من الفواكه ، سفح الجبل المقابل للدير مزروع بغابة كثيفة من أشجار التوت وذلك لتربية دود القز ، ومن الممكن مشاهدتها من الدير ، وتبدو الأشجار وكأنها خطوط من سلسلة داكنة ، إن سفح جبل

الدير أيضًا مزروع بأشجار التوت.

الجو رائع خلال بقائنا لمدة عشرين يومًا وقيل لي إنهم يتمتعون بمثل هذا الجو الرائع دومًا.

كثير من الأعمال الفنية تجدها تُنتج هنا ، ولكن إنتاجها كان للضرورة وليس كمادة رفاهية ، إنتاج المواد الفنية ما يشغل الراهبات ومن هذا إنتاج الحرير ، إنهن يذهبن كل يوم إلى سفح الوادي لالتقاط أوراق التوت التي تتغذى عليها ديدان القز ، والتي تشغل حوالي سبع إلى ثماني غرف كبيرة، بالإضافة إلى أعداد من غرف أخرى صغيرة.

الدير يحتوى على كنيسة واسعة وعلى مطعم مضيء وعلى صالة للتمارين الرياضية والتسلية.

وجدت هذه الجمعية مقبولة جدًا ووضعهم مبعث للرضى والبهجة ، فكرت بشكل جاد بأن أعرض على صديقتي التي تركتها ورائي في ذلك الدير بأن نجعل من هذا الدير مقرّنًا ومستقرنًا ، كنت أتوقع اتصالاً يوميًا بها ، إذ إنني كنت أتوجس أن يكتشف مكمنها ، ولم أشأ تصور النتائج بدون أن يعتريني الهلع والرعب ، ولكنني تسلمت منها رسائل قبل مغادرتي تؤكد لي أنها بخير ، وبهذا شعرت بالاطمئنان الذي يفوق الوصف.

طريقة الحياة الحالية تتماشى وتتطابق بشكل يدعو إلى الإعجاب مع ذوقي ونزعتي، كنا نذهب للصلاة سبع مرات باليوم، وكنت باستمرار أبقى لساعتين مع اثنين أو ثلاثة من الراهبات نترنم

بالمزامير والتراتيل، تحمسي عاد إليَّ قويًا وذهني لم يتشوش بالهموم الدنيوية التي تتعدى التأثيرات الخارجية والمقترنة بالسفر.

في ليلة كان فيها القمر بدرًا منيرًا مشيت بعد صلوات منتصف الليل لأتمتع ببرودة الليل وأن أتلذذ ببعض التأملات التي كنت أميل لها، مشيت في حقل ملتصق بالدير وكان يفصله عن الوادي حائط صغير، الوادي كان غارقًا في الظلام الدامس. ضعت في سرحان لذيذ، واصلت مسيري أتأمل وأنا في حالة من الحلم لا اليقظة، أتأمل في سفرتي المستقبلية للأراضي المقدسة، ولم أجد نفسي إلا وأنا قُرب الحائط، انحنيت عليه وأنا أتطلع عبر الظلام الحالك بشيء من الفضول لأرى إن كنت أميز أي شيء على سفح الجبل، كل شيء كان أسود خاليًا تمامًا ولا أثر لشيء تميزه العين.

بقيت واقفة لبضع دقائق أنظر إلى الهوة السحيقة التي لا تقاس، ذكرتني بالأبدية، حينها خيل لي بأنني سمعت صوتًا، كان هناك شيء يزحف في الحشائش في الجهة الثانية من الجدار، ولكنني عزوتها إلى مخيلتي، عدت وبدأت أسمع بوضوح خشخشة أو حفيفًا في الحشائش، وجدت عينين تحدقان بي وكأنهما كرتان من نار، فكرت بأنهما قد تعودان إلى نمر، هربت جزعة، وحينها سمعت عواء كأنه بكاء طفل، وبسرعة قفز الحيوان من الحائط وتبعني. وجدت أنه من المحال الهروب لأنني سمعت وقع الأقدام يزداد قربا، ولكوني شجاعة بالغريزة استدرت

وواجهت الحيوان الذي يتبعني ووجدته أنه واوي (..wawiia..)

هون من جزعي معرفتي بأن الحيوان كان واوي، وضعت ثقتي بالله وقمت بمحاولة يائسة لمسك الحيوان من حنجرته ، في اللحظة التي كان فيها سيهجم علي ، واستجمعت كل القوة التي أملكها لأجل جر الحيوان المهاجم نحو الحائط ، نجحت في تكرار لطمه بالحائط ، إلى أن وجدت أن مقاومته قد خارت وأمست واهية ، رميته من فوق المنحدر الصخري ، على عجل عدت إلى الدير وأسرعت إلى غرفتي جثمت على ركبتي وشكرت الله العلي على أدائي الرائع.

غداة اليوم التالي رويت للراهبات مغامرتي وهنأنني على سلامتي ، ذهبن للبحث عن جثة الحيوان وبعد البحث وجدنها في حفرة أسفل الوادي مقطعة تقريبًا نتيجة ارتطامها بالحواف الحادة للصخور ، بعد أن تأكدن من مصداقية قصتي أطلقن علي لقب البطلة.

لا شيء أكثر خشونة ولا شيء أكثر رتابة من حياة هؤلاء الناسكات اللواتي ابتعدن عن الدنيا بكل زهوها واهتماماتها ، وقدمن أرواحهن كاملة للتعبد لخالقهن ، غير مباليات بكل المتع الأرضية ، تبدو عواطفهن كأنها قد فنيت في داخلهن ، وأنهن يعشن على الروح فقط ، ملابسهن مصنوعة من الصوف ولا يسمح مطلقا بلبس الكتان إلا للمريضات والعاجزات ، ملابسهن الداخلية من صوف ثخين بسيط متواضع الصنعة ، ملابسهن الخارجية من صوف غليظ خشن الحبكة ، حول وسطهن حبل

للأمام تتدلى منه مسبحة الوردية. يرتدين على رأسهن ما يشبه العباءة السميكة، سوداء كبقية ملابسهن، ينتعلن صنادل متينة الصُنع مصنوعة من جلد الماعز، مخاط بخيوط مبرومة من الغزل، والصنادل مصنوعة لتناسب مشيتهن على الممرات الصلبة. على صدورهن يرتدين الصلبان وشعرهن محلوق تمامًا وكل أسبوعين تتولى مهنة حلاقة رؤوسهن واحدة أو أكثر من الراهبات، وليس هناك من دليل أقوى من حلاقة شعرهن يستطيع الإنسان أن يتصوره برهانا على عدم اهتمامهن بالحياة الدنيا. وهل هناك للمرأة شيء أعز من شعرها؟

في منتصف الليل يُقرع الناقوس إيذانًا بالصلاة، من أول رنة ينهضن إذ إنهن ينمن وهن مرتديات ملابسهن، كل أخت تترك صومعتها وتتوجه نحو الكنيسة، وبعد دقائق معدودات يتجمعن كلهن وتبدأ الطقوس.

يتحلقن حول رئيستهن والتي تترنم بالمدائح بصوت عال وحزين كل مقطع يردد من قبل مجموعة الراهبات، وصوتهن مليء بحرارة وعاطفة صادقة وخشوع ما يوقظ صدى الجبال المحيطة بالدير.

هذا الجزء من الطقوس يستمر لمدة ساعتين، خلالها تقرأ الرئيسة مقاطع من العهد القديم والجديد، وما تنتهي الطقوس حتى تعود كل راهبة إلى حجرتها في صمت تام وبدون مبادلة الأحاديث حتى ولا كلمة واحدة مع الأخريات، وبعض الراهبات اللواتي لهن طاقة قصوى على الاحتمال تفوق زميلاتهن يبقين

حتى انبثاق النهار جاثيات على ركبهن وهن ممتلئات بنشوى الإيمان.

ومرة أخرى صباحًا يقرع الناقوس، داعيًا الراهبات إلى الصلاة وتُقام نفس المراسيم. في صلاة الصباح الرئيسة توعظ الراهبات بنص معتمد من الإنجيل لمدة خمس أو ستة دقائق، بعدها تجثم الراهبات على ركبهن ويصلين بصمت لمدة ساعة، وعندما تدق الرئيسة بصليبها على منضدتها إشارة لبدء ترتيل المزامير، حينها تقوم كل واحدة من الراهبات تباعا لتتبوأ المنبر (...karaia...) وتتلو المزامير والبقية يرددن ما قرأت، يقرأن عادة ثلاثة أو أربعة مزامير وعددًا من الترانيم الدينية، بعدها يبدأ القداس، راهب كبير السن يبدأ بتقديم القداس من خلف حاجز مشبك يعزله عن الراهبات. أما أيام الآحاد والاحتفالات فيقام قداس كبير، الراهبات يدلين باعترافاتهن أسبوعيًا ويتلقين التناول الرباني مرة واحدة في اليوم.

لا تقدم وجبة الفطور، وبعد انتهاء القداس كل راهبة تذهب لأداء واجبها، ومنهن من يشرفن على المبتدئات، والأخريات لتعليم القراءة والكتابة أو يشرفن على تعلم الغناء والأشغال اليدوية والتطريز مثل شغل الإبرة ولخياطة ملابس الراهبات، والبعض للقيام بالأعمال المنزلية أو الإشراف على إنتاج الحرير وللإشراف على نظافة الكنيسة، بالاختصار لا مكان للكسل والتراخي، تتحول اللحظات وتستثمر لإنتاج أعمال مفيدة.

في الساعة الحادية عشرة يقرع الناقوس لإعلان وقت الظهيرة،

والتي تستمر إلى الثانية عشرة والنصف ، خلالها تتجمع الراهبات في قاعة الطعام ماعدا اللواتي يمارسن أفعال التوبة جراء غضبهن تجاه بقية الأخوات أو كسلهن أو لعدم طاعتهن الأوامر أو لعدم انتباههن، إذ إنهن يبقين راكعات قرب باب قاعة الطعام وأذرعهن ممتدة تأخذ شكل الصليب ويتضرعن لزميلاتهن للصلاة ليغفر لهم الله خطاياهن ، وأن يهبهن قوة التحمل لمواصلة ندمهن ولتجنب الوقوع في نفس التجربة في المستقبل.

اثنتان من الراهبات القويات تتقدمان وهما تحملان قِدرًا كبيرًا جدًا يحتوى وجبتهن المكونة من الخضار المطبوخة مثل البازلاء والعدس مع الزيت. وفي نظري أنها لذيذة جدًا ، راهبتان أخريان تفرغان الوجبة في صحون من الفخار الخشن الفج الصنعة، وتوضع على مائدة بلا مناديل ولا غطاء. خلالها تقوم راهبة وتصعد المنبر لتقرأ قصصًا من حياة القديسين محفزة الراهبات لتتبع نماذج من حياة التقوى التي تحكي لهن.

بالإضافة إلى صحن من الخضار المطبوخة ، كل راهبة لها رغيف من الخبز وإبريق ماء بفتحة صغيرة، كدت أغص وأنا أحاول أن أشرب بالطريقة التي يشربن بها الماء ، وجدت الراهبات حاذقات ولبقات في كيفية شرب الماء من فتحة الإبريق الضيقة، وأعتقد بأنها قد صممت بهذا الشكل كنوع من الاقتصاد وعدم الابتذال في استعمال الموارد الطبيعة.

يحملن الإبريق بارتفاع ستة إنشات عن رؤوسهن ويدعن الماء

ينزل إلى بلعومهن بيسر ويشربن بهذه الطريقة [1]

توضع على المائدة كمية وفيرة ومتنوعة من الفواكه اللذيذة ، الوجبة بأكلمها تستغرق ساعة واحدة، يتم تناول الطعام بسكون وصمت تامين ما عدا الوعظ الذي أشرت إليه.

بعد الغذاء يسمح للراهبات بالذهاب إلى الحديقة للتمتع بالأحاديث لمدة ساعة إلى ساعتين ، ومن عادتهن أن يقدمن التمثيليات مقتبسة من المواضيع المقدسة.

من النادر أن تُزار الراهبات من قبل أهلهن أو أصدقائهن وإذا ما سمح لهن فإنهن يلتقين بهم من خلف الحاجز الحديدي المشبك.

عندما كنت في هذا الدير شهدت حادثة بها بعض العنف إذ أن فتاة درزية جميلة، كان مولعًا بها شيخ من الطائفة الدرزية كانت قد التحقت بالدير وتنصرت، إن الشيخ كان يؤمل نفسه بالزواج منها ولكنه غضب غضبا شديدا عندما علم بما أقدمت عليه، أقنع أهلها وأصدقاءها بطلب مقابلة الفتاة المولع بها والمعتكفة في الدير لغرض الحديث معها. وصل الشيخ إلى الدير مع بعض من فرسان قبيلته، ترجل عن فرسه الذي تركه مع أصدقائه ، وبكامل أسلحته دخل إلى الدير في المكان المعد لمثل هذه المقابلات من خلال الحاجز الحديدي المشبك، وما إن ظهرت الجميلة الدرزية من خلف الحاجز الحديدى المشبك حتى أخذ

(١) طريقة شرب الماء المتعارف عليها إلى هذا اليوم في لبنان وسوريا.

الشيخ يقنعها بترك الدير بلهجة فيها الاحتجاج والإقناع مجادلاً بكل طريقة وحتى هدد بتدمير الدير والقيام بمذبحة، وعندما وجد أن تهديداته لا جدوى منها أدخل فوهة بندقيته من خلال الحاجز الحديدي المشبك وأطلق طلقة نارية على الراهبة، ولكنها تجنبتها بسرعة، إلا أن الطلقة نفذت في الجدار المقابل حيث كانت تقف الراهبة، ولكنه بسرعة ترك الدير والتحق بجماعته.

في أيام الجُمع كل راهبة حسبما يفرض عليها ضميرها ومدى قوة تحملها تأخذ بالتكفير عن خطاياها بضرب جسدها "بقوة أو بقليل من الشدة"، وذلك باستعمال حبل به الكثير من العقد، هذا الطقس يمارس في غرفة مظلمة مهيأة خصيصًا لهذا الغرض، والمخطئة ترتل المزمور الحادي والخمسين ثلاث مرات خلال الكفارة، كما عرفت بأن بعض الراهبات يضعن إكليلاً من الشوك حول خصرهن العاري ما يجعلهن ينزفن دمًا.

على قمة أحد الجبال المرتفعة حيث تحتضن أحد الأديرة، وباتجاه البحر يوجد هناك أرض مربعة معبدة تسمى الجلجلة (El jaljala.) للدلالة على مكان صلب المسيح، حيث يرتفع صليب خشبي كبير، وكما أعتقد فإنها تشتمل على مساحة خمسة أو أربعة فدادين (الفدان أربعة أو خمسة آلاف متر) إلى هناك تسير الراهبات في رحلة حج كل يوم أحد، وتعتبر بالنسبة لهن رحلة تسلية ومتعة، وكل واحدة تسعى للوصول قبل الأخريات لتصل إلى المنصة، ويبدنّ وهنّ في ملابسهن الكهنوتية الحالكة

كالعقبان على الصخور الصلبة العامودية لسفح الجبل.

هذه السفرة لا تخلو من المخاطر، إذ قيل لي بأن إحدى الراهبات المسنات (إذ جرت العادة أن الراهبات المسنات والشابات يقمن بهذه الرحلة) فقدت السيطرة على موقع قدميها، وقبل أن تستطيع مرافقتها الشابة أن تعينها تدحرجت إلى قاع الوادي، وكل من شاهد الحدث تقدم من حافة الجبل محاولاً مساعدة الراهبة، لربما هناك حظ لإسعافها، لكن شعلة الحياة فيها كانت قد خمدت ولم تبقَ إلا الجثة.

كم من المرات في سنيّ عمري اللاحقة وروحي قد تلبدت بالعذاب وجسدي عانى من المشقات وبدون رفقة أي صديق لتجاذب الحديث، ولو مبادلة كلمة واحدة للتخفيف عن نفسي المصابة، كنت أجد السكينة في استرجاع ذكرى هذه المناظر المبهجة التي كنت أحتفظ بها في ذاكرتي لهذا الجبل المقدس، في سلسلة جبال لبنان العظيمة تثقب السماء بقممها الشاهقة والصلبة، وفي الجهة المقابلة البحر الواسع الرحب تطفو على سطحه أشرعة بيضاء تلتمع على السطح الأزرق كنجمات تشع ساطعة في قبة السماء، لا حدود لها ولا نهاية أيضًا وجزيرة قبرص تبدو هادئة بعمق وضاوية في أجواء سوريا بعيدًا في البحر ولكن يمكن رؤيتها وهي تشرئب برأسها.

كنت محاطة بهذه الطبيعة الجميلة، متمتعة بالهواء العذب الذي يهبُّ منقوعة نسماته بآلاف الروائح الحلوة، حواسي تتآلف مع صلوات تشير إليها أصوات مئات النواقيس الرخيمة البعيدة

والتي تدعو المؤمنين للصلاة، والقادمة من الأبراج العالية لتلك الأديرة، حينها غالبًا ما كنت أخرّ على ركبتي وأنا مفعمة بنشوة دينية ودموع البهجة تنهمر من مقلتي.

في رحلة حج الراهبات إلى هذا الجبل تجلب الراهبات معهن زوادات يقتتن بها ، وتكون عادة من الفواكه والقهوة التي يتناولنها بعد أن يمارسن طقوس عبادتهن ، على بعد بضع خطوات من الدير وبنفس العلو ، هناك بناية منفصلة مخصصة ليسكنها الغرباء ، يسكن فيها الراهب المعرّف الذي يبلغ الثمانين من العمر ، وبقية الشغيلة الذين يعتنون بالحدائق ، وكذلك المطران الذي صحبني ومرافقوه من بغداد.

ليس بعيدًا عن هذه البناية تقع حظائر الحيوانات التي تعود ملكيتها إلى الدير ، وتحتوى على الأبقار والبغال والحمير ، أعتقد بأنني لم أرَ دواجن بهذه الكمية، إذ لا يقل عددهن عن الخمسمائة دجاجة ، وما كان يثير عجبي هو أن الدجاجات يهرعن إلى حظائرهن عند أول سماعهن لصلاة السلام لك يا مريم بنفس النظام الذي يتبعنه الراهبات.

مما لا شك فيه أن إيماني المسيحي الخالص والمتفاني والجدي كان سبب سروري بالأشياء حسبما تبدو ، وأن الطبيعة البشرية خيرة ، ولو أن هذا توجه عاطفي ، خلال التجارب المرة كنت حينها أتصرف وفق حسي الشرقي ، وأعزو الرزايا إلى الباري الحكيم ، ولم أستطع أن أحس نحو سبب مصائبي بالغضب أو الاستياء أو الكره بل اعتبرت كل ذلك مجرد أداة بيد الخالق

الحكيم. ولم أشكّ بوجود تصرف قد يكون منافقًا ولم أخشَ الاحتيال أو حب الذات والقلوب العديمة الرحمة أو إهمال الأصدقاء أو زيفًا أو خبثًا، كل هذه بالنسبة لي لم تكن من ضمن خصائل الجنس البشري.

يا ويلاه من أحلام اليقظة هذه بأن الجنس البشري كامل الخلق قد تلاشت من فترة طويلة، الآن أصبحت أشك بتصرف الإنسان الفاني، في حين سابقًا كنت سريعة التصديق وأكنّ الاحترام، والله يعلم أن لتغيري أسبابًا.

منحت الحب وقوبلت بالنفور، ومنحت الثقة العمياء وقوبلت بالخديعة، احتقرت في شدتي وأيام نحسي من قبل هؤلاء الذين تملقوا لي في وقت رخائي، أُهنت، رفضت، هجرت، ازدريت من قبل الأكثرية إلا الأقلية، الذين يبدو أنهم ولدوا ليساندوا من هم من عنصرهم والذين سوف يقولون لي لقد تحولت من الوفرة إلى العدم بسبب شرور ومكائد زملائي في البشرية الفانية والذين عرفوا الإهانة المرة للمحتاج، في أيامي السعيدة كنت أمنح لمن هو أقل حظًا مني ("حينما جذوري كانت قد تفتحت قرب المياه، والندى بقي ملازمًا محاصيلي") مَن الآن يستطيع أن يقول لي إن الجنس البشري هو كامل الخصال؟

كيف لقلبي أن يعتمر بملابس الثقة البيضاء وأن كل شيء ليس مزيفًا أو باطلاً ؟ ابن الاسلام يقارع عدوه بالسيف ولكن المسيحي العديم الإيمان يجرح أخاه في الدين بلسانه وبكلماته المسمومة "إنهم يحدون ألسنتهم لتصبح مثل الأفاعي وأن سموم

الصل في شفاههم" كم مثل هؤلاء قد عرفت ، بِكَم من مثل هؤلاء قد وثقت من الذين يحملون الكتاب المقدس بيد وكلمة الله الحق على لسانهم ولكن في قلوبهم يعبدون المال؟!

العالم ينضوي على الخداع والزيف والجور ، أيعرفون أن غضب الله ينحجب بسبب هؤلاء القلة من الأتقياء، الذين رفضوا الدنيا وزهوها، وهم في منعزلهم في جبالهم المتوحدة، لم يتوانوا عن منح صلواتهم لصاحب عرش المجد مساعدة منهم لأشقائهم الفانين؟

بشعور مفعم بالأسف والأسى أخذت بالاستعداد لمغادرة الدير ، ومفارقة هؤلاء اللواتي اكتسبن محبتي لأنهن يتمتعن بالصبر والمثابرة ويعشن حياة منعزلة، إذ كان في نيتي أن أزور أديرة أخرى كثيرة منتشرة على سفوح جبل لبنان، لذا لم أستطع أن أطيل من إقامتي هنا ولعدة أسباب ، منها أن المطران الذي يرافقني يريد أن يذهب إلى بيروت كان عليه أولاً أن يشتري مهرة جديدة عوضًا عن المهرة الأصيلة التي كان قد جلبها معه من بغداد وقضت عليها الذئاب الضارية، لذا كان مهتمًا بالسفر إلى هناك لأجل أن يعوض مهرته بأخرى ، كما وأنه قد تسلم رسالة من أخيه وهو تاجر مجوهرات شهير(..jouahrchi) يعلمه بأنه قد وصل من الهند حيث كان في سفرة تجارية ويطلب منه ألا يضيع الوقت للالتحاق به.

رئيسة الدير أعطتني رسالة توصية إلى إحدى الأميرات الشهابيات وهي قريبة بعيدة للأمير بشير ، ولقد شكرتها على

ذلك، الأميرة تسكن قصرا أنيقا ليس بعيدًا عن بيروت على جبل يسمى شملان (shimlan) ويشكل مرتفعًا وعرًا بالقرب من بيروت، بيت الأميرة يبعد مسافة ثلاث أو أربع ساعات ركوبًا عن الدير. بدأنا رحلتنا الساعة الثامنة صباحًا في شهر أيار، أي في جو حار كان يجب علينا أن نبدأ بوقت أبكر لتجنب الحر.

وصلنا ظُهرًا قصر الأميرة حيدر(Haidr) وجدت أنه من الأفضل لي أن أتمتع بفيء المكان. كانت الأميرة قد علمت بقرب وصولنا، كان هناك بعضٌ من حاشيتها بانتظار وصولنا، وما إن ترجلنا عن خيولنا حتى اصطحبنا إلى غرفة الضيوف حيث كانت الأميرة بانتظارنا، قدمت لها رسالة التوصية وعلمت بسوء طالعي وأكدت لي بأن بيتها سيكون بمثابة بيتي، وبعد تبادل عبارات المجاملة قدمت لنا المثلجات والمباخر المملوءة بروائح بخور عطرة التي عطرت الغرفة.

ما جلب انتباهي وأثار دهشتي هو ظهور الأمير، كان رجلاً كبير السن يبدو في السبعين من العمر، كما أن لحيته البيضاء الطويلة والتي تصل إلى حزامه، وبنيته النحيفة تنبئ عن عمر تجاوز الستين، ولكن خطواته كانت ثابتة وقامته مستقيمة كالشباب، عيناه تلتمعان وتشعان بالجود، بشرته الصافية وخدوده الوردية تنبئ عن روح مرحة وصحة جيدة، كلاهما هو وزوجته كانا يرتديان ملابس أنيقة وثمينة وتتماشى مع مكانتهما النبيلة ومع قصرهما، الأميرة كانت أكبر ببضعة أعوام من زوجها ولم يكن لديهما سوى ابنة واحدة متزوجة من أمير ثري.

قبل خلودي للراحة صعدت إلى السطح للتمتع بالمناظر الخلابة، كما أخبروني، ولم يخب ظني إذ لم أجد مناظر ساحرة أكثر مما رأيت، المنظر يطل على البحر من جهة الشمال الغربي حيث سلسلة من الجبال تمتد ستين فرسخا من مضيق صيدا إلى جنوب موقعي حيث أقف إلى مضيق (Ziaret..........) قرب اللاذقية، ترتفع عموديًا من البحر ومزدحمة بالأديرة بجدرانها البيضاء وقببها الزرقاء تبدو عصية على كل المخلوقات إلا الصقور، التي تحلق وتحوم على شكل حلقات وتبدو وكأنها لا تحرك أجنحتها، ومن منعطف آخر بدأ الجبل بالانخفاض والتسطح بشكل فجائي إلى أن يشكل المرفأ، وفي الأسفل تقع مدينة بيروت بمنائر جوامعها المرتفعة والتي تشكل خط طلل يتضاد مع السماء الصافية.

ما بين مدينة بيروت وجبل شملان أقيمت سلالم مدعومة بجدران وبالقرب منها تنمو غابة لأشجار الزيتون والتوت، هنا وهناك حول المدينة سطوح بيضاء لبيوت تنبعث من بين أشجار الليمون والبرتقال وأشجار الصبار.

في اليوم التالي نزلنا إلى بيروت، أول ما اهتم به مرافقي هو الذهاب إلى سوق الخيول لشراء فرس، لم يضيع الوقت إذ ذهب إلى سوق الخيل (Sok al hail) حيث استطاع أن يشتري لنفسه مهرة بيضاء مولدة في حوران (Haouran) وأعتقد أنه دفع بها ما يعادل الخمسمائة فرنك.

ثم أخذ المطران يستفسر عن مكان وجود أخيه، فعلم أنه ما زال

على ظهر المركب الذي وصل من مصر واسمه مركب بايليك (Markab Beyleek) يرسو على بعد مسافة من المدينة ، وسرعان ما استأجرنا قاربًا وتوجهنا إلى المركب ، ولدهشتي وجدت المركب ، هذه الماكينة الكبيرة ، واسعًا جدًا كأنه قرية عائمة ، ملأت البهجة المطران وأخاه وهما يحتضنان بعضهما البعض ، بعد غياب طويل ، بعد تبادل التهاني والحديث عن بعض الأمور المالية والمعاملات التجارية وقفنا استعدادًا للعودة ولكن الجواهرجي لم يشأ أن يدعنا ننصرف وأصر على تناولنا العشاء في المركب... بقينا هناك إلى المغرب بعد أن تناولنا وجبة قُدمت لنا وفق التقاليد العربية.

عند عودتنا إلى شملان وجدت دعوة من زوجة نائب باشا عكا (Acre) لحضور حفلة في الحمام الرئيسي في بيروت بمناسبة قرب زفاف أختها الذي سيكون في اليوم الذي يلي الاحتفالات في الحمام... هذه الحفلات تشبه إلى حد كبير الحفلات الراقصة التي تقام في الدول الأوربية وتسمى (Grand Ball) ، ما عدا أنها هنا تستمر من الصباح حتى الغروب ، توزع الدعوات قبل خمسة عشر يومًا من الموعد ، والاستعدادات الضخمة تجري وبكلفة عالية عادة ، المدعوات يتجاوز عددهن الثلاثمائة أو الأربعمائة مدعوة. العروس تقضي هذا اليوم مع صديقاتها اللواتي يستمتعن بالاستحمام والرقص والغناء والأكل والشرب والتدخين، يحيي الحفل أيضًا راقصات ومغنيات محترفات. في جميع أنحاء الشرق الحمامات معروفة كمؤسسة رسمية عامة

تقع ضمن مسؤولية الدولة لغرض صيانتها ، وعادة تفتح في نصف النهار الأول للنساء والنصف الثاني للرجال. ولكن بالنسبة لهذا الاحتفال الذي أتحدث عنه صيف سنة ١٨٢٥ فإنه قد تم تأجير الحمام ليبقى تحت تصرف النساء من الساعة الثامنة صباحًا وإلى الساعة الرابعة بعد الظهر ، بعد ذلك سيبقى الحمام مفتوحًا للرجال فقط.

يؤجر الحراس للوقوف بباب الحمام لمنع دخول غير المدعوين، وبمناسبات مهمة مثل هذه فإن أحد الحمامات العامة يبقى مخصصًا لاستعمال العروس وصديقاتها طوال اليوم ويمنع دخول الغرباء.

الحمام الذي أقيمت فيه الحفلة على شرف العروس والتي تكنى (Sitti abourass) كان من أجمل ما رأيت ، وكالعادة كان مقسمًا إلى ثلاث حجرات : القسم الأول بنفس حرارة الجو الخارجي والقسم الثاني أدفأ ، هنا النساء ينزعن ملابسهن استعدادًا للاغتسال ، وهنا أيضًا توجد أماكن قريبة من الجدار معدة للاستلقاء حين تختار النساء ذلك خلال قضاء ساعاتهن في الحمام. القسم الثالث أكثر حرارة ، وفيه تتم عملية الاستحمام والاغتسال ، وهذه الحجرة هي من أروع ما رأيت ارتفاعها ٢٠ قدمًا وطولها خمسون وعرضها أربعون قدمًا ، السقف متكون من قباب صغيرة لا أقل من عشرين قبة كلها مزوقة ومزخرفة بزجاج ملون بكل الألوان ، والذي يعكس ألوانًا جذابة وجميلة على الأرض المرمرية ، الجدران مغلفة بزخارف الأرابيسك

(الرقش العربي) بتصميم حاذق وأنيق، حنفيات المياه مثبتة على الجدران تصب الماء الحار والبارد، وبالقرب من كل منها تقف الغسالة (warsal) وبجانبها مقعد منخفض لتحمم النساء.

وصلتُ الحمام الساعة الثانية بعد الظهر ، وجدت نفسي قد وصلت متأخرة وكنت أخر المدعوات والحشد كله قد وصل الساعة الثامنة صباحًا ، من ضمن المدعوات كانت هناك نساء على درجة كبيرة من الغنى ترافقهن على الأقل عشر عبدات وبعض البيضاوات من المرافقات، قسم منهن يقدمن المرطبات وقسم منهن مشغولات بنزع الملابس أو العكس لسيداتهن أو يستجبن لطلبات السيدات وفقًا لما تقتضيه المتعة أو الحاجة.

عندما دخلت الغرفة لم يكن هناك أقل من ثلاثمائة وخمسين امرأة ، وكلهن يبدو عليهن الانشراح قسم منهن يستحممن والأخريات يسترخين ويمطين أجسامهن وأطرافهن على المصاطب في الغرفة الثانية ، قسم منهن يأكلن الحلويات ويشربن القهوة ، والبعض الآخر يدخن الأراكيل ، أو يغنين ويرقصن، والأغلبية تتحادث وتتضاحك فيما بينها، في الحقيقة لم أرَ نساء بهذا المرح والانشراح ، قسم منهن يتزين بأغلى المجوهرات ويلبسن أفخر الملابس والأزر(Yzar) أو الحجاب المصنوع من الموسلين والأبيض مثل لون ريش اللقلق (luglug).

هل هناك تنعُّم أكثر من التمتع بالحمام؟ في الشرق إنه المكان الوحيد للنساء للاسترخاء ، تتلاقى فيه المرأة مع صديقاتها

ومعارفها هنا تبوح بأحزانها، وتشارك مسرتها بدون قيود مع صديقات حميمات إلى قلبها، وهنا هو المكان الوحيد الذي تكون فيه متحررة من غيرة وتجسس الرجل الذي يسودها، إذ تتوقف الغيرة والتجسس عند عتبة باب الحمام.

لنكن منصفين نحو التركي، فإنه غير مجرد من روحية المصلحة العامة، فعلى كل من تمتع بالحمام الشرقي أن يعترف بأن هذه المؤسسة حكومية ومجانية، ينفق عليها من المال العام، ولكنها تقبل التبرعات الطوعية ولا تتجاوز الفرنك الواحد، تقدم للغسالات، ولكن بالمقابل فإن المستحمات يزودن بالعصير والقهوة والأركيلة.

تركت الحمام الساعة السادسة مساء، عدت إلى شملان منهكة تمامًا وخلدت إلى غرفتي فورًا.

في اليوم التالي تلقينا دعوة من ابنة زوجة الأمير بشير، التي كانت تعيش مسافة ثلاثة جبال عن شملان. نحو الشمال، لأنها قد سمعت بأن سيدة من بغداد قد حلت ضيفة على الأميرة قريبتها، حالاً توجهت نحو قصرها، كانت في حوالي الستين من العمر، ولقد ترملت من فترة طويلة، إلا أنها خلال فترة ترملها فضلت الانعزال والوحدة وأحيانًا وخلال المناسبات تزور والديها.

كنا صباحًا على السطح نتمتع بالنسيم ونحتمي بخيمة حمايةً لأنفسنا من حرارة الشمس وفي الوقت نفسه نستطيع أن نتمتع بالمناظر لأن الخيمة مفتوحة من جميع الجهات إلا الجهة العليا

وهي خصيصًا مصنوعة لمثل هذه الظروف وكأنها مظلة كبيرة.

لاحظتُ وجود قافلة على قاعدة شملان تتقدم ببطء نحونا ، في المقدمة شاهدت سيدة يبدو عليها التقدم في السن تعتلي فرسًا شهباء ، مرتدية إزترًا أو حجابًا من الموسلين الأبيض واسعًا وكبيرًا جدًا بحيث أنه قد غطى الحصان وتقريبًا يصل إلى الأرض ، كما يبدو أنها سيدة ذات شأن وكانت تتقدم القافلة ، محاطة من جوانبها بثماني مساعدات، وكن مثلها متلفعات بأُزر واسعة بيضاء ، ونحن من بعيد نراهن وهن على سفح الجبل وكأنهن سرب من اللقالق ، أربع عبدات زنجيات يتبعنها ، وخلفهن عدد غير قليل من الخدم (hazmetkarian) يرتدون الملابس المتنوعة الألوان.

كانت الأميرة تقف بجانبي، عرفت أن الركب يعود إلى قريبتها ستي خدوج (Sitti Hadoach) ، وهي التي كانت في المقدمة والتي لاحظتها أنا سابقًا ، بقيت عيني شاخصة في الركب إلى أن وصلوا منعطفا في الجبل، عندها اتجهنا إلى غرفة الضيوف لنكون في استقبال الضيفة الذائعة الصيت.

لم ننتظر طويلاً حتى وصلت الضيفة، وبعد بضع دقائق اقتيدت إلى الغرفة التي نحن فيها بالانتظار ، احتضنت قريبتها ثم تم التعارف بيننا، وعند رفعها لحجابها وجدت بقايا جمال لا بد أنّه كان أخَّاذًا في شبابها، كانت ترتدي الملابس التقليدية للبلد وعلى رأسها ما يشبه القمع بارتفاع قدمين، من الذهب الخالص محلى بالأحجار الكريمة، كان عموديًا ومن قمته يتدلى إزارها بهيبة

بطيات على كتفيها.

سألتني كثيرًا عن موطني وتقاليدنا وأظهرت معرفة وثقافة واسعة ، وأبدت تعاطفا وتفهما للصورة التي نعامل بها نحن المسيحيين، والقهر والقسوة اللذين نعاني منهما في مسقط رأسنا وكيف أنها تختلف عن حال من يعيش في بلدها الذي تعيش فيه منذ طفولتها ، لم نستغرق وقتًا طويلاً حتى حدثتها عن تاريخ أحزاني وسوء طالعي ، أطلعتها على مشروعي بزيارة الأراضي المقدسة وأبديت لها رغبتي بالعودة بعد أن أنهي مهمتي الورعة، وكيف أنني أنوي أن أجد لي ملجأً في لبنان. حيث يسمح لي بأن أقضي بقية عمري بسلام وغير مبالية بالمتع الدنيوية، ولا يكدرني العقاب الأرضي وأن أكرِّس حياتي لخدمة خالقي.

تجاه هذه الأحاسيس أبدت الستي خدوج الكثير من التعاطف الحار ، وقالت إنها طواعية قد اختارت حياة العزلة منذ سنين طويلة وقالت إنه من الممكن الشعور بالرضى الحقيقي في حياة الزهد والانعزال أكثر من المتعة التي يمنحها العالم ، وقبل مغادرتها شملان أخذت مني وعدًا بأن أقضي اليوم التالي في بيتها ، وبطيب خاطر أعطيتها وعدي ، وافترقنا ونحن نعلن صداقتنا ومحبتنا المتبادلة، من جانبها وعدتني بأن تكتب رسالة إلى زوج والدتها الأمير بشير الشهابي حاكم لبنان تعرض عليه الاهتمام بي.

اليوم التالي وحسب الاتفاق قضيت اليوم في قصر ستي خدوج الذي يقع على جبل حسبما تذكر اسمه المنصورية (Mansouria) لا يبعد كثيرًا عن شملان.

القصر واسع وأنيق وتكثر فيه النافورات وكل مستلزمات الراحة والأساليب الصحية المتبعة في الشرق، حديقته روضة للمتعة، مع حظائر للماشية، سجية الأميرة متفتحة ومتحررة ومرحة وكريمة، بالقرب من مسكنها شيدت بناية ملحقة تأوي الغرباء، بغض النظر عن معتقداتهم وقومياتهم وأديانهم ولهم الحق بالمكوث والتمتع طوال مدة بقائهم.

كما بينت أنها ابنة زوجة الأمير بشير، من زواج سابق، ولقد توفيت والدتها منذ ثلاث سنين، الأميرة المرحومة كانت معروفة في شبابها بجمالها الخارق الذي بسببه لقبت ستي الشمس (EL sitti shams) كانت أكبر سنا من الأمير بشير الذي بقي مخلصا لها إلى آخر أيامها، كان زوجا محبا ولطيفا، جمعتهما رابطة روحية جعلتهما روحين في جسد من حيث الفضيلة والنبل خلال مدة الأربعين سنة التي قضياها في السراء والضراء.

ستي خدوج كانت بلا شك خير خلف لخير سلف، إذ إنها تقضي حياتها كلها بفعل الخير، في كل عمل من أعمالها تبدو مخافة الله وحب الجار، عاملتنا بمنتهى الكرم خلال بقائنا عندها واستمرت المدة خمسة أو ستة أيام.

ما أثار دهشتي طعم البيض الذي أكلناه على مائدتها، لم آكل

بيضًا بهذا الطعم اللذيذ أبدًا ، عندما سألتها عن سبب ذلك قالت بأنها تضع الدواجن في حظيرة واسعة جدًا ، وتطعمها الرز فقط ولهذا كان إنتاج هذا البيض من ألذ وأفضل الأنواع مقارنة بالأنواع الأخرى.

ستي خدوج لم تكن تحب النوم الا قليلاً ، كانت تسهر كثيرًا وهذا طبع غريب ولم تكن تستطيع النوم أكثر من ثلاث أو أربع ساعات طوال الليل، ولكي تمضي تلك الساعات بدون قراءة أو صلاة كانت قد استأجرت امرأة عربية تروي لها الحكايات (hakeya).

هذه الراوية كانت من أسرة نبيلة فقدت ثروتها وأصبحت معدمة ولكي تجنب نفسها المذلة تبنت فكرة رواية القصص وهي عادة مهنة للناس الأقل منزلة ، رغم أنها مهنة لا تعدم الموهبة والخيال بالإضافة إلى الذاكرة القوية.

فارقت الأميرة بمرارة واعدة إياها بزيارتها مرة ثانية بعد عودتي من القدس، أعطتني رسالة إلى الأمير عبد الله ابن (أخ-أخت) الأمير بشير الذي هو تحت إمرة (عمه-خاله) وهو أيضًا حاكم كسروان، التي سأمر بها في طريقي.

من المنصورية وبمرافقة المطران رفيق سفري توجهت مباشرة إلى (Razir.........) حيث إقامة الأمير عبد الله واستقبلت بالحرارة والكرم والضيافة المعهودة من عائلة الشهابي، أرسل معنا مرافقًا ليطلعنا على الأماكن التي تستحق أن تزار في المناطق المجاورة، زرنا دير حريصا (dier el harisa) ديرًا

يقع على قمة جبل يطل على البحر ومحاط بمناظر ذات طبيعة خلابة إن كانت على اليابسة أو في الماء، من على يميننا نظرنا إلى عمق الوادي حيث النباتات الكثيفة بمنظرها الأخاذ وتحيط بمزارع أشجار الزيتون والجدران مغطاة بأوراق كروم العنب.

على سواحل البحر تقع قرية النبي يونس (karait nabi yunus) حيث قذف الحوت به على هذه الشواطئ كما تقول القصة ومن هذه القصة أطلق اسم النبي يونس على القرية.

على يسارنا كان الطريق إلى بيروت يلتمع بألوان الأشرعة البيضاء، الأراضي المرتفعة المحيطة بالمكان المليء بالبيوت الريفية، في العمق شمخت أشجار (Italian firs) التي زرعها فخر الدين، تأثر المطران بالمنظر إلى درجة أنه قال بصوت عال (يا رب أن العالم مليء بعظمتك وأن قبة السماء هي من صنع يديك).

بعد زيارتنا إلى حريصة عدنا إلى (Razir...) حيث نمنا ليلتنا، وفي صباح اليوم التالي توجهنا نحو غابات الأرز التي كانت تبعد مسافة الأربعين ميلا. بعد مسيرة يومين وصلنا قرية اهدن (Eden......) حيث قطعنا طريقًا وعرًا خلاله كنا في خطر محدق، كان من الممكن إلى نسقط ونتحول إلى أشلاء، هذه القرية هي أعلى قرية مأهولة في لبنان الطريق إليها خلال الشتاء يقطعه الثلج لذا يتركها أهلها شتاء ويعودون في الصيف.

استقبلنا شيخ هذه القرية الماروني المذهب بكثير من الحفاوة، بعد أن سلمناه رسالة توصية، أخذنا إلى قلعته المحكمة البناء

والواسعة والمبنية على الطراز العربي ، وجعل لنا مرافقين لأخذنا إلى غابات الأرز ، بعد أن استرحنا واستجمعنا قوانا لعدة ساعات.

وبعد ساعات وصلنا إلى قمة مرتفع يطل على وادي قاديشا (Wadi el kadisha) ، وادي عميق وضيق محكم من كل جانب. من هذا المرتفع الحجري العامودي ، كان من الصعوبة النظر إلى الأسفل بدون الشعور بالدوار.

على قمة الوادي كان هناك شلال ماء مرتفع جدًا لا يقل عن مائة قدم وخرير مياه صاخب جدا.

ومن القمة تلك انحدرنا إلى قرية بشري (Beshirai) عبر ممر محفور في الحجارة الصلدة ، كان من الضيق والانحدار بحيث تحتاج إلى الكثير من قوة الأعصاب لكي تجتازه ، بعد حوالي ربع ساعة وصلنا غابات الأرز ولم يكن قد بقي منها إلا سبعٌ فقط، وهو كل ما تبقى من تلك الغابات التي كانت يومًا ما فخر لبنان.

يا لاصطخاب عواطفي المختلفة التي اعتملت في صدري عندما شاهدت أمام عيني هذه العملاقة الشهباء من بقايا الماضي. أفكر بأن مثيلاتهن قد استخدمن أعمدة شاهقة لمعبد بناه النبي سليمان، ماذا بقى من رفيقاتهن ؟ لقد تم القضاء عليهن بيد الإنسان وأن أولاد الذين كانوا يتعبدون في ذلك المعبد قد نبذوا وتشردوا في الأرض ، وأصبحوا غرباء في أرض الفرنج (Frank) والمحمديين (Mahometan).

كم من الشعوب قد طمست من وجه الأرض وشهدت على ذلك هذه الأشجار ، "عاين الآشوري كان كالأرزة في لبنان بغصون وارفة بالأغصان، شاخصًا بعلو ، يرتفع عاليًا من بين الأغصان الكثيفة ، المياه تغذيه ، الأعماق جعلته يعلو شاهقًا ، الجداول تجرى حول جذوره وفروعها تسقي أشجار البلاد كلها، لذا هو يبقى أعلى من كل الأشجار ، وفروعه تتكاثر وتتضاعف ، أغصانه تعلو بسبب كثرة المياه، وعندما نشر ظلاله الوارفة، كل طيور السماء بنت أعشاشها على أغصانه، وكل وحوش الغابة رعت صغارها تحت أغصانه، تجمعت شعوب عديدة واحتمت بأفيائه وسكنت عنده ، كان الأجمل بسموه وبتفرع أغصانه وبجذوره الممتدة قرب المياه العظيمة ، الأرز في فردوس الله لم تكن أعلى منه والسرو والصنوبر لم يعادل ارتفاعه ولم تكن الأشجار الاعتيادية لتقارن بأغصانه، لم تكن أشجار جنات الله تعادل جماله ، لأنني جعلته جميلا وقويا بفروعه العديدة وأشجار الغبطة في جنات الخالق كانت تحسده لأنه ارتفع شاهقًا وعلت هاماته الخضراء. لذلك قال الرب الإله لأنه قد زها بارتفاعه وعلت أغصانه الخضراء، وشهق قلبه عاليًا وهو في ارتفاعه، لذا فإنني أسلمه بيد أعتى الشعوب لكي تعرف التعامل معه، لقد نبذته للئام والغرباء والقساة من الشعوب سيقطعونه ويرمونه في الجبال، وأغصانه ستقع في كل الوديان وفروعه ستترك على كل الصخور في البلاد ، وكل الشعوب ستترك أفياءه وتبتعد عنه".

تحققت هذه النبوءة بدقة فإن الأشوري منذ وقت طويل قد توقف عن اعتبار أنه شعب مستقل ولكن الشجرة القوية التي جاء منها ما زلت تشرئب برأسه تتحدى عاديات الزمن وغضب الانفجار.

منذ قديم الأزمان يبدو أن أرز جنات عدن ما زالت تعظم لتفوقها على بقية الأشجار في لبنان، كما يبدو في ذلك المقطع أعلاه من تلك النبوءة [١].

في الوقت الحاضر فإن الأزر يُبجّل من قبل كل الطوائف العربية بحيث يعزى للأرز قوة خارقة قدسية وتكهنية.

سكان القرى المجاورة يحتفلون بالقداس على سفح الأزر كل عام، كنت محظوظة إذ صادف وجودي هناك في ذلك الوقت من شهر حزيران حيث يقام القداس، شاركت في صلواتي مع هؤلاء المؤمنين الملتزمين ذوي القلوب الطيبة من الفلاحين الذين يقطنون هذه الجبال.

من قرية (Eden) [٢] ذهبت إلى دير ما أنطونيوس قزحيا والذي لا يبعد كثيرًا عن غابات الأرز، هذا الدير يبجل ويعظم ليس فقط من قبل المسيحيين بل من قبل الدروز والمتولين [٣] الذين يجلبون النذور باستمرار عربونًا لاحترامهم وإجلالهم.

---

(١) إشارة إلى التاريخ الأشوري الذي يؤكد على وصولهم إلى غابات الأرز، وتشير إلى نبوءات الخ وتستمر في عرض تأملات تلك النبوءة.

(٢) الأغلب قرية اهدن.

(٣) المتولين : تقصد الشيعة.

هناك بناية كبيرة ملحقة بالدير مخصصة للحجاج الذين يأتون بأعداد كبيرة ، خلال الثلاثة أيام التي بقيت فيها في دير ما أنطونيوس قزحيا ، التقيت بأميرة درزية وزوجها اللذين كانا يقيمان في القسم المخصص للحجاج ، إن الأميرة لم ترزق بأطفال ، وهذه مشكلة كبيرة في الشرق وتدل على عدم رضى الخالق. إن زيارتها للدير كانت لطلب ونيل الشفاعة من ساكنيه، حيث قد عولت كثيرًا على تلك الشفاعة، بالإضافة إلى شفاعة القديس أنطون المصري القديس الراعي للدير ، إن الأميرة قد جلبت معها لهذا الغرض هدية ثمينة جدًا ، وهي عبارة عن مصباح فضي بفروع عديدة مزخرف ومحفور بمهارة وقدمته للكنسية.

منذ أول نشأتي قد تعودت على الاختلاط بالحزانى والمهمومين، أفضل صحبتهم على المرحين وخالي القلوب، حقًا إنني أفضل العزلة على الاختلاط، وأتوق إلى ممارسة حياة طير متوحد على الجبل أتحاور مع الطبيعة، كم ازدادت تطلعاتي تلك الآن بعد أن قابلت اللؤم والغدر وتقلب البشر الفاسدين.

حالة الأميرة أثرت بي، وإيمانها بقوة الصلاة سحرتني، وخلال مدة بقائي في الدير بقينا متلازمتين ولم ننفصل، وبعد ربع ساعة كنا صديقتين وكأننا تعرف إحدانا الأخرى منذ عشر سنين.

لم نُخفِ أسرارنا الواحدة عن الأخرى، حدثتني عن سيرة حياتها وحدثتها عن بلواي ومصيبتي التي جعلتني طريدة من أرض أجدادي ، تشاركنا في مصائبنا ووجَدْنا راحة ومسرة في

مشاركتنا لأسرار قلوبنا. قلتُ لها عن إصراري على ترك الحياة الدنيا وتفرغي لخدمة خالقي امتثالاً بالقديسة تيريزا التي أنا سميَّتُها ، لكنني قبل اتخاذ هذه الخطوة على زيارة أماكن عدة مذكورة في الكتاب المقدس.

عندما علمتْ بنيتي لزيارة تلك الأماكن المقدسة طلبت مني أن أصلي وأدعو لها ، فلربما بهذه الدعوات والصلوات فإن ثقل المذمة والهوان والمهانة التي تقابل بها من قبل جيرانها قد تمحى وتزول ، قلت لها اطمئني الله كريم (ALLAH Kerim...) ، سأقدم صلواتي مجانًا عند كل مذبح ومزار ، وأنا متأكدة بأن صلواتي لن تذهب هباءً.

من دير ما أنطونيوس قزحيا واصلنا سيرنا ، أنا ومرافقي المطران، وأنا إلى بيروت حيث أقمنا في بيت أخية الجواهرجي الذي التقيناه على ظهر الباخرة (Markab beileek) في إقامتنا السابقة في بيروت ، أقمنا هنا ثلاثة أيام بانتظار وصول (الشختورة) وهي باخرة بثلاثة أشرعة من قبرص في طريقها إلى حيفا، حيث سنذهب كما اتفقت على ذلك مجموعتنا. قبل أن أركب الباخرة قررت التنكر بزي الرجال إذ أن ذلك يمنحني الحرية بالحركة والتنقل لزيارة أماكن التعبد المختلفة في الأراضي المقدسة.

إن هناك ممارسة شائعة بالنسبة للحجاج إلى بيت المقدس (makdessia)، وهي أن يوشم الذراع من المفصل إلى العكس بصورة الصليب على جبل الزيتون أو قبر المسيح ، وكذلك

بعض المواضيع الأخرى ، وهي دلالة ثابته على زيارتهم التعبدية تلك، إلا أنني لم أوشم ذراعي ولم أمرّ بهذا الطقس، لأن صدق عواطفي لم يكن أقل من ممارسة الوشم لأنني كنت أشعر بشوق مثل شوق الأم لرؤية ابنها العزيز عند ذهابه إلى المعركة ولذا فضلت أن أُدعى الخواجة أمين وكان هذا لقب تكريمي.

زودنا الجواهرجي برسالة توصية إلى القنصل الروسي في حيفا... ودعنا بيروت ، مخرت بنا الشختورة في يوم بسماء صافية ورياح مناسبة ، كان هناك بضعة حجاج على متن الباخرة بالإضافة إلى جماعتنا ، من ضمنهم سيدة يونانية من حلب مع اثنين من أطفالها الصغار حيث وفرا لي متعة وتسلية خلال الرحلة لذكائهما ونشاطهما ، كانا يتكلمان العربية بطلاقة ويبديان الكثير من الفضول للتعرف على كل شيء.

نمنا على ظهر السفينة، الليل كان ساحرًا وصافيًا، السماء بدت وكأنها وشاح طُعّم بالماس، صحوت صباحًا وقيل لي بأننا مقابل (Cesaria)، وجبل الكرمل شاخصًا في الأفق، وركعت تعبدًا ، في المساء رسونا مقابل حيفا والتي تعرف سابقًا باسم (Joppe) والذي يقال إنه اسم الابن الثالث لنوح الذي أوجد أول مدينة بهذا الاسم، يقال إنها أول مدينة شيدت في العالم وهنا بنى نوح فلكه، ومن يافا تم إرسال خشب الأرز من قبل ملك حيرام ملك صور لبناء المعبد، كما قيل فإن حيرام أرسل خشب الأرز والصنوبر إلى سليمان ، وبالمقابل فإن سليمان أعطاه عشرين ألف مكيال من الحنطة كمونة لمتطلبات منزله مع عشرين ألف مقياس من

الزيت، وهذا ما كان يدفعة سليمان سنويًا إلى حيرام.[١]

بعد أن رست الباخرة ذهبنا للإقامة عند شخص اسمه يوسف الموصلي، قدمنا له توصية وهو تاجر محترم يتعاطي تجارة أقمشة الحرير والأقمشة الشفافة المذهبة، في اليوم التالي أخذنا إلى بستانه الذي يقع على مسافة قريبة من المدينة حيث قضينا ساعات جميلة، عدنا إلى حيفا لتناول العشاء، كان لمضيفنا طفلان اثنان لطيفان جدًا ، وكما تقتضي التقاليد الشرقية فإن الأطفال لا يسمح لهم بالجلوس على مائدة العشاء مع والديهم والضيوف بل يقفون خلفهم.

بيت يوسف الموصلي مشيد أعلى بقعة في المدينة، وبعد العشاء صعدنا إلى السطح للتمتع بالمنظر الجميل لذلك اليوم الصافي، كنا نستطيع أن نرى أشرعة البواخر القادمة من غزة بمدى مسافته خمسون ميلاً إنجليزيًا.

في اليوم التالي ذهبنا نقدم فروض احتراماتنا للقنصل الروسي والذي يبدو أنه شديد الدهاء والحكمة يقدم الكثير من الخدمة للحجاج، ففي بيته كان الازدحام على أشده.

قبل أن نغادر حيفا أخذت أتمشى في طرقاتها ووجدتها مدينة جميلة رغم الخرائب المنتشرة في جزئها الشرقي نتيجة حصارها عدة مرات خلال حكم الجزار باشا (Djezzar Pasha) ، إلا

---

(١) وتستمر في سرد تاريخ العهد القديم بتفاصيل لا أجدها ضرورية للنص.

أنها مدينة لا تعدم الجمال ، فهي محاطة بحدائق غناء مليئة بأشجار الرمان والليمون والنخيل والتفاح وغيرها.

في حيفا الكثير من النافورات المرمرية والتي تنثر المياه وبها معلقة أقداح مربوطة بسلاسل لكي يشرب ويرتوي منها العطاشى.

من حيفا أخذ مسارنا يتجه عبر السهول من (Saron) إلى له (Ramelah) ، رغم أن هذا السهل الآن غير مغطى بالورود والنباتات الغنية إلا أنه مرعى جيد لكثير من قطعان الماشية والماعز ، كما تقول الموروثات فإن شمشون الجبار هنا أحرق حقول الذرة[١].

قبل وصولي إلى (Ramelah) ذهبت لرؤية خزان للمياه قيل إن القديسة هيلانة قد بنته ، الصعود إليه بواسطة سبع وعشرين درجة سلم ، والخزان بعرض ثلاثة وثلاثين قياسًا بالعرض ، وبطول ثلاثين عرضا ، فيه أربعة وعشرون طاقًا (قوس) معقودًا ويستقبل المياه من أربعة وعشرين نبعًا. من بين خرائب هذا الخزان توجهنا إلى خرائب أخرى تدعى برج الأربعين شهيدا ، كان في السابق صومعة دير ، بقاياه وخرائبه ما زالت قائمة ، إلا أنه قد تحول إلى منارة لجامع مهجور ، يقال إن في هذا الموضع ارتاحت من وعثاء السفر العائلة المقدسة وهي في

---

(١) وتستطرد هنا في شرح قصة شمشون الجبار.

طريق هربها إلى مصر.

في (Ramelah) قضينا ليلتنا في كنيسة مار نقديموس وهي دير المفروض أن يكون عائدًا لنقديموس، وعندما زرته كان يسكنه راهبان عجوزان من إسبانيا. في طريقنا ممرنا بقرية (Jeremias.) تقع في وادٍ يطلق عليه نفس الاسم، وفيه تقطن أقوى قبيلة في جبال اليهوديا ورئيسها (Abu Ghousta)، لذا وجب علينا أن نقدم له فروض التكريم.

ما أن وصلنا إلى المدينة المقدسة وأنا في غمرة انفعالاتي حتى نسيت كل تعب الطريق ومخاطره ووعورته، من المستحيل علي أن أصف شعوري والأحاسيس التي ملأت صدري، وعندما أشار إلى أحد الأدلاء إلى جبل الزيتون اغرورقت عيناي بالدموع.

دخلنا المدينة من باب (Bab el ghasali) [١] ويعني باب المحبوب، ومباشرة ذهبنا إلى بيت أحد الخواجات من حلب وهو مسيحي وقد وعد بأن يوفر لنا ملجأ خلال بقائنا في القدس.

نهضت باكرًا صباح اليوم التالي لزيارة كنيسة القيامة، عند دخولي فوجئت برؤية قس كنت أعرفه من القوش، حكى لي عن ظروف غريبة مرت به، كان معروفًا عنه ورعه وتقواه لدرجة أنه أراد أن يتبع التعاليم حرفيًا وأن ينبذ كل المُتع الأرضية

---

(١) لم أجد اسم هذا الباب خلال بحثي عن أسماء أبواب المدينة المقدسة.

ويتخلى عن كل ما لا يتماشى مع التعاليم المسيحية[1]

عند عودتي إلى المدينة شعرت بالقهر الشديد ، إذ علمت بأن الوباء قد ظهر في المدينة ، وبذلك فإن مشروعي بزيارة الأراضي المقدسة سوف لن ينفذ، كانت المدينة في هرج ومرج، أخذنا نعد ونتهيأ لمغادرة المدينة إلى مكان نكون فيه بعدين عن الوباء.

في اليوم التالي عدنا إلى يافا حيث نجحنا بالحصول على باخرة مسافرة إلى الإسكندرية وكان ذلك في نهاية سنة ١٨٢٥. من الإسكندرية ذهبت للقاهرة ومنها إلى جبل سيناء، وبعد البقاء في القاهرة لعدة أسابيع عدت إلى الإسكندرية حيث أخذنا الباخرة أنا ورفيق سفري المطران إلى (Smyna) ومنها إلى القسطنطينية، هذه الرحلات استغرقت مني حوالي الاثني عشر شهرًا ولم يحصل خلالها أي شيء مهم، ولست هنا لشرح الرحلات وتقديم الأخبار عنها ، فإن هناك الكثير ممن يقومون بذلك ، ولكن غرضي هو تقديم عرض للقارئ البريطاني عن سوء طالعي ولو بشكل موجز ، وليس من طبعي أن أحاول رواية وقائع

---

(١) تحكي بتفاصيل عن هذا الرجل وتخليه عن زوجته وأولاده ، ثم ندمه على ذلك ومحاولته العودة ، وترفض زوجته ، ثم تقبل في الآخر ، ولكنه يشعر بالندم وزيارته الحالية تعبر عن الندم وطلب المغفرة خوفا من العقاب الإلهي (ملاحظة من المحررة) ، ما يدل على أن القسس الكاثوليك في العراق كانوا يتزوجون، ولقد شاهدت ذلك في شقلاوة في الخمسينيات من القرن الماضي ويفترض بالقس بعد زواجه أن يعيش حالة التبتل ولا يقرب زوجته!

خيالية والاحتفاظ بمذكرات يومية لأحداث يومية وقعت لي ولا أهمية لها لأحد غيري.

عدتُ إلى القدس قبل أسبوع الآلام بأيام قليلة، وكان يومًا قبل أحد الشعانين، ذهبت إلى كنيسة القيامة وشاركت مع المتعبدين المتحمسين في تنظيف المكان وتهيئته لليوم التالي البهيج الذي سيقام فيه الاحتفال.

كان من نصيبي وجماعتي كنس وإزالة الغبار من قبر المسيح يا له من عمل مبهج ومسر وتكريم، بأي مشاعر وعواطف مركزة تملئ صدري وأنا أؤدي مهمتي المباركة وبدموعي الفياضة بللت الأرض التي عليها تم خلاص الإنسان.

من المستحيل أن تدخل كنيسة القيامة بدون أن تشعر بالرهبة والإجلال، إنّ الضوء الذي يشع ويضيء المكان قد تم حسابه لكي يتركز التفكير على الأحداث الرهيبة التي تمت في أماكن داخل هذه الجدران المنغلقة، بالنسبة لي كان قبر المسيح يحمل معه الروعة والخشوع، وهي من الكلمات الأولى التي لقنني إياها والدي بعد صلاة الرب والسلام لك يا مريم.

إن أول شيء يراه الناظر في الكنيسة هي الحجارة حيث مسح المسيح بالمرمر والعود والطيب والحنوط [١]. إن القبر مغطى بقطعة مسطحة من المرمر لحمايته من معاول الحجاج غير

---

(١) إنجيل يوحنا.

المنضبطين ، كما وأن القبر محاط بسياج من الحديد ، ثمانية قناديل تبقى مضيئة دائمًا ، طولها يبلغ ثمانية أقدام وعرضها قدمين ، هذه الصخرة تتشارك فيها جميع الطوائف المسيحية وكل طائفة لها يوم معين في تطييبها خلال طقوس فخمة.

على بعد ثلاثين مسافة من حجر المسوح وتحت قبته الكبيرة ، والتي كانت تنتصب على ستة عشر عمودًا من المرمر ، الآن استبدلت بحجارة مربعة كبيرة وتزود بالضياء من القمة ، إنها الجلجثة ، وفيها قبر المخلص وهي فتحة صغيرة كصومعة محفورة في صخرة صلبة وهي من ملكية طائفة اللاتين.

المدخل والذي يواجه الشرق يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام ، واثنين وربعًا عرضًا ، ما يجعل الإنسان يدخله منحنيًا ، القبر شبه مربع ستة أقدام طولاً وخمسة أقدام و١١ إنشًا عرضًا ، وشاخص بارتفاع ثمانية أقدام. بالقرب من القبر وضعت مرمرة مسطحة حيث وُضع عليها جثمان المسيح لمسحها بالمرمر والعود أو الطيب والحنوط ، طولها قدمان وستة إنشات ارتفاعًا ، وستة أقدام طولا ، وعرضها حوالي الثلاثة أقدام ، رأس المسيح كان يتجه غربا وقدماه نحو الشرق ، حيث سجي جسد المخلص.

القداس يقام هنا ، الكلمات تعجز عن وصف مدى نشوتي حيث ركعت منقطعة الأنفاس وبصمت وشفتاي ملتصقتان على المرمر البارد ودموعي تصب مثل الينابيع.

أربعة وأربعون قنديلاً تبقى مضاءة في كنيسة القيامة ، في السقف ثلاث فتحات لتسمح للدخان بالنفاذ منها ، القبر محفوظ

في كنسية صغيرة محاط بقبة، والجدران من مرمر جميل أبيض وصخرة مصقولة حمراء وكلها مزوقة بزخارف.

قبل دخول كنيسة القيامة هناك صخرة طولها حوالي القدم والنصف وهي التي سدّت فيها فتحة القبر والتي دحرجتها الملائكة، ومن هذا المكان وبقرب هذه الصخرة كلمت الملائكة المريمتين. [١] صعدنا عبر سلالم ضيقة إلى جبل الجلجثة (الجمجمة) حيث قاسى المسيح.

المهرجان الذي أقيم في يوم عيد الفصح لن أنساه أبدًا ، وهل هناك منظر أنبل للإنسان المسيحي المخلص من أن يرى المتعبدين يملأون كل زوايا من هذه البناية الكبيرة التي تحتوي قبر المسيح المبارك ، حُجاج من الشرق ومن الغرب ، من الشمال ومن الجنوب ، من مصر وأرض الكلدان واليونان وأرمينيا وفارس والهند وحتى من الصين، دفعهم إيمانهم للسفر آلاف الأميال خلال الطرقات الموحشة والبحار الهائجة والجبال المثلجة بدون الخوف من الأسود والنمور ورياح السميري ليقدموا بتواضع شكرهم وصلواتهم بامتنان لمخلصهم.

---

(١) تستمر في وصف مراحل درب الصليب بدقة وبتفاصيل مذهلة وتذكر المقاسات والشكل الهندسي والزخارف ونوع البناء وأنواع الحجارة والخ ، وكل قسم إلى أي طائفة ومذهب يعود ، وبما أن القدس وكنيسة القيامة متاحة للقارئ العربي والمسيحي فلقد وجدت عدم ضرورة ترجمتها ، خاصة وأنها قد كتبت النص للقارئ الإنجليزي الذي هو بعيد جدًا عن فلسطين في تلك الحقبة من الزمن.

استطارت روحي فرحًا وأنا أسمع وأفهم كل تلك الألسن لمقادسة الحجيج والتي تعبِّر عن أرواحهم المنتشية ، كان قلبي يمتلئ غبطة ، وأنا أقف في الكنيسة ، مجموعة من أبناء بلدي من الكلدان مروا بالقرب مني وهم يقولون (ya ayouha alyahoud houza tarak likam beitkum kharban la baka likum la nabuat wala milkan) [١] (يا أيها اليهود يهوذا ترك لكم بيتكم خرابًا ما بقي لكم لا نبوءات ولا ملك).

الجموع كانت هائلة، الرجال والنساء والأطفال تجمعوا في حشد واحد ، الأمهات حملن أطفالهن على أكتافهن خوفًا عليهم من الاختناق ، هذه الاحتفالات هي أروع وأعظم حدث في حياتي ، لقنت من الصغر أن أتطلع لها قُدمًا لأنها ستكون الذروة المتوجة لأفراح حياتي الأرضية[٢].

---

(١) هنا أخطاء مطبعية كما جاءت في الأصل.

(٢) تشرح بتفاصيل دقيقة وطويلة طقس الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في إتمام طقوس قداس قيامة المسيح ، وتشير إلى حضور مسؤول تركي عثماني ، وتصف الطقوس التي تقام ، ومعجزة ظهور النور على أنه ليس بمعجزة ، بل من عمل الإنسان وكيف أن رجلاً كبير السن اقترب من النور واحترقت لحيته ، وهي بهذا تسخف الطقوس التي صورت قيامة المسيح وحولتها إلى عمل أرضي بحت. ثم في يوم أحد الفصح تصف الطوائف المسيحية المختلفة التي تسير خلف رؤسائها الدينيين وهم يحملون المصابيح الزيتية في مسيرات والنساء والرجال في أبهى الحلل والملابس ، وما أن تتم الإضاءة وتنوير المكان بالكامل حتى تبعث صيحات وابتهالات الهليلويا ، الرهبان يتبعهم الفتية الصغار يحملون المباخر واللافتات الملونة، خلال هذا الأسبوع الضريبة (ربما الجزية) المفروضة على الحجاج المسيحيين تلغى من قبل السلطة العثمانية علامة على الاحترام.

في اليوم التالي نزلت إلى وادي (Josaphat) تركت المدينة عن باب القديس اسطفان[١] الذي تلقى الشهادة على عتبة هذه البوابة.

بعد أن نزلنا إلى وادي (Josaphat) اتجهنا يمينًا مرورًا بالقبور التركية التي تقع تحت الحائط الذي يحد جبل (Moria)، حيث شيد مسجد عمر على بقايا معبد سليمان، قطعنا جسرًا فوق جدول (kerdon)، حيث تقول القصص بأن المسيح قد سقط وهو في طريقه إلى بيت قيافا، وما زالت آثار طبعة ركبتيه على الحجارة، وعند أقدام جبل الزيتون تقع مقابر اليهود الملتزمين الذين نبذوا متع الدنيا وفضلوا الموت تحت ظلال الجبل، وبعد أن شاهدت قبر زكريا وإبشالوم والمغارة التي كان الرسل يجتمعون فيها لينشروا مبادئ الإيمان، زرنا الموقع الذي فيه علم المسيح تلاميذه الصلاة الربانية وتم فيه تسليمه وخيانته من قبل إنسان أحبه المسيح.

ما زالت هناك بعض أشجار من الزيتون يقال إنها باقية من زمن المسيح وتبدو عتيقة فعلاً، يمكن معرفتها من جذورها المتعرجة شكلها غريب، يقال إنها تسقى وتسمد بدموع المؤمنين الذين يعبرون عن مرارة حزنهم، ركعت وصليت بحرارة لوقت ما، وقبل أن أترك البستان جمعت كمية كبيرة من ثمر الزيتون ومن نواتها صنعت سبحًا قدمتها هدايا لأصدقائي وأبقيت واحدة لي. إذ عندما أصلي وأدعو كل حبة نواة تسقط عند تسبيحي مرددة

---

(١) تشرح بتفاصيل قصة استشهاد القديس اسطفان.

ومسجلة صلواتي، لعلها ستبقى روحي حينها أكثر وعيًا بآلام المخلص.

بعد مغادرتنا حديقة (Gethsemani) نزلنا حوالي خمسين درجة من سلم يقود إلى كنيسة تحت الأرض، بها قبور مريم العذراء، القديس توما، والقديس يواقيم، وقبر القديسة حنا أم مريم، وقبرالقديس يوسف زوج مريم المباركة يقع إلى اليمين وإلى يسار السلم، وقبر مريم في القعر.

عندما وقفنا على الجبل المقدس ونظرنا إلى الأسفل حيث ستجتمع شعوب الدنيا كلها في يوم الحساب الأخير، امتلأت قلوبنا بالخوف حيث فكرنا باليوم الذي فيه ستنزع ألسن الفضائح والبذاءة، وقلوب المنافقين ستطرح هنا في حين أن أولاد الله الأبرار سيقفون في الأمام تنيرهم براءتهم[١].

عدنا ثانية لعبور جدول (kerdon) واتجهنا يسارًا وزرنا نافورة (silo...........)، حيث أعاد المسيح البصر إلى الأعمى، واصلنا اتجاهنا نحو اليسار وذهبنا إلى ((bir nami، وهي البئر التي خبئ فيها ناحميا (nehamis.............) النار المقدسة أيام السبي البابلي، النزول إلى البئر يتم عبر عشرين درجة، وعندما تفيض البئر بالماء فإن الناس يعتبرون ذلك إشارة إلى أن الموسم سيكون مثمرا، المعجزات تنسب إلى هذه البئر وطعم مياهها

---

(١) تأملات وصلوات دينية حول اليوم الآخر والأعمال الدنيوية.

عذب وحلو، وجدنا الكثير من المقعدين يستندون على العكازات وهم يرجون الشفاء بمعجزة من مياه هذه البئر. حيَّونا بكثير من الصداقة وقدموا لنا الحليب الذي تقبلناه بشكر عميق، من هذه المنطقة شاهدنا قرية (siloam....) التي تقع على أقدام جبل (scandal) على الجهة الثانية من جدول (kerdon)، سمي الجبل بهذا الاسم نتيجة لاقتراف سليمان عبادة الأوثان.

ملأنا مطاراتنا بالماء من البئر المقدسة، اتجهنا شمالاً، مررنا بالقبور التركية مجددًا واتجهنا إلى الشمال الغربي من المدينة، وما إن وصلنا حتى اتجهنا يسارًا ووصلنا مغارة (jeremais...)، حيث قام النبي بمعجزة التنوير المعروفة، من هذه المغارة صار طريقنا إلى الشمال الغربي، من هناك إلى أضرحة الملوك بعدها إلى قبور الأنبياء حيث عدنا من هناك إلى المدينة من باب داود (bab daoud) مرهقون من رحلتنا النهارية تلك. حيث خصصت ذلك اليوم كله لتتبع مسيرة المخلص من بيت بيلاطس البنطي إلى المعبد الكبير، ومن ثم إلى جبل الجلجثة.

علمت أن موسم الحج إلى الأردن سيحل قريبًا ، لذا كنت مصممة على المشاركة في الحج، وفي إحدى الأمسيات انتظمنا في قافلة تضم ما يقارب عشرة آلاف نفس يترأسها الحاكم ويرافقها حراسه، بعد رحلة استغرقت ثماني ساعات عبر قفار وأرض وعرة ليس من الصعب على المخيلة أن تتصورها، وفي كثير من الأحيان كان الخوف من أن نصاب بكسور في رقابنا نتيجة لوعورة وخشونة الطريق، وصلنا (Rihhah) قرية

بنيت على أنقاض (Jerico)

وإلى مكان بعيد أشير إلينا لنرى نافورة تقذف الماء الحلو والتي تعود إلى أيام إيليا تنبع من الصخور في الجبل حيث صام وصلى المسيح هناك مدة أربعين يومًا وأربعين ليلة، رأينا بقايا كنيسة قد بنيت هناك، وتسلقنا الصخور لنجد أمامنا منظر المدينة التي كان يملكها العاموريون.

بعد أن ملأنا مطاراتنا بالماء المقدس نزلنا باتجاه خيمنا المنصوبة على السهل.

كان يرافقنا شيخ بدوي نصب خيمته بالقرب منّا، كان من فريق الحماية التي أعدها الحكام لمرافقة القافلة، تعرفت عليه إذ إنه ذكرني بحياتي مع قبيلة (درياح) والحياة الجميلة التي عشتها معهم، هؤلاء الناس البسطاء أولاد الطبيعة، أصحاب القلوب النبيلة، أخذت أتحادث معه بالعربية بلهجة البدو التي تعلمتها سابقًا وهي تختلف تمامًا عن لهجة أهل المدن.

ومن خيمتنا نظرت إلى خيمة الشيخ، وجدت أنه يدعو بدويًا يبدو عليه الفقر لمشاركته الطعام، وبعد فترة مر بدوي آخر يبدو على هيئته الفقر والجوع فدعاه الشيخ لإكمال ما بقي من طعام وقال له: أشبِع نفسك لأنها إرادة الله. هذا البدوي الكريم من حوران، الشيخ في منتصف العمر ببنية قوية مدربة تتحمل الإنهاك، كان يرتدي عباءة بيضاء بخطوط زرقاء ويحمل السلاح هو وأبناء عشيرته الذين يرافقونه، سلاحهم يتكون من مدفع بالفتيل ورماح وخناجر وبعضهم يحملون السيوف.

إن عرب حوران معتدلون ولطفاء تمامًا على عكس عرب أريحا الذين هم أكثر ضرواة، وهم بطبيعتهم يناسبون منطقة أريحا التي من الأزمن الأولى معروفة بالعنف والكرب.

زوجة الشيخ كانت من أوسم البدويات التي قابلت، عيونها واسعة ونفاذة ناعمة وأنثوية ولكن نارية، شعرها أسود بضفائر تقريبًا تصل أقدامها، تصفيف شعرها بهذه الطريقة يختلف كثيرًا عن البدو الذين عايشتهم سابقًا، وكما يبدو أنها التقليعة في هذه الأصقاع إذ إنني قد شاهدت بضع بدويات يصففن شعرهن بهذه الطريقة وكلهن فارعات العود وجميلات.

أصرَّ الشيخ على دعوتي للعشاء وهيّأ الكثير من الطعام، ذبح الخراف والحمام والدواجن أكثر مما نحتاج، بعد الطعام جلب لنا الشيج سجادًا فارسيًا لنجلس عليه، ولم أجد من المناسب أن أسأله كيفية حصوله عليه، جلسنا على السجاد نتتمع بغليوننا (Raliouns) بكثير من المسرة، إذ أن هذه القبيلة من طبقة لا تطبق التقاليد الشرقية المتزمتة، وليس مثل تلك القبيلة التي عايشتها سابقًا على ضفاف الفرات.

وأنا جالسة أتمتع بغليوني دارت في خواطري قصص وحوادث قد حدثنا عنها العهد القديم، حتى أنني تخيلت وأنا أشاهد اليهود يقودهم قساوستهم كل واحد يحمل مصباحًا، واعتقدت بأنني أسمع صوت انهيار جدران أريحا تسقط وتتحطم، غير أنني رأيت امرأة بدوية تركض باتجاهنا تحمل شيئًا ملفوفًا بصدريتها، وما أن اقتربت منا ولدهشتي وجدت أنها تحمل طفلاً حديث

الولادة، إذ جاءها المخاض وهي تعمل في الحقل، وبدون أي مساعدة ولدت الطفل وقامت بكل شيء بنفسها، وغسلت الطفل بمياه نهر الأردن ، كانت تتعجل القدوم للبيت ليرى زوجها الطفل الوليد، ما كانت ستفعل أمهات ما تدعى المدن المتحضرة إذا ما جوبهن بموقف كهذا؟

إن هذا الموقف جعلني أتوجه بالسؤال إلى تلك البدوية عن كيفية تربية وتنشئة أولادهم، قالت لي إنهم يحممون الرضيع كل يوم بالماء البارد وطوال الشهر الأول من عمر الوليد، يربطون يد المولود إلى الأمام لمنعه من إيذاء نفسه بحركاته العشوائية، تحت إبطهم وعند كل المفاصل يضعون تربة حلوة الرائحة اسمها (Akhmar) مخلوطة بنوع من المرزوعات تسمى (as) الآس المجفف والمطحون، هذا الخليط يحمي الجلد من حرارة الجو، وباستمرار يحممونه بالنهر كل صباح لمدة أربعين يومًا ، ولهذا فإن الأطفال يستطيعون السير وهم قبل الشهر الثامن من العمر.

السهول هنا مزروعة بشكل جيد ، قطعان الماشية والجمال ترعى في الحقول المحيطة بنا ، السكان جاءوا بماشيتهم وقطعانهم ودجاجهم مع بعض البيض والفواكه وطلبت أنا منهم أن يقطفوا لي بعض الزهور والورود وقدموا لي أجمل باقة زهور رأيتها في حياتي.

من موقع (Rihhah) القديم إلى ضفة نهر الأردن المسافة ليست بالطويلة، لهذا بوركت عيناي بالنظر إلى المجرى المقدس بعد

وقت ليس بالطويل ومتعت عيني بالنظر إلى مياهه الزرقاء وهو يتماوج بين الحقول الخضراء، نصبنا خيمنا قرب النهر الذي كان ينحدر مسرعا، استطعت أن أحكم على سرعة جريانه من الأمواج المتلاطمة والدوارات المائية، على مد بصرنا كانت هناك أشجار الخلاف تتدلى على ضفتي نهر الأردن.

انتابتي رغبة عارمة بالسباحة حتى قبل أن تنصب خيمتنا، لقد هيأت لنفسي بدلة سباحة طويلة مع بنطلون من الحرير، كما فعل بقية الحجاج الذين تمكنوا من تزويد أنفسهم بمثل هذه الملابس المتخصصة، إن البدلة التي تلبس في هذه المناسبة يحتفظ بها لأنها ذات مقام ديني، ولا تلوث بأي ماء ليس له قدسية دينية، وتعتبر ذخيرة دينية يحتفظ بها الحاج إلى آخر يوم من عمره، حيث يكفن بها عندما ينتهي وجوده على أرض الرهبة والفتنة هذه.

وضعت الملابس التي ألبسها خلال الرحلة في الخيمة، واتجهت صوب ضفاف النهر ونزلت أعوم فأنا سباحة ماهرة، لقد كنت أعوم في حوض لحفظ المياه تبلغ سعته سعة ساحة بورتمان سكوير(Portman Square) وبعمق عشرين قدما ولم تهمني الأمواج السريعة الهائجة المتجهة نحو البحر الميت، التي وجدتها قوية جدًا تطلبت مني الجهد الكثير لمقاومتها كي لا تجرفني معها، بذلت طاقة مضاعفة وبقوة الله العظيم استطعت الوصول إلى الضفة الأخرى.

في الحقيقة عندما أعود بالنظر إلى حياتي والمرات العديدة التي واجهت فيها الموت أشعر أن هناك قوة حكيمة عظيمة تحميني دائمًا، كم من السقطات القوية التي سقطتها وأنا صغيرة من على الأشجار العالية، وكم مرة سقطت بجوادي من على المرتفعات الصخرية، وأنا أتسلق تلك المرتفعات الحادة، ومرة وأنا أحاول ركوب جمل كبير وبينما أنا اضع قدمي في الركاب نهض الجمل فجأة ورماني في نهر الفرات.

في إحدى المناسبات عندما كنت صغيرة ومتهورة ركبت جملاً بسنام واحد بدون سرج أو ركاب وما كدت أعتليه حتى انطلق وأخذ يركض وكأنه الريح العاتية، استطعت أن أبقى جالسة على ظهره لفترة، ولكن بعدها رماني بعنف على شجرة صغيرة، حينها ارتعبت، وكل أصدقائي تصوروا بأنني قدمت، بالإضافة إلى أن خدي الأيسر جُرح جرحًا عميقًا جدًا وترك أثرًا سيبقى معي إلى أخر عمري.

كم من النوائب أصابتني، إلا أنني نجوت منها، ولا أعرف لِمَ تحافظ السماء عليَّ في المخاطر وإلى أي مصير ستتجه بي إذ أن العالم حقًا كان لي وعاءً مليئًا بالدموع، والمكان الذي ويحق لي قول مع،

patrare DA poi ch inacqui in su la ....)
cercando of questa ed or quell' altra ،riva d'arno
(patre non e stata mia vita altro chaffanno

أعود إلى قصتي وأوفر على القارئ أنانيتي المضجرة حول أحكام القوي الحكيم، استطعت أن أعبر النهر الذي كان عرضه حوالي مائة وعشرين قدمًا، وهو كذلك في بعض المواسم، وفي بعضها أقل، عندما وصلت إلى الجهة الأخرى قطعت قصبة جميلة من التي كانت تنمو على الضفة، حملتها وأنا في طريق عودتي سباحة إلى الضفة الأخرى، وقبل أن أنزوي في خيمتي جمعت بعض الحصى من الأرض الفضاء وملأت بها حقيبة لأحملها معي كذخيرة دينية إلى أصدقائي.

مع الحجاج المقدسين (Makdessiah) كان هناك رجل يوناني مع زوجته، لقد التحقا بقافلتنا في أورشليم، هو وزوجته، كلاهما سبحا في النهر معي، ولكن المرأة كانت خائفة جدًا ما جعلني أحملها وأعود بها. في الوقت الذي كنت أقدم يد العون لها، اندفع زوجها يسبح في النهر، وكما يبدو فقد كان سباحًا ماهرًا ولكنه قبل أن يصل إلى الضفة المقابلة أخذ يصرخ بصوتٍ عالٍ طالبًا النجدة، وقبل أن يستطيع أي شخص أن يقدم له العون اختفى، المسكينة زوجته أخذت بالعويل، وحاولت أن تذهب لمساعدته ولعلمي أن هذا سيكلف حياة أخرى منعتها، لكنني حملت المرأة المسكينة المجروحة الفؤاد إلى ضفة النهر وهي تصرخ بهستيريا عنيفة، ذهب عدد غير قليل يبحثون عنه مباشرة ولمدة ساعتين استمر البحث ولكن بدون فائدة ولكن في الأخير وجدت جثته، وهذا الحادث المحزن أضفى مسحة من الألم على الجو البهيج، إلا أن بعض الزملاء من الحجاج قالوا لي إن الرجل

كان قد تعاطى بعض المشروبات الكحولية ما جعلته يفقد مهارته ويكون أكثر رعونة في مثل هذا الظرف.

واصلنا ركبنا عند شروق شمس اليوم التالي ، بعد أن ملأنا مطاراتنا بالماء من نهر الأردن وقبل مغادرتنا وجدت لي بقعة منعزلة أخذت فيها بالتأمل وترديد الصلوات وأنا راكعة، وكأنني سمعت كلمات الأب الأبدي وهو يقول (هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت) ، وبهذا كنت أجدد طقوس معموديتي وأنبذ الشيطان وأعماله، وأؤكد على أن أسير في درب الرب إلى أخر يوم في حياتي.

اتجهنا جنوبًا نحو البحر الميت، ولم تكن بالسفرة الطويلة مهما عشت لن أنسى منظر الخراب الدائم، الذي يفصح عن نفسه، هنا قد تركت آثار غضب القوة الإلهية، فإن الأرض حول البحر الميت مالحة ورخوة جدًا بحيث أن خيولنا انغرست أطرافها إلى الركب في الأرض الرخوة ، على يميننا كانت تنتصب تلال شاهقة صخورها بأشكال عجيبة قسم منها يشبه البنايات العالية.

الجنود المرافقون لنا هرعوا للاستحمام بالماء وتوضؤوا حسب التعليمات الواردة في القرآن، ولكنني لم أشأ أن أستحم في هذه المياه التي قيل لي لو دخلتها فقد أستطيع أن أرى خرائب مدينة (Zoar)، إلا أنني لم أجد في نفسي الرغبة بتلويث أطرافي بهذه المياه الملوثة العكرة والتي تقبر في جوفها بقايا سوداء لبشر أنزله غضب الله عليهم وعلى عوائلهم بعد أن دخلت وتنقيت بمياه نهر الأردن.

بعد أن وصلنا إلى نهاية الرحلة عدنا إلى القدس متبعين طريقًا وعرة، سالكين طريقًا خطرًا بممرات ضيقة من الصخور، أي خطوة خاطئة قد تقود إلى هوة سحيقة، والآن نسير بخطى قلقة على أرضية يابسة في هذه القفار، التي لم يكن بها مخلوقات حية سوى النسور وهي تحلق عاليًا في الهواء.

بعض من الصخور الناتئة في الجبل كانت لها أشكال غريبة ومثيرة ونتوء واحد بالذات بقي في ذاكرتي، نبتت عليه زهيرات نبعت بقوة لتعيش وقتًا قصيرًا وتموت مسرعة، تذكرني هذه النباتات ببعض النساء المسنات في أوربا واللواتي كان عليهن أن يفكرن بالعمل الصالح، ولكنهن فكرن بتزويق أنفسهن وهن يتخيلن بأنهن يستطعن بذلك جذب اهتمام الجنس الآخر، وحسد بنات جنسهن. إنهن غير واعيات على أن جهدهن هذا يمر بدون تأثير وأنهن لا يعتبرن غير مزحة أو ربما يحتمل أنهن أصبحن وسيلة تقولات خبيثة.

مثل هذه التصرفات رأيتها حتى في معابد الله، حينها عدت بتفكيري إلى نساء وطني

في شبابهن يظهرن فخورات بسحرهن ويتنافسن في إظهار روعتهن ويسعين إلى إبرازها، ولكن حتى خلال هذه الفترة من حياتهن فإن عرضهن لمفاتنهن يكون فقط لأزواجهن أو أقاربهن ولسن يتبهرجن مثلما تتبهرج الخيول والجمال وتعرض للفضوليين من المتجمهرين. ولكن عندما تأخذ شمس أيامهن بالأفول، يتركن جانبًا كل مظاهر التبرج ويولين الاهتمام

بالنظافة والراحة، ويحولن تفكيرهن إلى التفكير والتأمل الجاد. ويهيئن أرواحهن لترك أجسادهن بسلام وليقدمن أنفسهن ليوم الدينونة.

وهي الصورة الأكثر جلالاً ومهابة من الأسلوب الذي تعرض فيه المرأة المتحضرة في أوربا ، والتي حتى في شيخوختها تكون مدمنة على البهرجة والتكبر. ولكن هناك من لا تخدع بالركض خلف المتع ، أو المتواضعة والمهتمة بالمقموعين والغارقين من المسيحيين في الشرق وتكرس نفسها لعمل الخير لخدمة المريض والفقير والمقهور في أي مكان يتواجد.

أمثلة مثل هذه التي وصفتها وشاهدتها لا أجد لها مثيلاً في وطني ولهذا دهشتي يجب أن تعذر لكونها ظاهرة جديدة علي.

يجب أن أشعر بالذنب لعدم امتناني وتلذذي وبدون تميز في فرض رقابة على سكان مدن أوربا، وعلى الاخص أشعر بأنني محظوظة بالإقامة فيها ، وأن صراحتي الشرقية تغريني بأن أكشف هويات هؤلاء الأفراد الذين أكرموني والذين لا يرغبون في الإفصاح عن أفعال الخير التي يقدمونها ، لقد قدموا لي أفضالاً لا أستطيع مهما بذلت من جهد أن أجازيهم بأي شيء عوضًا عنها.

وذكريات ستبقى معي إلى آخر أيامي.

وصلنا أورشليم بعد الظهر بساعة واحدة ورأينا حشدًا من الناس بانتظار القافلة وهم يحيوننا بصوت عال وبأغاني الفرح والابتهاج.

عند عودتي إلى المدينة المقدسة وجدت هذه الرسالة من الأمير بشير ، الأمير العظيم من لبنان والذي ذكرت اسمه بكثير من الجلالة لعلمي أنه واحد من أعظم معاقل المسيحية في الشرق، لقد كتب الرسالة إليّ بنفسه بعد أن تسلم رسالة من ابنته والمطران الأرمني اللذين أعلما سموه بالشرّ الذي قد أصابني وأنني كنت ضحية[١].

امتلأ صدري بالامتنان على الاهتمام الرؤوف من الحاكم الذائع الصيت بي، أنا السيئة الحظ الغريبة الوحيدة، والتي لا تملك أي شيء لتمنحه ردا لهذا الكرم سوى الشعور بالشكر الحار والقلب المخلص ، ولقد أرسلت الرد بقبولي الدعوة حالما أنهي رحلة الحج.

في اليوم التالي تركت أورشليم من بوابة بيت لحم برفقة قافلة تتكون من ٢٠٠-٣٠٠ شخص

(Bethlehem) وتعني بيت اللحم في اللغة العربية والكلدانية وبيت الخبز باللغة العبرية

كنت أعتلي فرسًا قوية لم تمكني من متابعة التمتع بالطريق ،

---

(١) نص الرسالة باللغة الإنجليزية.

كنت أعرف بأنني سأزور الموضع الذي وضعت فيه السيدة مريم العذراء المسيح ، لذا قررت الاستغناء عن الحصان وركوب الحمار لسيره ببطء.

بعد ركوب ساعة وصلنا دير مار الياس ، رأينا الصخرة التي كان ينام عليها القديس عوضًا عن الفراش، ومن هناك سرنا إلى سهول (Raphaim) حيث تمكن داود من قهر الأعداء ، قبر راحيل ليس بعيدًا من بيت لحم بل على الجهة اليمنى من الطريق.

بعد أقل من ساعتين وصلنا بيت لحم ، ذهبنا إلى الدير ، بناية الدير كبيرة تشبه في بنائها القلعة وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام: قسم للاتين والآخر لليونان والقسم الثالث للأرمن،

دخلنا البوابة الضخمة من كوة صغيرة واقتادونا إلى كنيسة رائعة مدعومة من الجانبين بأعمدة من المرمر بارتفاع عشرين قدما ثم قادونا إلى المغارة في الأسفل مرورًا بمغارة القديس ايسبوس (Eusebius) وبعض القديسين الذين نسيت أسماءهم، ورأينا المكان حيث قضى القديس (Jerome) كل حياته! [١]

من مغارة القديس (Jerome) ذهبنا إلى مغارة الأبرياء وكلها مزوقة بالرسوم ، وأبقينا إلى الأخير أهم مكان ، وهو موضع ولادة مخلصنا ، النزول إليها يتم عبر سلم من ثلاثين درجة

---

(١) شرح عن حياة القديس جيروم.

مقسمة على مرحلتين كل واحدة من خمس عشرة درجة ، المغارة نفسها صغيرة وتبلغ حوالي ٣٧ قدما طولاً ، واثني عشر عرضًا ، وحوالي عشرة أقدام ارتفاعها ، وهي مغلفة بالمرمر ، وهو ما قامت به الإمبرطورة (Helen) ، المغارة مزوقة بالتماثيل والرسوم ، وفيها اثنان وثلاثون مصباحًا كبيرًا أنيقًا مطليًا بالفضة، تضيء باستمرار.

موضع ولادة المسيح يقع تحت مذبح أنيق مثبت بالحائط ومدعوم بأعمدة من المرمر مطعم بالأحجار الكريمة الكبيرة ، وبواسطة نجمة كبيرة من الفضة تشع كالشمس، مساحتها حوالي القدم وبداخلها مكتوب ما يلي (Hic De Virgine Maria Jesus Christus Natus Est)، المذبح مضاء بعشرة مصابيح والنجمة هي التي قادت الرجال الحكماء إلى مكان ولادة المخلص ، ويقال من يومها بقيت واقفة في نفس المكان ، وبالقرب من المذبح هناك المذود المفروش بالتبن الذي وضع فيه السيد المسيح، وهو أوطأ قليلاً من أرضية المغارة المرمرية يواجه المذودَ مذبح بني في المكان الذي جلست فيه السيدة العذراء ووضعت الطفل على ركبتيها وحيث قدم الحكماء لتقديم احترامهم. (١)

---

(١) تشرح بالتفصيل شعورها وبعض الأحداث التاريخية الدينية وتشير إلى أماكن معينة لا أجد ضرورة في ترجمتها.

النساء اللواتي رأيتهن في بيت لحم وفي القرى المجاورة يرتدين قميصًا (Khamis) أزرق وعباءة حمراء ، والأخريات على العكس ، إن رؤيتهن تعيد إليّ ذكرى صور قد رأيتها للرسامين الإيطاليين الذين يعجبهم هذا التضاد اللوني ، ولقد أكدوا لي أن الرعاة في بيت لحم يرتدون الملابس بنفس الطراز الذي كان في الأيام الأولى للمسيحية، والأكثر من ذلك أجد أن أزياءهم قريبة جدًا من الأزياء القديمة التي ترتدى في بلدي ، كما أنّ الخطبة تقعد منذ الطفولة أيضًا ، وأن النساء الزانيات كما في العهود القديمة يرجمن بالحجارة.

بعد أن زرت كل الأماكن المهمة في بيت لحم عدت إلى أورشليم للاستعداد للسفر لزيارة أمير لبنان وصلنا في الوقت المناسب للغذاء في بيت الخواجة (Hawaja) من حلب وكان متحمسًا ومتهيئًا ليقدم كل ما يمكنه من مساعدة ليسعد أصدقاءه.

حكى لنا عن أسطورة يرددها العرب عن مكان بناء معبد سليمان وهي أن أخوين كانا يملكان حقلاً ، أحدهما متزوج وله الكثير من الأطفال ، والثاني أعزب ووحيد ، اتفقا على تقسيم الغلال مناصفة، ولكن الأخ الأعزب وجد أنه من غير الإنصاف أن يأخذ نصف المحصول من أخيه الذي يجب أن يطعم الكثير من الأفواه، لذا يقرر أن يرفع أربعين حملا من محصوله خلال الليل ويضيفه على محصول أخيه، ويفعل ذلك تحت جنح الظلام في حين أن أخاه قد طرأت عليه نفس الفكرة، وقال في نفسه إن أخاه وحيد وليس له عائلة لترعاه في شيخوخته، في حين أنه هو

لديه عائلة ستعتني به في كبره، ويقرر أن يرفع أربعين حملاً ويضيفها على محصول أخيه، وهكذا في الصباح لدهشة كليهما وجدا أن المحصول ما زال كما هو، ويفعلان الشيء نفسه في الليلة التالية، إلى أن يقررا أن يراقبا ما يحصل بدون أن يخبر أحدهما الآخر، ويكتشفان بأن كلاً منهما فكر بالآخر أكثر مما فكر في نفسه، وبناء على طيبة خُلقها تقرر أن يبنى المعبد على تلك البقعة.

وعندما أنهى مضيفنا حكاية هذه الأسطورة دار الحديث بشكل طبيعي حول البناية التي تحتل الآن موقع معبد سليمان حيث كان سابقًا مشيدًا، وكيف أن أحد المسيحيين قد تنكر بزي تركي، ودخل مسجد عمر كنوع من الفضول، وشاهد بقايا معبد سليمان وأكد لنا أن بقايا معبد سليمان ما زالت هناك، غير أنه لم يدخل في تفاصيل دقيقة، هذا الشخص حصل لنا على موافقة عائلة مسلمة ممكن أن نزورها وأن نرى مسجد عمر من نوافذ بيتهم التي تطل على القسم الداخلي وساحة الصلاة ذات الطابع النفه بطرازه المعماري الجميل، والتي تحتوي على مواضع عديدة لإقامة الصلاة ومنفصلة عن القاعة المرمرية، ومرتفعة عنها بعدة أقدام، ذات جدار به مداخل مزخرفة ذات أقواس أنيقة مسنودة بأعمدة، والدخول عبرها يكون بواسطة عدة درجات.

إن عقوبة الموت تطبق بحق كل مسيحي يحاول أن يدخل المسجد، أو حتى في القسم الخارجي المبلط بالمرمر حيث يقف المسجد في وسطه، أو فرض عليه التحول إلى الديانة المحمدية،

ويقال إن هذه العقوبة أصلاً جاءت منذ زمان محمد ، إذ قيل حينها لو دخل أي مسيحي فناء المعبد المقدس فإن صلاته ستكون مستجابة حتمًا ، وبدون شك أن صلاة المسيحي ستدعو إلى سقوط الإسلام وانتهائه ، لهذا يمنع دخول هذه الطائفة المكروهة ، وبهذه الطريقة يشاركون مصير سكان أورشليم القديمة ويكونون منبوذين على وجه الأرض.

قيل لي إن مسيحيًا استطاع الحصول على فرمان من السلطان بدخول المسجد المحرم ، أخذ الأمر واتجه إلى أورشليم وقدمه للباشا ، وبعد أن أمعن الباشا النظر في الأمر قال له الباشا : صحيح يا مسيحي يجب عليّ تطبيق الفرمان وتدخل المسجد إذا أصريت وأقسم لك بلحية النبي بأنك لن ترى خارجه ، ولكن المسيحي أصر على دخول المسجد ولا نعرف عنه بعد ذلك أي شيء.

الأتراك يؤكدون على وجود صخرة معلقة بين السماء والأرض بمعجزة داخل المسجد.

بقينا نصف ساعة ننظر من خلال النافذة نتأمل المسجد ، بعدها عدنا لتناول العشاء وبعد ذلك أخذنا نتمشى في وادي (josaphas) ، ولقد تأثرت كثيرًا بمنظر النساء النائحات في مقبرة الأتراك قرب (Mount Moria) ، لم يكن نواحهن مجرد تظاهر بل عميق بالأسى، نصبوا خيامهن في المقبرة قرب قبور أحبتهن من الأزواج أو الإخوة أو الآباء أو الأخوات ، جلبن سلالاً من الزهور برائحة حلوة وبخور ، المحمديون يعتقدون أن

الأموات داخل القبور يحسون ويكونون على وعي بالذين يزورونهم من الأحياء.

بقينا نراقب طقوسهم إلى مغيب الشمس وظهور القمر في السماء الصافية الذي حول بنوره عتمة الليل إلى أجواء منيرة، ما أغرانا بتأخير مغادرتنا.

ونحن نتمتع بهذه المناظر الخلابة والهادئة والتي ازدادت بهاء كلما ارتفع البدر في السماء، ليضفي على نقاب النائحات التركيات بياضًا غير أرضي، وجعل البلاطات القاشانية التي تزخرف مسجد عمر تبرق كأحجار من الماس، سمعت في ذلك الهدوء صوت عواء يشبه كلبًا، فزعت من هذا الصوت الفجائي، سألت أصحابي عن مصدره فقالوا: إن الصرخة تنبعث من القبور وإن بعض الأرواح لا تهدأ في قبورها، ولكن بعدما سمعت الصوت يتكرر عدة مرات تذكرت ما حدث لي في لبنان وعرفت أنه صوت الواوي (wawia..).

في اليوم التالي قضيت يومي كله على جبل الزيتون بصحبة مجموعة لا بأس بها تتجاوز العشرين شخصًا، أغلبهم أصدقاء الخواجة، نصبنا خيمنا وتغدينا بعد أن أعد عبيدنا الطعام، وبعد الانتهاء من وجبتنا انزويت في ركن بعيد عن الأصدقاء، ويقع أعلى الجبل ومنه استطعت أن أطل على المدينة المقدسة بكاملها وأخذت أردد بعضًا من مزامير داود بكثير من الحماس إلى أن شعرت بالإرهاق والعطش.

فور عودتي إلى خيمتنا طلبت بعض الماء، ولكن مع الأسف لم

يتوفر إذ أن العبيد كانوا قد أفرغوا مطاراتنا تمامًا استعدادًا للعودة، كنت في منتهى العطش أريد أن أبلل شفتيّ المحترقتين، لم أكن لأستطيع الاستمرار بالرحلة بدون أن أشرب، ووجدت بيتًا لبعض الأتراك قرب المسجد، ذهبت وتوسلت إليهم بأن يعطوني بعض الماء فأمر رب البيت العطوف بالقهوة والشربت والأركيلة، وقبلت ذلك شاكرة، وعدنا إلى البيت بصحبة المجموعة، ولكننا قمنا بعد ذلك بزيارة ثانية ربما الأخيرة في حياتي لمكان صعود المخلص.[١]

وفي اليوم التالي عزَّ عليَّ ترك أورشليم بدون أن أقوم بزيارة إلى الكنيس اليهودي، وذهبت إلى هناك يوم السبت خلال الطقوس، ولقد كنت قد سمعت قصصًا عن البناء الباذخ، ولكن علي أن أعترف بخيبة أملي، إذ أن مظهره فقير ومعدم، وأنه يبدو أفقر من المعابد اليهودية في أرض الكلدان[٢]

---

(١) تأخذ موافقة لتقضي ليلتها في كنيسة القيامة وتصلي لراحة نفوس والديها والمؤمنين والمنشقين والمسلمين... الخ.

(٢) تواصل تحسرها على البناء المتواضع للكنيس اليهودي وتقارنه بما كانت عليه أيام سليمان، كما وتتذكر أهمية الكتب المقدسة لدى اليهود والمسيحيين وتعظيمهم لها وحفظها في مكان بعيد عن الكتب الدنيوية، وتعود بها الذكرى إلى أيامها في فرنسا حيث تحدث إليها أحد الفلاسفة قائلاً إن الكتاب المقدس ما هو إلا كتاب نابع من الخيال وإن أكثر قصصه مزيفة، وتصاب بالخيبة والألم لنكران هذا الرجل لكل ما تؤمن به.

بعد أن تزودنا بكثير من مسابح الصلاة والصلبان لكي نوزعها كهدايا على أصدقائنا المسيحيين ، ودعنا الخواجة وزوجته ، السيدة سوسن (Susan) خاتون ، مرافقتي من بغداد. قررت البقاء بضعة أيام أخرى في أورشليم، وزودنا الخواجة برسائل توصية إلى الخزندار في (عكا) ، وكذلك الأشخاص بنفس المنصب في منطقة الناصرة وصيدا.

التحق المطران دبير اسطفان أيضًا مرافقنا أنا والسيدة من بغداد بالقافلة التي تكونت من ثلاثمائة شخص، سنتوجه إلى الناصرة وجبل الكرمل في طريقنا إلى لبنان. استأجرنا فرسين لنقلنا وبغلين لحمل أثقالنا من الخيام والمتاع، دفعنا خمسين بياستراس (piastres) لكل حصان ، وثلاثين لكل بغل ، تتضمن أجور القاطرجية (Katerchia) الذين واجبهم تحميل وتفريغ حمولة البغال ونصب الخيام وحلها وملء المطارات بالمياه، بالإضافة إلى القاطرجية استأجرنا خدمًا لطهي الطعام والقيام بخدمتنا.

تزودنا بالباسطرمة والقاورمة [١] وجبنة من قبرص، وهي لذيذة الطعم عندما تشوى على النار ، وكذلك بالرز والتمر والضروريات الأخرى ، وعندما نصل إلى القرى نتزود عادة بلحم الخراف والدجاج الذي يطهى أو يشوى على الفحم.

عند وصولنا يافا سمعنا إشاعات بأن الوباء قد انتشر هناك، لذا

---

(١) تشرح كيفية تحضير الباسطرمة والقاورمة.

قررنا البقاء خارج المدينة وعدم دخول أسوارها بل أن نخيم بالحقول القريبة منها ، زارنا أصدقاؤنا الذين وصلتهم أخبار وصولنا مصطحبين معهم الهدايا المناسبة مثل الخراف والدواجن وكميات وفيرة من فواكه يافا المجففة التي تستحق أن تكون من طعام أهل الجنة ، وكذلك البامية و(artichokes) (ويعني الأرض الشوكي) وحجمه بحجم القرعة. وكذلك بعض الخضروات الأخرى، إن يافا تنتج ما لا يقل عن اثنين وثلاثين نوعًا من التين.

لا بد أن الشعور الأخوي قد استمال حتى المسيحيين إلى القدوم شخصيًا والاتصال مع الآخرين من مناطق موبوءة ، إذ أن لا شيء يضاهي الوقاية التي يتخذونها بعزل أنفسهم في بيوتهم ورفضهم الاتصال كُليًا مع العالم الخارجي ، وقبل أن تسد أبوابهم يخزنون الماء بكمية بخزان كبير وكل شيء من طعام وغيره يوضع في الماء لكي يستطيع أهل البيت استعماله، كل الفتحات والشبابيك تغلق بإحكام حتى لا تستطيع قطة النفاذ ودخول أي بيت.

إن عزل المسيحيين أنفسهم خلال الأوبئة لا تعرضهم لخسارة الأرواح، في حين أن الأتراك لا يبالون بطرق العزل الصحي، فيصيبهم الوباء، كما وأنهم لا ينقطعون عن الذهاب إلى مقاهيهم ويسلمون أمرهم إلى الله كُليًا ، وكم سمعتهم يرددون قول (نصراني كافر يهرب من انتقام الله (Nasrani Kafir! Yehreab min entikam Allah)

وهل الحيطان الحجار تقدر تخفيهم من القادر على كل شيء hal heitan elhijar takdar tekhfihom min Elkader)
(ala kuleshei

زارنا الخواجة يوسف وقت العشاء وكنا قد وجهنا له الدعوة، والذي ضيفنا على أحسن ما يكون ونحن في طريقنا إلى أورشليم، جاء مع زوجته وبعض من أصدقائه، وكنا مجموعة كبيرة نسبيا تتألف من خمسة وعشرين شخصًا ، وجدنا من الصعوبة أن تحتوينا خيمنا، لذا قررنا أن نختار مكانًا جميلاً في حقل مجاور وفرشنا هناك مائدتنا، ذبحنا خروفين وكمية غير قليلة من الدواجن، وبذلنا جهدنا لنقدم لضيوفنا أوقاتًا مسلية، ولغبطتي جلب الخواجة يوسف علبًا شهية من حلويات من السما (manna)، وهو من النوع الأصلي الذي يسقط من السماء على الأشجار مثل الثلج في شهر نيسان وأيار ، وهي من لذائذ الأطعمة التي لم أذقها منذ أن تركت بلدي وكانت مفضلة عندي وتشكل مادة رئيسية من غذائي.

ما تبقى من الوليمة قدمناه للبدو الذين في الجوار وودعنا الضيوف ونحن نتبادل التبريكات، ويتمنى كلٌّ للآخر سلامة الوصول.

في اليوم التالي صحونا قبل شروق الشمس، وعند شروق الشمس كانت القافلة في هرج ومرج الاستعداد، الخيام تطوى، والجمال تحمل، والخيول تسرج لنتجه إلى جبل الكرمل.

بعد مسيرة عشر ساعات نصبنا خيامنا ليس بعيدًا عن قرية

(MUKHALLID) التي تبدو معدمة، وفي أسوأ حال تمامًا، هنا نشرنا سجادنا لنرتاح من الإجهاد وبانتظار وجبة العشاء.

بعد العشاء بان البدر بكامل جلاله في السماء الصافية، والبحر هادئًا بدون رقرقة ولا صوت يخدش سكون هذه الليلة الندية، جلسنا بهدوء ندخن أراكيلنا إلى أن أنهى البدو القاطرجية عشاءهم وأخذوا كالمعتاد يتسلون برواية الحكايات والطرف، التي تعقبها ضحكات تدل على أنها ذات مغزى.

بعد ذلك بقليل انتقلوا إلى حقل مجاور وأخذوا بالرقص وغناء أغنيات من أشعار غزل عنترة المشهورة، وبقيت أنا في عزلتي أدخن وأتمتع بنرجيلتي.

واحد منهم كان من دمياط يغني بأجمل صوت سمعته في حياتي يحمل نبرة حزن رقيقة أعاد لي ذكرياتي مع أصدقائي وأهلي الذين نزعت منهم إلى الأبد [١].

في صباح اليوم التالي واصلنا سيرنا ووجدنا أنفسنا في سهل خصب مغطى بالنباتات المنشورة عليه كسجاد سندسي أخضر منعش. على يميننا وادي طويل يمر من ساحل البحر إلى الداخل حيث أشير إلينا لنرى (Belled el Sheikh Mossa) والتي تقع على مرتفع، الجمال والأبقار وقطعان الماشية منحت الحياة لهذا المنظر الباسم.

---

(١) هنا تترجم الشعر الغرامي إلى اللغة الإنجليزية ولكنها لا تذكر لمن القصيدة.

تركنا هذه المناظر الجميلة ونحن في أسى واتجهنا إلى الصحراء اليابسة التي بدون أثر ، عبرنا (Min Tabos Aboora) وبعد أربع ساعات وصلنا القيصرية (Kissarie) ، وهي نفس القيصرية القديمة (Cesarea)، ولم نشاهد أي سكن مثلما يحدث عادة في المدن القديمة في الشرق، إذ تبقى خرائب فقط، إلا من بعض العرب الرحل مع قطعانهم، وقد خيموا قرب أكبر حائط من تلك الخرائب، والتي يبدو أنها كانت قلعة شاهقة.

ثم واصلنا رحلتنا لمدة حوالي الساعتين ووصلنا إلى قرية صخرة مقطوعة (Sakhra Maktouah) اكتسبت اسمها من بقايا آثارية صخرية والمفروض أنها كانت موطنا للكنعانيين.

استقبلنا شيخ القرية بالطريقة التقليدية وبكثير من الكرم والحفاوة وقدم لنا الأراكيل وصحن طعام لذيذ مصنوع من الطحين والزبدة والعسل ، الشيخ كان من منطقة صحراوية قريبة من بغداد ، تبادلنا الأحاديث ، وجدنا فيضا من المواضيع ذات الاهتمامات المشتركة التي تجمعنا.

قال الشيخ لي وإلى رجل آخر من المشاركين في قافلتنا وهو من الموصل بوجود الأطلال التي تستحق المشاهدة وبمسافة قصيرة عن القرية، واقترح علي مرافقي أن نذهب لرؤيتها ونحن في انتظار إعداد الطعام الذي يعده لنا الطباخون.

وبما أننا قد أخذنا موافقة الشيخ، اتجهنا نحو الأطلال ووجدنا أنفسنا في مكان مليء ببقايا بنايات معمارية قديمة، وكما بيّن لنا الشيخ بأن البناء المعماري الكبير كان معبدا للحطيين وخلال

فترة الحروب الصليبية إلى كنيسة، توجهنا إلى المبني المحاط بكثير من الخرائب، وكان هو المبني الذي أشار إليه الشيخ في حديثه. دخلناه ووجدنا أعدادًا من الطيور بريش جميل جدًا ، صدورها حمراء وقسم منها أزرق. ولدهشتنا وجدنا بعض الفتيات الشابات وهن يقمن بحياكة السجاد.

عند مغادرتنا المكان وجدنا تسعة أو عشرة رجال بأشكال مخيفة وقد سدوا علينا الطريق الذي دخلنا منه إلى هذه الأطلال، كانوا بكامل سلاحهم، ومن الواضح أنهم لا يريدون السماح لنا بحرية المرور، وبما أننا قد أخذنا موافقة الشيخ لذا قدمنا إلى هنا بدون حماية وتقريبًا بدون سلاح معتمدين على التأكيدات التي تلقيناها، بأن لن تعترضنا أي خطورة، كنا نحمل الخناجر التي لن تثير الرعب في هؤلاء الذين قد تسلحوا تمامًا.

عندما اقتربنا منهم طلب رئيسهم أن نسلمه كل ما نحمله من ثمين، مؤكدا لنا بأننا لن نتعرض لأي أذى إذا فعلنا ذلك بهدوء وأنهم سيسمحون لنا بالمغادرة بسلام إلى خيمنا التي لا تبعد كثيرًا عن القرية، إلا أنها على مسافة بعيدة من الأطلال، ولهذا فإنه لا فائدة من التفكير بطلب المساعدة وأن السراق قد أقسموا أن تكون الأطلال قبورنا إذا رفضنا الاستسلام إلى مطالبهم.

مرافقي مال إلى المقاومة ولم يفهم احتجاجي بأن المقاومة لن تجدي أمام هذا العدد الكبير، ولم نرد على تعرضهم لنا، ثلاثة أو أربعة منهم تقدموا منا شاهرين خناجرهم ومرافقي استل خنجره (Hanjar) مستعدًا للدفاع عن نفسه، ولكنهم تغلبوا عليه

بسرعة وتبعته أنا في استلال خنجري، إلا أن كلانا نزعت منا خناجرنا بسرعة، بقينا تحت رحمتهم وسلمت نفسي كُليًا للضياع ولكن السراق اكتفوا بسلبنا كل ما نملك وأخذوا حتى ملابسنا وتركونا بملابسنا الداخلية فقط، وكان هذ مراعاة جيدة منهم لتركنا أحياء.

سرقوا مني عشرين (rebaieh) (١) وهي قطع نقدية صغيرة من الذهب تعادل خمسة فرنكات، وما أحزنني أكثر أخذهم خنجري الذي كان بمقبض من الفضة وبزخارف جميلة، وبعد أن أخلي الطريق لنا، سرنا ونحن نعرج بشكل خفيف لأننا كنا حُفاة، والطريق إلى القرية مليئة بالحجارة التي جرحت أقدامنا خلال سيرنا، أخذوا عمامتينا اللتين تحميان رأسينا وتركونا حاسري الرأس، ومن شدة حرارة الشمس أخذ شعرنا يحمى وكأنه يحترق.

عندما علم الشيخ ببلوانا ثار غضبه بدون حدود، سرج فرسه واثنين آخرين لي ولمرافقي وأمر عددًا كبيرًا من أبناء قبيلته والذين كانوا بالجوار للركوب وأن يسرعوا معه إلى الموقع الذي نهبنا فيه، وصلنا الأطلال ولم نجد أي بشر، ولكننا سرنا في دائرة أوسع وأخذنا نبحث في محيطها، حينها وجدنا السُّراق وهم جالسون يقتسمون الغنيمة فيما بينهم، أظهروا بعض المقاومة المفتعلة، إلا أنهم حالما نظروا إلى رئيس قبيلتهم حتى

---

(١) لم أجد ترجمه عربية واضحة لهذه القطعة النقدية ، ربما "ربعية".

قدموا له فروض الطاعة، أعيدت لنا كل الأشياء التي سرقت منا إلا أنني رفضت أن آخذ العشرين قطعة من الذهب وطلبت منهم أن يحتفظوا بها.

عدنا إلى خيامنا برفقة الشيخ الذي أبديت له شكري الحميم لتدخله الرؤوم، وعبرت له عن أسفي لأنني لا أملك أي شيء ثمين لأهديه إياه، فكل ما أملك في لبنان مع أصدقائي، ولكنني وعدته بأن أرسل له هدية مناسبة حال وصولي لبنان، إلا أنه رفض ذلك وأقسم بلحيته بأنه لم يفعل أي شيء أكثر من أداء واجبه المقدس بإعادة الحق لأصدقاء شاركهم الخبز والملح.

نساء هذه القبيلة طويلات القامة ممشوقات بشعر طويل يصل ركبهن، ولكنهن يشوهن وجوههن بوضع حلقة كبيرة في أرنبة أنوفهن، لا يرتدين أي شيء (ربما الحلي) في صدورهن وردائهن يتألف من القميص الأزرق مربوط على وسطهن بنطاق من الجلد الأسود.

عند عودتنا إلى خيامنا وجدنا أصدقاءنا في حالة من القلق علينا لتأخرنا وغيابنا الطويل ، حكينا لهم عن مغامرتنا وشكرنا الله على نجاتنا ، خلدنا للراحة بعد إجهاد ذلك اليوم.[١]

عند اقترابنا من قصر الأمير بشير دهشت لمظهره الفاخر فقد كان له سطح واسع جدًا قائم على عقود تتقاطع الواحد فوق الآخر وكأنها سعف نخيل كثيفات ، وما إن شرعنا بتأمل هذا المنظر الذي بدا أمامنا حتى تقدمت منا مجموعة من الفرسان ، أبلغنا رئيسها بأنه قد أرسل من قبل الأمير لمرافقتنا لمبتغانا ، إلا أنه اتجه باتجاه معاكس ، مارا ودائرا حول قاعدة الجبل حيث يقبع قصر الأمير ، وسار قائد الفرسان متجها إلى بوابة سرية ، تبعناه وأدخلنا الحرس.

استقبلنا مملوك كبير السن وقور ، قادني عبر ساحة وقرع الباب

---

(١) هنا تتحدث عن الطريق ومتاعبه وما صادفها وهي في طريقها إلى لبنان وفي الوقت نفسه تزور الأماكن الدينية ، لذا سأذكر أسماء المناطق والمواقع حسبما ذكرتها وبتسلسلها ، كما وتذكر قصصًا من العهد القديم مرتبطة بهذه المواقع ، وتشير إلى أنهم شاهدوا عن بعد أو مروا بهذه الأماكن :

(Khallat el Ateek ،Wadi el Ajal ،well of Terfoon ،Wadi el Ajal ،Vellage Etleery ،Convent on Mount Carmel ،grotto of Elias ،Nazareth ،Tabarieh ،Mount Thaboor ،Village of Debbora ،Hermon. Brook of Cison ،Plain of Gallille ، Lake of Genesareth ،south east tword Jordan ،Jisr Yacoob ،sea of Galilee Tomb of Ibn lakman(the author of the Arabian night.!)St. jean of D Acre. Deir Elkamar and Beteddin.).

حيث فتح واقتدت إلى غرفة حيث استقبلتني مملوكتان بيضاوتان قادتاني عبر قاعة رحبة رائعة محاطة بأقفاص الطيور المغردة وفي وسط أرضيتها المرمرية الصقيلة نافورة جميلة أنيقة التصميم، تنث المياه الرقراقة الصافية البلورية من أفواه أسود ضخمة. وفي الإيوان الذي يقع في نهاية هذه الرحبة كان هناك شرفة واسعة جدًا تطل على الطريق الذي قادنا إلى القصر من أسفل الوادي، الشرفة محاطة بداربزين ومليئة بالزهور العطرة أرضية الإيوان مغطاة بالسجاد العجمي وفي وسطه يوجد المسند (Musnad) أو الدواشك بارتفاع ستة عقد مغطاة بقماش الحرير القرمزي المطرز ، السقف مزخرف بزخارف معينية الشكل ملونة ومذهبة، الجدران مرسومة عليها ورود بطريقة الأرابسك (الرقش) وأعتقد أن هذا من عمل فنان من دمشق.

في الجهة اليسرى من الإيوان هناك باب يؤدي إلى غرفة واسعة مزخرفة بشكل رائع بأقمشة من الحرير معلقة على الجدران، في حين أن في الجهة اليمنى مخدع أنيق مغطى بالحرير الأصفر يطل على منظر لبناني رائع، من النافذة حيث لا نهاية للجبال والوديان التي تظهر نفسها للرائي بكل أنواع المؤثرات اللونية والضوئية والظلال، أدخلت إلى هذة الغرفة وحضر عدد غير قليل من الجواري البيضاوات اللواتي جلبن الماء مع المناشف المصنوعة من أقمشة راقية المطرزة حافاتها بخيوط مذهبة.

بعد الاغتسال، واظبت هذه الجواري على تعطيري بماء الورد

والبخور الموضوعة في أواني من الفضة تشبة تلك التي تستعمل في الكنائس لرش المتعبدين، اثنتان منهما حملتا منشفة كبيرة غطتا رأسي بها لمنع الروائح والبخور من التسرب، الثالثة تهز المبخرة للأمام والخلف والرابعة ترشني بماء الورد.

عندما انتهين جلبوا لي القهوة والنرجيلة المعطرة، التي ملأت الغرفة بضوع محبب، بعدها تركوني لوحدي لمدة ساعتين من الساعة الحادية عشر صباحًا إلى الواحدة بعد الظهر، حينها قضيت أجمل ساعتين، إن اللواتي قدمن لي خدمة الاغتسال تركن فيّ الأثر المنعش... واستطعن محو الإنهاك والحر والهزات والرجات التي عانيتها من الطريق الوعرة.

في غرفتي الظليلة انتشر ضوع الزهور العطرة المتجددة الذي تجلبه ريح الصبا من البحر المتوسط محل رائحة البخور التي تسربت واختفت.

وبعد أن عانيت من حرقة وهج الشمس وقرقعة حوافر الخيل على الجحارة المتناثرة وصياح القاطرجية خلدت للهدوء والسكينة ولسماع تغريد الطيور، وخرير مياه النافورة.

إن الإحساس بالهدوء ومعرفة بأنني بحماية الأميرالذي يبسط ذراعيه لحماية كرامة المسيحيين ويتيح لهم المجاهرة بما يؤمنون بدون خوف، كل هذا جعلني أشعر أن الساعات ما هي إلا دقائق. شكرت الله على نعمته العميمة بمنحي أنا المتشظية هذا الفردوس المبارك.

بعد مرور ساعة أخذت أتجول حول الفناء المرمري الذي كان باردا وظليلا ، بعد أن أمضيت وقتًا قصيرًا على السطح عدت إلى مخدعي حيث وجدت الأمير بشير والأميرة يبحثان عني.

لم أتمالك نفسي من الشعور بالمهابة لدرجة الرهبة عند الاقتراب من هذه الشخصية الجليلة ، الذي بدا مظهره لي يدل تمامًا على الفكرة التي كونتها في خاطري عن النبي إبراهيم.

بسيماء منورة بالرحمة واللطف والتعاطف اقترب الأمير مني وبعد المجاملات المعتادة (Ahlan w sahlan..). و(halat elbaraka fikum ، Al beit beitki w lumer umraki) ، وبعد أن واساني الأمير عما حلَّ بي من مآسٍ وبعائلتي ، أخذ يسأل عما أريد مستقبلاً ، شكرته بحرارة لتعاطفه الكريم الذي غمرني به أنا التعيسة، أخبرته بأن رغبتي كانت ومنذ زمن بعيد أن أنعزل عن الدنيا وأغلق نفسي في دير حيث سأنهى أيامي بسلام ، ولكن إلى الآن يبدو أن الله يريد أن يحبط رغبتي هذه ، بما أن الحكمة الإلهية وجدت أنه من الأفضل لي لن أكون تحت حماية الأمير الذي هو في الشرق بمثابة سفينة الإيمان تعوم في مياه عاصفة وواسعة ، بوسط التعصب الأصولي المظلم حيث يجب أن يتشبث المؤمن بإيمانه كي ينجو ، فإن نهاية أحزاني وجنة آمالي تبدو في المدى ، وأنني على ثقة بأنني تحت رعايته سأنهي أيامي بسلام في أحد أديرة لبنان.

الأمير أقنعني بالعدول عن متابعة هذا الأمر ، وبكرم منحني مأمنًا في قصره كمرافقة للأميرة إذا ما نبذت قراري ، مؤكدا لي

بأنني تحت سقفه سأجد متسعًا رحبًا لممارسة الفضائل المسيحية كما أجدها في أي دير أو معتكف، إن صراحة وإخلاص الأمير الواضحين ، بالإضافة إلى المهابة التي يتمتع بها أقنعتني أن كلمته كلمة حق، وبدون أي تردد وبشكر عميق قبلت ما عرضه علي.

جُهز مكتب لي بسرعة لتولي مهام ومنصب المرافقة الأولى للأميرة (كهية / kekhea) ، خصص لي شقة خاصة في الحريم قريبة من مكان الأميرة ، وفوق الإيوان وتبعد عن الغرف المخصصة للإدارة حيث كان يستقبل الأمير بشير مجلسه الذي منه يدير أمور حكومته.

الطارمة (tharma) التي تحيط بجناح الأميرة كانت واسعة على جانبها باب يطوى ويطل على الساحة، كان يغلق فقط في الشتاء يؤدي إلى السطح العريض حيث كان الأمير والأميرة يقضيان أوقاتهما بعد الظهر. إلى اليسار باب يفضي إلى جناح الأميرة وإلى اليمين باب يفضي إلى مصلى كنسي مسيحي، حيث الأمير والأميرة وبسرية يمارسان شعائرهما كل يوم ، مفتاح هذا المصلى أودع في عهدتي بعد فترة قصيرة من سكني في القصر والتعليمات تقتضي بأن يبقى الباب مغلقًا تحسبًا من زيارة تقوم بها للأميرة بعض السيدات الدرزيات أو التركيات.

لم يكن يمضي أسبوع بدون أن تزورنا هؤلاء النسوة، وأحيانًا تصل أعدادهن إلى الدرازن (دزينة) ويمضين على الأقل أسبوعًا في الحريم وأغلبهن فضوليات، ولا أحسب ذلك بغريب

على طبع المرأة ، اذ كنت أرافقهن إلى جناح الأميرة وكن يستفسرن عن ما موجود في الشقة التي على اليمين، كنت أرد عليهن بأنها تحتوي على ذخيرة ومجوهرات تعود للأمير، الذي كان فيه يحفظ الأمير كنوزه، في كثير من الأحيان كنت أرسل له ما يطلب عندما كان مشغولا في بعض الرحلات.

كنا نشعر بالتكريم عندما تزورنا تلك النسوة، قسم منهن من عائلة الشهابي، منهن من عوائل شيوخ الدروز والمارونيين والمتوليين واليونان والأتراك أصحاب السطوة،

ومن مدن مجاورة مثل بيروت وعكا ودمشق، كنا نمضي أوقاتنا بالتمشي في الحدائق وبالأكل والشرب وتدخين الأرجيلات ، ويومان من الأسبوع مخصصان للحمام.

مما جلب اهتمامي أن النساء الدرزيات لم يأكلن مما يهيّأ من ولائم من مطابخ قصر الأمير، بل كن يأكلن من طعام يطبخ من قبل خدمهن اللواتي كن يجلبن معهن سلالاً مليئة بالدجاج المحمر والمناقيش [١] وكلما كنت أقدم لهن صحنًا من أطيب المأكولات كن يرفضن ذلك بإصرار.

وبعد فترة بعد أن وطدت علاقتي بواحدة منهن سألتها عن السبب، قالت لي بأن دينهن يمنعهن من تناول طعام قد هيئ بأيادي غريبة، أثار هذا الرد استغرابي، إذ إنني قد رأيت

(١) تشرح ما هي المناقيش.

الدروز في رحلاتي وهم يأكلون في بيت أغا مسيحي، وعندما أخبرتها بذلك اعترفت لي بعد أن وعدتها بعدم البوح بأن الأمير كان يعتبر من قبلهم مرابيًا يتعاطى الربا، وهذا سبب امتناعهن عن تناول الطعام.

لقد صدمت حقًا لما قالت من رأي غير مسند وغير صحيح بحق الأمير، ولقد تجذر في عقول الرعية وحاولت بكل ما أستطيع أن أزيل هذا السخف من صدر رفيقتي وقلت لها إن سيد الجبل يأخذ الضريبة (الميري....miri) وإلا كيف سيكافئ العادل ويفرج عن الفقير ويحاسب الظالم والعنيف؟ أليست كل أعماله لإشاعة السعادة والاهتمام بمصالح الذين تحت سلطنه؟ لمدة ثمانية قرون الشهابية قد حكمت وهيمنت في لبنان، يحكمون بالعدل والرحمة وكيف اذًا يطلق عليه الدروز لقب المرابي؟ لو خلع عن العرش كيف اذًا سيُكسى العاري؟ وتجار دير القمر لمن سيزودون الألبسة التي يدفع حسابها الأمير؟ والجائع كيف سيطعم ولمن تبقى مواقد مطابخ الأمير موقدة؟ أليست ترسل كل يوم الحاجيات اليومية من الخراف السمينة المذبوحة والرز الكثير كل هذه العطايا لمن تعطى؟ تبقى مواقد المطبخ مشتعلة لكي لا يرد أحد طاويًا، هؤلاء العُراة والجياع الأرامل واليتامى، الذي وحده بكرمه يحافظ عليهم من الهلاك، الندم سيكون مُرًّا في اليوم الذي يزاح فيه عن العرش.

بالإضافة إلى هذه المساجلة أخبرتها أن تأخذ في الحسبان العبيد الذين يشتريهم بأسعار عالية ويعتقهم ويرسلهم إلى أوطانهم

وبيوتهم إلى والديهم وأصدقائهم هذه الحقائق مشهورة بين سكان لبنان.

كل هذا صحيح، قالت لي، الأمير عادل ورحيم أرجو من الله أن يطيل حكمه ويمنحه فترة طويلة ليحكمنا، ولكن من أنا لتحتقر ما يعلنه العقال (Akhal)؟ إن أسباب محاججتي كانت مقنعة ولكن الدواجن الدرزية[1] بقيت تغذي صديقتي.

بعد العشاء عادة نأخذ النرجيلة والقهوة في الطارمة (Tharma) كنا نتسلى بما تقوم به الإماء الزنجيات اللواتي يخدمن الأميرة، إذ يؤدين رقصات عجيبة غريبة ومضحكة لنزع ابتسامة من المشاهدات (إن التقاليد في الشرق تقتضي بعدم ضحك النساء، لأن ذلك يعتبر إساءة للأصل العريق)، أما بقية الأفريقيات (الزنجيات) واللواتي أقل موهبة فكن ينثرن الماء على أرضية الطارمة المرمرية لتلطيف حرارة الجو.

من أجل تنويع التسلية مرة من المرات، وبالاتفاق مع الأميرة، دبرت حيلة وكان من الممكن تقريبًا أن تنتهي نهاية غير سارة بالنسبة لي، في يوم حين كانت النساء يتمتعن بنارجيلاتهن بعد العشاء تركت الغرفة ولبست أفخر ملابس الأمير مع الصدرية والجاكيتة من الحرير المذهب وشروال وردي اللون وعمامة من الموسلين الفاخر مزخرفة بآلاف الزهور بألوان مختلفة مع

---

(١) تورية عن العقال.

شال فارسي غال جدًا وخنجر مرصع بالجواهر، وفجأة اقتحمت الغرفة بمشية رجالية مختالة حسبما استطعت تخيله.

النساء المجتمعات، عندما رأين رجلاً، كما افترضن، بوقاحة يقتحم محضرهن، كلهن من درزيات وتركيات والأخريات وقفن سوية وبقوة صرخن بخوف مناديات بصوت مرتفع بطلب المساعدة، مما جعل الأميرة تنشرح بمرح إذ إنها كانت على علم بالسر.

وبدون مبالاة للأحاسيس التي أثارها حضوري مشيت ببرود باتجاه حلقة من النساء، جلست بالقرب من إحدى قريبات الأمير من العائلة الشهابية لاحتضانها، هذه المحاولة حولت المسألة إلى أزمة، السيدة بدت تصرخ عاليًا وهرعت نحو الباب ووجهها قد اصطبغ باللون القرمزي، في تلك اللحظة فتحت الباب اثنتان أو ثلاثًا من عبداتها الزنجيات اللواتي جئن ليستطلعن سبب الاضطراب، وكلهن استطعن أن يلمحنني ما جعلهن يشاركن في الصراخ مع البقية وسريعًا وبتعجل واندفاع اختفين، في الوقت الذي كنت أهنئ نفسي على غرابة ما قمت به، وما بدا من ذعر سببه مظهري لضيفات الأميرة اللواتي وهن في تشتتهن وبكثير من العجالة غطين وجوههن وقد استدرن نحو الحائط، إلا أن حارس الحريم وهو رجل كبير السن مهيب بلحية بيضاء ولكنه بقوة الأسد، وطوله يتجاوز الستة أقدام والذي أخبرته الجواري الزنجيات بما قد حدث، اقتحم الغرفة رافعًا سيفه وتقدم مني ممسكًا بي من ياقتي الصدرية وهو يصرخ يا كلب الرجال ya

kalb al rajal ما الذي تفعله في الفناء المقدس للسراي.

الأميرة كانت تغص بالضحك لهذا التطور غير المتوقع ، ما جعلها لا تستطيع أن تنطق بكلمة ، مسك الحارس برقبتي بيده الحديدية وكنت على وشك الاختناق ولم أستطع أن أتفوه بجملة، وبعد أن تحول الأمر إلى وضع خطير وجاد أخذ الحارس يلوح بسيفه في الهواء ،عاد للأميرة نطقها وشرحت له الأمر ، ثم طلبت منه الانصراف، أما النساء فبعد أن صحين من الصدمة والخوف ضحكن من صميم قلوبهن، ولكنني لم أجد ما يضحك، عندما وجدت نفسي وقد تحررت من قبضة الحارس شكرت الله على نجاتي وقررت ما بين نفسي ، ألا أقوم بمثل هذه الخدعة وأتنكر بملابس الرجال بالمستقبل أبدًا.

في بعض الأحيان كنا نسلي أنفسنا في المساء بإقامة عرض مسرحي، وفي إحدى المناسبات أخذت على نفسي مهمة إعداد هذا النشاط، ومن أحد هذه النشاطات قدمت نصا مستندا على زيارة بلقيس ملكة سبأ للنبي سليمان.

مثلت أنا دور سليمان وارتديت ملابس الأمير بشير الفخمة الأنيقة التي يلبسها أثناء الاحتفالات والتي هيأتها الأميرة لي، لتطمئن نفسي أخبرنا الحارس بألا يندفع بعنف داخلاً الحريم مهما يسمع من أصوات وصرخات ستطلقنها الزنجيات بدون ريب، الأميرة أدت دور الملكة بلقيس التي كانت متعطشة لتنهل من النبع الرئيسي، من نافورة مياه المعرفة والحكمة لسليمان، وكانت الأميرة في منتهى البهاء في دور الملكة، اكتست بأجمل

ما تملك من الملابس وتزينت بأجمل المجوهرات، وحتى لو كان مظهرها يعكس نصف سحرها، لا بد أن الملك سليمان كان سينسى حكمته وهو يحتوي وجهها الجميل.

اخترنا لمسرحنا أكبر الصالات في الحريم وجلست على عرش يرتفع عن الأرض بستة درجات مغطى بأقمشة ثمينة، والأميرة اقتربت من مكاني المهيب تتبعها نساء حاشيتها وهن يرتدين أجمل الثياب ويحملن الهدايا كثمن لقاء ما ستتعلمه بلقيس ملكة سبأ.

الغرفة المزوقة، الملابس الرائعة للأميرة، والنساء الدرزيات بأزيائهن المميزة منها خاصة غطاء الرأس الذي يشبه القمع والمصنوع من الذهب والفضة وارتفاعه ما يقارب القدمين وقياس قطر قاعدته حوالي ثلاثة أو أربعة إنشات، وهذا الغطاء عادة مطعم بالجواهر والأحجار الكريمة، بالإضافة إلى ضيفات الأميرة وهن يدخن النرجيلة المزخرفة، والجمهور المشاهد مع تقديم العرض المسرحي جعلت المنظر رائعا، ومن الصعوبة نسيانه وتجاهله.

من بين المشاهد كان هناك مشهد يتضمن وجود حمامة وقرد، وأدَّى القرد دوره على أفضل ما يكون وحاز على إعجاب وتصفيق الجمهور أكثر من أي ممثل آخر، إذ إنه ما إن تقدم من الملك حتى جثم على الارض، ثم قبَّل الارض، بعدها نهض ووضع يده على فمه ثم على جبهته وبعدها على قلبه كما يفعل الإنسان في الشرق عادة... هذا التصرف اللائق والمحترم قوبل

بكثير من الاستحسان والتصفيق من المشاهدين، والذي لم يفقه سببه بأي شكل من الأشكال الممثل الذي أدى هذا الدور بكثير من الكرامة والأنفة.

هذه التسليه كانت مصدر حبور لتجمعاتنا، تسلية بنيات طيبة وحسنة بالإضافة إلى المرح. بمناسبات مختلفة كان للشطرنج أو لعبة الفناجين (تشرح لعبة الفناجين حيث يخبأ خاتم تحت أحد الفناجين ويقّسم اللاعبون إلى فريقين لمعرفة تحت أي فنجان يوجد الخاتم)، بمثل هذه التسليات كنا نقضي آماسينا بانبساط.

بالإضافة إلى ما سبق فإن السير في الحدائق والذهاب إلى الحمام هي المتعة القصوى للنساء الشرقيات، مثلما تتمتع المرأة الغربية بالحفلات الراقصة، وأنا هنا أتكلم عن خبرة لا عن جهل.

عند عزم ضيفاتنا على المغادرة، وحسب الأصول الشرقية، يمنحن الهدايا وفقًا لموقعهن ومركزهن، لقد رأيت حزمات من الماس وخواتم ثمينة توزع على النساء المميزات، في حين أن اللواتي أقل مركزًا يمنحن عشرين ذراعًا من الحرير المذهب لخياطة ثيابهن. والوصيفات يحصلن على كمية من الأقمشة من النوعية الأدنى، لذا فالزيارات لبيت الدين تكلف الأمير والأميرة أكثر كثيرًا من مجرد دماثة الخلق القليلة التكاليف، كما ومن الممكن تخيل أن من نودعهم كانوا حميمين وبشخصيات جذابة.

إن الأمير بشيرًا كان يُبقي عددًا من الموسيقيين في قصره، يروحون عنه بالموسيقى خلال ساعات فراغه من عناء إرهاق

أعبائه الحكومية ، بالغناء والعزف على الناي والقيثارة وفي الأعياد الكبرى كانوا يقفون خلف عرش الأمير ينشدون أغاني الشكر والمديح ويتغنون بفضائله ، وأحيانًا أخرى لمديح زواره الذين يستحقون التكريم.

بالإضافة إلى شيوخ الدروز وعوائلهم الذين كانوا من الزوار المنتظمين كان يزور الأمير والأميرة شيوخ المتولية و (Anzaries) والذين كانوا وما زالوا يجلبون زوجاتهم معهم لتقديم الاحترام للأميرة.

إن المتولية هم محمديون من جماعة علي أي الشيعة ، عادة يستهجنون جماعة عمر من السنة ، يرفضون تناول الطعام مع أحد إلا مع أصحاب عقيدتهم ويرفضون أن يلمسهم أحد غير مؤمن أو أن يلمس أي جزء من ملابسهم ، وهم معتكفون عادة في جبل لبنان قرب بعلبك ويتواجدون هناك بأعداد كبيرة ، وكذلك يتواجدون في منطقة تقع بين صور وصيدا حيث يقع قصر السيدة هستر في (Dijion) والذي منحها اياه الباشا عبدالله ، السيدة هستر رممت ورتبت القصر بذوق عال وصممت حدائقه على الطراز التركي.

رغم أن المتولية لا يأكلون مع الكفار إلا أنهم في غاية الكرم بالنسبة للغريب من كل الطبقات الاجتماعية ، إلا أنهم يكسرون ويحطمون الأواني التي أكل منها أو شرب بها كل من لا يتبع مذهبهم.

إن الأمير يستخدم في وظائف عسكرية أو مدنية عددًا غير قليل

من الذين يتبعون هذا المذهب ، إلا أنهم يختلطون ويأكلون مع الجميع ، ولقد تغلبوا على عادات طائفتهم ، وبحرية يشربون ويأكلون مع زملائهم ومرافقيهم ، إن المارونيين والدروز وبقية سكان الجبال ينظرون بازدراء إلى المتولية.

نعرف القليل عما يدور في خيام (Anzaries) ، فإن أهل هذا المذهب مثل الدروز يخفون طقوسهم التي يمارسونها عن المجدفين ، ولا من شك بأنهم من عبدة الأوثان ، إنهم يعبدون الكلب ونهر الكلب عندهم مقدس ، وأجدادهم لقرون طويلة تمسكوا بهذه العبادة.

السيدة الدرزية التي كان لي نقاش معها قدمت لي دعوة لزيارتها ولكنني تحججت بمشاغلي الكثيرة في القصر ، لتظهر اهتمامها أرسلت لي بعد ذلك بفترة قصيرة سلتين كبيرتين من الفواكه، إلا أن الرجل الذي كان عليه أن يوصل الفواكه أخذ يأكل منها وهو في الطريق، إلى أن أتى عليها كلها، وما أن وصل إلى القصر حتى أصيب بالمرض، اضطررنا أن نبقيه عندنا لمدة عشرة أيام كان خلالها طبيب (Hakeem) الأمير يشرف عليه إلى أن شفي وعاد إلى أهله.

لو خطر لي يوم ما بأنني سأنشر هذه المذكرات لقمت بتسجيل الكثير من الحوادث المثيرة عن هؤلاء الناس وخاصة النساء خلال إقامتي في بيت الدين ، حيث كنت على صلة وثيقة بالدروز ، ولكن من الذي يستطيع يرى مصيره، العرب يقولون هذه الدنيا دولاب يدور لا الفرحان يدوم ولا المهموم، لا تعرف

ميلادك لا حياتك ولا مماتك hazi aldunia doulaboun yadour. La frhan yadom wa la hamoum la taraf miladak، la haitak w la mimatak)

من المعروف أن الأمير بشيرًا من سلالة محمد، إن حكم لبنان قد أوكل لعائلته منذ أكثر من سبعة قرون ومنذ قرن ونصف فإن العائلة قد تحولت إلى المسيحية بشكل سري، رغم أن هذا قد افترض من قبل الكثير من سكنة الجبال، إلا أن آل شهاب ما زالوا متمسكين بالتعاليم الإسلامية، والانطباع السائد أن الأمير ظاهريًا متمسك بعادات الأتراك من أتباع النبي، وبدون شك فإن هذا مقصود وهو مصدر قوة له.

إنّ الأمير الحالي، والذي كان من حسن حظي أن أكون ضيفته، يحكم منذ أربعين سنة، وسياسته اتسمت بالقوة والحرية خلال كل تلك الفترة الطويلة، وبهذه السياسة وطد العناصر المختلفة وجعلها تميل لتكون كيانًا موحدًا، وعمَّ السلام في الجبال ولم يعد المسلم متعطشا لدم المسيحي شريكه في المواطنة، بالاختصار فإن الماروني والمحمدي والدرزي والمتولي ينظر واحدهم إلى الآخر كإخوة.

كما قلت فإنه من المعتقد بأن الأمير كان ملتزمًا بتعاليم الإيمان المحمدي ، هذا الاعتقاد عزز تمسّكه ظاهريا بالعادات الاجتماعية التركية. قصره كان يحتوى على مساحة واسعة من الحرم (للحريم) والتي يفترضها الكثير أنها تتشابه من كلّ النواحي بما يعرف عن الحريم في قصور الحُكام الأقوياء

الموثوقين من الباب العالي ، الذين لهم سلطة نائب السلطان ، ولكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة ، كان من حسن حظي أن أكون نزيلة قسم الحريم من قصر الأمير بشير ، وبكل صدق أؤكد بأن قسم حريم قصر الأمير بشير أبعد ما يكون عن مكان الملذات الأنانية الشهوانية ، إن زنانا zenana (الحريم) أمير لبنان يجب أن يطلق عليها مدرسة الفضيلة المسيحية.

في الفترة الأولى من حكم الأمير ، بعد أن منح العفو لخيانة اثنين من أولاد أخيه ، كان عليه أن يحمي نفسه من المضايقات ، وشعبه من الفوضى والتشتت ، اضطر إلى إصدار أحكام الموت عليهم ، ولقد كانا موغلين في المؤامرة لإسقاطه. إن عملية المحافظة على النفس للحكام الأقوياء في أي بلد هي ظروف لا تدعو إلى راحة النفس ، وعامة الحدوث أيضًا ، تفشل في أن تستقطب الانتباه للحظات ولكن لها تأثيرات فظيعة على فكر الأمير ، لذا قرَّر أن يقضي بقية أيامه في مسعى جاد لمحو الجور بالتكفير والرحمة أو منح النعم ، لذا فإنه يسير بكل تواضع على طريق الملك صاحب المزامير.

ومن أعمال الإحسان الأخرى ، فإن الأمير يبقي موقدين للطبخ لتهيئة الطعام على مدار الساعة من أجل إطعام الجياع والفقراء والمشردين ، من أي بلد أو زاوية من الأرض كانوا ، ولأجل الحصول على الهبة يجب أن يكونوا من المعدمين ، بالإضافة إلى ذلك فإنه يرسل المبعوثين إلى الوديان المحيطة بقصره للبحث عن الرعايا الذين يستوجب حصولهم على الإحسان.

حريم الأمير أغلبهن من الرقيق الشابات من جورجيا والقفقاس، قسم منهن في غاية الجمال والذي دفع فيهن الأمير مبالغ طائلة لمجرد أن يعتقهن ، واللواتي كن يتحسرن على موطنهن وأقربائهن، كان يساعدهن ويسهل أمر عودتهن إلى بلادهن، أما اللواتي يفضلن البقاء تحت رعاية الأمير الأبوية فكن على الأغلب يجدن الزوج الصالح ، أما اللواتي كن يفضلن البقاء عازبات فإن الأمير يكون ولي نعمتهن الرحيم. وقسم منهن يفضلن البقاء بدون ارتباط ، فيرسلن إلى الأديرة الكثيرة المنتشرة في لبنان.

الكثير من المماليك الذين اشتراهم الأمير يُعتقون ويعودون إلى أهلهم، ولكن غير القليل منهم يفضلون البقاء في خدمة الأمير والتضحية بآخر قطرة من دمهم للدفاع عن حاميهم.

زوجة الأمير التي كان لي شرف خدمتها كانت الزوجة الثانية للأمير ، كان الأمير قد اشتراها بسعر باهظ من اسطنبول، مع مجموعة أخرى من الجواري لغرض اختيار شريكة مناسبة له بعد وفاة زوجته الأولى الستي شمس، الزوجة التي عاش معها الأمير أربعين سنة والتي طوالها لم يتغير حبه لها ، إلا أنها أصيبت بمرض الاستسقاء وبقيت لفترة طويلة مريضة قبل وفاتها.

اختار الأمير زوجته السلطانة الحالية من بقية الحريم، ليس فقط لجمالها الأخاذ ، بل لخلقها اللطيف وصفاء قلبها ، وقبل أن تتزوج به اختارت أن تتحول إلى المسيحية وتعمدت، وكان هذا

باختيارها ولم يفرض عليها. فإن الأمير لا يجد سببًا في استخدام منصبه للإرهاب أو مركزه للإغراء وذريعة للتحول إلى الإيمان فإن ذلك سيكون محض نفاق، كما أن الالتجاء إلى هذه الأساليب الرخيصة لا فائدة ترجى من ورائه، غالبًا ما كنت أسمع الأميرة تشكر القدرة الإلهية لتكرمها وقيادة خطواتها التي كانت على ضلال لطريق الرب الحقيقي.

إن الأميرة قد ثقفت على الطريقة الشرقية وكانت تملك سلامة المنطق ما جعل ثقافتها الناقصة نادرًا ما تلاحظ أو تدرك، لم تكن تعرف القراءة أو الكتابة، لذا مهمة مراسلاتها وقعت علي بالكامل، وكانت تتكلم اللغة القفقاسية والتركية فقط، ولم تستطع المحادثة باللغة العربية، إلا أنها كانت لطيفة الخلق وذات قلب طيب ما جعلني أشعر بأنني مستعدة للموت في سبيلها.

رغم أن فارق السن كبير بينهما، إذ أن الأميرة لم تتجاوز الثامنة عشرة من العمر في حين أن الأمير قد تجاوزها بثلاثة عقود، إلا أن حبها لسيدها كان حميميًا ولم يكن له ما يضاهيه.

أتذكر مرة عندما كان الأمير في مهمة على رأس جيشه، يخمد فتنة اندلعت في الحوران (Haouran) إذ حينها قاست الأميرة نفسيًا بشدة خوفًا على سلامته، وأمضت لياليَ عديدة بدون نوم، وطوال عدة أيام لم تتمكن من تناول الطعام، كان الوقت شتاء وفي إحدى الليالي بعد أن استلقيت في فراشي ولم أستطع النوم، سمعت باب غرفة الأميرة يفتح ووقع أقدام من غرفتها إلى الطارمة وإلى السطح، نهضت ولبست ملابسي، كان الجو شديد

البرودة، الثلج يغطي الأرض والسطح، وعصف وريح باردة تهب مسرعة عبر الطارمة والتي منها تحسست طريقي مستعينة بالضوء المنعكس من الثلج لأجل أن أحدّد الاتجاه الذي سارت فيه الأميرة وعلى يمين الطارمة كما قلت سابقًا تقع الكنيسة والتي كان يقام فيها القداس كل يوم بحضور الأمير والأميرة وبعض من الحاشية الذين يتبعون المسيحية، ولكن الحاشية من المسلمين لم يكونوا يعرفون موقعها ، كانت بناية صغيرة مستطيلة تتسع لاحتواء أربعين شخصًا مزوقة بالمرمر المبرقش والمنمق بالأصباغ والتذهيب بسخاء، بالإضافة إلى شمعدان من الفضة المطعمة، والسجاد العجمي من أفخر الصناعة وبعض الصور.

عند وصولي باب الكنيسة سمعت نواحًا مكبوتًا، وعند دخولي الكنيسة وجدت الأميرة غارقة في دموعها راكعة وتصلي بصدق، ركعت بجانبها، وعندما هدأت من تطيرها، سعيت لإقناعها بالعودة إلى مخدعها لكي لا تتعرض وتقاسي من البرد القارس في تلك الليلة، إلا أنها رفضت وجددت بإخلاص صلاتها لعرش المجد من أجل عودة السيد الحبيب.

وجدت أنها مصرة على عدم العودة إلى غرفتها والخلود للراحة قررت أن أشاركها تهجدها وأسعى لأهوّن عنها آلامها، متوسلة إليها أن تأخذ في الحسبان بأن الأمير كان ينشغل بأمور أصعب، مذكرة إياها بالحزن الذي سيسببه له تصرفها هذا إذا ما علم به، وبرقة كنت أحضها على الصبر وعلى أن تضع ثقتها بالله.

وأخيرًا استطعت أن أقنع الأميرة بالعودة إلى غرفتها حيث قضينا بقية الليل بالقراءة والمحادثة وأحيانًا نتسمع إلى الموسيقى الخفيفة المنبعثة من صندوق الموسيقى العائد للأميرة.

كثير من نساء حريم تحولن إلى المسيحية، ولكن كانت هناك اثنتان منهن امتنعتا وبقيتا تصمان آذانهما عن صوت الحق، لم تكتفيا برفضهما للتحول إلى المسيحية، بل كانتا لا تقدران حتى تقبل حلم الأمير، الذي يمتنع عن اعتبارات الطرد من الخدمة بسبب الدين، هاتان المرأتان كانتا تحملان الشعور بالانتقام والغدر من الأمير وعلى كل من في معيته لأنه فتح أمامهم طريق الخلاص.

في يوم من الأيام وأنا أتمشى في الحديقة الملحقة بالقصر حيث كانت هاتان المرأتان تعملان، سمعتمها تغنيان بلغة موطنهما، وقفت أستمع باهتمام إذ لم يكن من المعتاد الغناء خلال العمل، وجدت أنهما تتبادلان الحديث عن طريق الغناء، وبقيتا تترنمان بكلمات معناها أنهما ستبلغان المفتي عن الأمير بسبب خرقه لتعاليم الإسلام المقدسة، وذلك لحضور راهب، حيث إحداهما قد شاهدته يحضر لمقر الحريم، وسمعت منهن خطة هربهن عبر سياج القصر بتسلق سلم حيث رتبن الخطة التي سمعتها كلها وحفظتها في ذاكرتي.

وبدون أن أزعج الأمير بهذا الأمر السخيف، لم أضيع الوقت برفع السلم من مكانه، حيث أن الهرب بدونه مستحيل، إذ أن جدران السياج كانت ملساء تمامًا مثل الزجاج، وبهذا فإن

المؤامرة أفشلت قبل أن تثمر. وإن المتآمرتين قامتا بأعمالهما اليومية كالمعتاد، وبعد مرور شهر على هذا حكيت للأمير من باب التسلية والظرافة، ضحك الأمير من كل قلبه وهنأت نفسي على خطواتي الاحترازية تلك. ثمّ وصلتنا المعلومات بأن حليمة وسعدية قد هربتا وذلك بدق مسمار كبير في السياج واستخدام الحبال كواسطة للتسلق، ولكن سفرتهن لم تطل، إذ قبض عليهن أحد الشيوخ الموالين للأمير والذي أرسل حالاً رسالة للقصر يطلب التعليمات وكيفية التصرف، قرأت الرسالة للأمير الذي أخبرني بأن أرد على الشيخ بأن يرسل العبدتين إلى دمشق كهدية للمسيحيين في تلك المدينة.

كان من عادة الأمير أن يزور الحريم بعد العصر عندما يذهب مع الأميرة للتمتع بتدخين الأركيلة وهما على السطح، بهذه المناسبات كنا دائمًا نتحدث لوقت طويل بالأخص فيما يتعلق بأمور الدين، وأتذكر إحدى تلك المناسبات، إذ كان الأمير يجلس كالعادة في السطح الواسع المتصل بجناح الأميرة والذي يطل على منظر جميل يمكن للمخيلة أن تتصوره، السطح كان محاطًا بكرمات رائعة ويحتوي على قفص هائل للطيور من كل الأصناف بريشها المختلف ونغماتها المتنوعة من الحمامات، ذات الصوت الوادع إلى الببغاوات الثرثارات. من اليمين واليسار ترتفع الصخور الناتئة من جبل لبنان، ومن الأمام العين تسرح في الوديان المتعرجة والمتجهة صوب الساحل، ومن خلف السطح تبدو قمم لبنان الشهباء العتيقة شامخة، عالية في

السماء الصافية.

على السطح أو في الحديقة يجلس الأمير بشير على كرسي أنيق محفور ومذهب ، صناعة إنجليزية هدية من الليدي هيستر ستانهوب ، مرتديا ملابس تناسب مركزه الأميري العالي ، عمامته ملفوفة بعدة لفات ومن الموسيلين محلاة بآلاف الزهور المطرزة بخيوط الذهب ، وصدريته أو سترته من القماش المذهب وسرواله من أفضل قماش قرمزي مثبت من الأعلى بشريط من الحرير الأخضر المطرز بالذهب ، وعلى وسطه شال عجمي من أندر الأنواع. ، مثبت بنطاقه خنجر بغمد من الذهب الخالص مخفي بطريقة لماحة، وفي نهاية مقبض الخنجر تلتمع ماسة بحجم هائل قيمتها تعادل مملكة.

كان بقامة مهيبة ومتقدمًا في العمر ، في الوقت الذي أتحدث عنه إن الأمير قد بلغ السبعين من العمر ولكنه لم يفقد ولا (إنشًا) عقدة من طوله والذي تجاوز الستة أقدام ، بالإضافة إلى عينين سوداوين لماعتين ثاقبتين تعلنان عن شجاعة غير مشكوك فيها ، ولكن بنفس الوقت تعابيرهما في غاية الحلاوة ، لحية كثيفة طويلة بيضاء بلون الفضة تصل إلى حزامه ، صوته عميق وقوي بحنان ، وبنفس الوقت مناسب لإطلاق صيحة للحشود في ساحات الوغى. ويكسب صداقة القلوب بحنو ونعومة نغماته ، الآن قرائي لديهم صورة رسمها لهم قلمي الواهن بقدر المستطاع للأمير بشير ، رجل رفيع المقام ، يحكم الخشن والبسيط وشعب لبنان الشجاع المتكون من عدة طبقات كل

واحدة تختلف عن الأخرى بالعادات والدين ، والكل ينحنون بسرور لحنوه الأبوي وفي الوقت نفسه لصلابته وحيويته، ثباته لم يتزعزع في كبح الخارجين عن القانون والمشاغبين.

وفي الوقت نفسه تزيد من تآلف المسالمين والدؤوبين ، حيث المزارع يعتمد بثقة على جني ثمار عمله، والخارج عن القانون كان متأكدا من أنه سيلقى العقاب لفساده وعنفه.

يا حسرتي مملكته قد زالت، صولجان الحكم أصبح بيد الأعداء، المؤمنون الحقيقيون يسلكون الطرق الجانبية خوفًا وارتعاشًا ، الأرامل واليتامى ينتحبون ، العصابات تسرق وتقتل لا تخشى القصاص ، عابر السبيل الفقير لا يعرف أين يذهب بحثًا عن الطعام والملجأ ، المسافر يخشى التجول عبر التلال والوديان التي كانت يومًا لبنان السلام، الدماء المراقة تسيح في الأرض، والمزارع لا يعرف من سيحظى بمحصوله.

عندما شعر الأمير بوجودي أمر الجواري بجلب النركيلة والقهوة ، بعد أن نفذن الأمر انسحبن وبقيت وحدي مع الأمير والأميرة ، لفترة طويلة ، بقينا والصمت يلفنا نشبع نظرنا بالمشاهد الجميلة التي تحيطنا ، من عادات الشرق ترك فترات صمت بين حين وآخر خلال الحديث لمواصلة التدخين ، وبانحناءة وميلان من الجسم نحو الأشخاص الآخرين علامة على الوعي بوجودهم وصحبتهم.

هنا [1] يبدأ الأمير الحديث الديني عن النبي داود وتوبته، ربما قادته أفكاره إلى لوعة من تأنيب الضمير التي غمرت صدره، نبعت من ذكريات غير سعيدة والتي تحدثت عنها سابقًا ، ولكنه بعد إصدار الحكم القاتل ، عمل كل ما يمكنه إذ منح الحنان والاهتمام إلى زوجات الرجال الذين جلبت عليهم جرائمهم الويل.

الأمير استمع إلى قصتي باهتمام كبير وفرح بنهايتها وقال: لقد كانت مسلية ، هكذا كنا نجلس نتحادث بقصص مشابهة تقدم خلالها النرجيلة والقهوة بفناجين من الذهب إلى الساعة الحادية عشرة ثم بعدها نذهب إلى مخادعنا للنوم.

في طريقي إلى غرفة نومي رأيت مجموعة من جواري الأميرة الجورجيات وهنَّ ينتحبن ، وعندما سألتهن عن خطبهن قلن لأنهن بعيدات عن موطنهن وأهلهن ، قلت لهن : يا فتيات إن نحيبكن بدون معنى وبدون سبب إذ إنكن قد حظيتن برعاية أمير مؤمن مسيحي يمشي بمخافة الله ، وماذا لو قد حملتن عنوة وبعنف إلى أمير مسلم كان سيحاسبكن أكثر من العبيد الآخرين، هنا تستطعن أن تمارسن ديانة آبائكن بأمان وسلام، ولكن هناك كان عليكن أن تذعن لطقوس عبادة ترفضنها. بعد أن شكرنني لمواساتهن تمنين لي ليلة سعيدة وقلن: يا حبيبة قلبنا إن الله العلي

---

(١) تحكي لهما من باب الإمتاع والتسلية والموعظة قصة رجل سفيه وخاطي يعم الإيمان قلبه بعد أن يسأله طفل من خلق كل ما يحيط بهما.

القدير قد أرسلك لنا لتقولي لنا كلمات الحق لتخففي عنا ، وبعد ذلك سرن في مجموعات من اثنتين أو ثلاثة إلى غرفهن ، إذ أنهن يخفن النوم في غرف منفصلة.

يصحو الأمير مبكرًا في الصباحات وقبل شروق الشمس وقبل أن تنهض الحريم ، بعد أداء التزاماتهما الدينية فإن الأمير والأميرة يتناولان القهوة سوية على السطح وهما متكئين على الديوان ، ثم يأتي مملوك بغليون الأمير إلى الباب حيث يأخذه البواب ثم يسلمه إلى عبدة سوداء وهي بدورها تعطيه إلى جارية من جورجيا التي تقدمه بدورها إلى الأمير وهي جاثية على ركبتيها ، وكانت الأميرة أحيانًا تقوم بهذا العمل كنوع من إظهار المحبة عوضًا عن كل هؤلاء الخدم والعبيد ، إلا أن الأمير يرفض ذلك رفضًا قاطعًا.

بعد هذا كان من عادة الأمير أن يذهب مباشرة إلى غرفة المجلس في قصره بعد أن يتناول الفطور أولاً حيث يعمل بمواظبة مجهدة على إنجاز واجبات الحكومة بحضور المماليك البيض والسود ، ومحاطًا بجمهور خليط من المارونيين والدروز والأتراك والمتولين واليونان وكلهم كانت يده مستعدة لتقدم لهم العدالة المنصفة وغير المتحيزة.

تتناول الأميرة فطورها وحدها في غرفتها ويتكون من الشربت (sharbat) وشوربة الدجاج ، رز وحليب والقيمر ((kaimagh ..kharisha)) والأعشاب العطرة من جبل الكرمل والفواكه المجففة والحلويات بأنواعها المختلفة.

في يوم من الأيام ذهبت لزيارة السيدة الدرزية التي أرسلت لي سابقًا سله الفواكه، ولم يتيسر لي تذوقها كما حكيت سابقا. كانت تسكن في بناية جميلة على سفح جبل، تبعد حوالي الميلين عن بيت الدين وبالقرب من معبد درزي أو الخلوة (halouah..) والتي تعني الانعزال.

عندما قدمت نفسي عند البوابة اقتدت إلى مقصورة كبيرة مؤثثة بشكل أنيق تطل على حديقة ومنها يبدو البحر.

الأرضية كانت مغطاة بسجادة أعجمية أنيقة مزوقة بحافات مليئة بأنواع الورود، جالس على المسند شخص مهيب من الدروز، بلحية طويلة بيضاء يعتمر عمامة غريبة الشكل بيضاء والتي يرتديها العُقّال (akals)، وهذا المصطلح يطلق للتفريق بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا الذين يطلق عليهم الجُهال (djahels).

متكئة على المسند بجانبه وبساقين مقرفصتين على الطريقة الشرقية وتدخن أركيلة أنيقة، امرأة طويلة رشيقة القامة، ترتدي بدلة طويلة بلون الزعفران مقلمة بالأحمر، مع صدرية مطرزة معقودة عند الرقبة بطرة من الذهب، بدا لي مظهرها جليلاً ومهيبًا، رغم أنها كانت ترتدي زي الرجال إلا أنني عرفت فورًا بأنها امرأة، بيدها اليمنى تجذب أنبوب الأركيلة والتي كانت تنطلق منه سحابات الدخان على شكل حلقات بلون أزرق فاتح مكونة عمودًا اسطوانيًا في الهواء وبيدها اليسرى سبحة من العنبر تسبح بخرزاتها ببطء.

عند دخولي قام الرجل الورع العاقل (Akal) والسيدة التي اعتبرتها ذات مقام عال، استقبلاني ودعيت للجلوس بالقرب منهما، واشتركت مع الدروز في أحاديث اعتيادية، وكل ذلك الوقت وجدت السيدة التي ترتدي ملابس الرجال تتفحصني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي بنظرة متفحصة مليئة بالتقصي ما جعلني أشعر بالارتباك، ولم أستطع أن أعرف السبب.

خاطبتني بكثير من المجاملة وحسن النية باللغة العربية التي كانت تجيدها بطلاقة، إلا أنني لاحظت أن لهجتها وشكلها لا يدلان على أنها من بنات الشرق، قالت لي: أنت من أرض الحكمة، إن أرض الكلدان كانت مصدر العلم، علم الفلك والتنجيم والسحر كان متقدما جدًا، ثم سألتني إن كنت ماهرة في علم التنجيم، أجبتها رغم أن والدي كان يشجع العلم والمعرفة إلا أنه لم يشجعني على التنجيم، بل على التقوى ومعرفة كلام الله، وأن أكرس نفسي للفضائل المسيحية على استقراء المستقبل من خلال النجوم، كان يقول ليس للإنسان الضعيف أن يعلم الأسرار المغلقة لله الحكيم.

يبدو أن كلامي سبب لها خيبة الأمل، فبدون شك أنها حسبت بأنها ستستمع إلى كشف بعض الأسرار الغامضة من شخص مثلي قد جاء مؤخرًا من أرض الكهانة والعرافة.

قالت: لقد كرست الكثير من وقتي لدراسة النجوم وأعتقد بأن ذلك كان مفيدا، مثلاً، كنت أتفحصك بإمعان وأنت تتحدثين مع الرجل الورع وبدون أي صعوبة استطعت أن أخمن تحت أي

نجم قد ولدت، إنه مهم بالنسبة لي أن أنظر إلى عين وجبهة أي إنسان لأعرف تحت أي نجم قد ولد وأنت ولدت تحت نجم عطارد.

قلت لها صدقت صحيح أن منجما في أرض الكلدان قد قال لي نفس الشيء، وكذلك المنجم المشهور في دمشق والذي يدعى سليمان الحكيم!

قالت إنها تعرفه جيدًا، وانشرحت طلعتها بعد أن تأكدت من صدق عرافتها، قالت: لا يوجد رجل بمهارته وعمق معرفته بهذا العلم المقدس، كلنا قد ولدنا تحت أجرام سماوية معينة ومصيرنا مرتبط بهذا العالم إما باللطيف الرقيق أو الخبيث اللئيم حسب نجمة أبراج مولدنا، هذا هو قدرنا ومن الغباء ومضيعة الوقت أن نناضل ضد قوته التي لا تقاوم.

كيف يحس الإنسان بنفور من أخيه الإنسان من أول نظرة؟ لأنهما ولدا تحت برجين لا ينسجمان، الإنسان الذي يولد تحت برج الحمل لا يستطيع أن ينسجم مع من ولد تحت برج النمر، وسيحاول أن يتجنبه، هذا هو القدر.

لم أشأ أن أجادل وأعارض في هذا الشأن، علمًا بأنني لا أضع ثقتي بعلم التنجيم، ولكنني أقول: رغم أن السماء تقرر بأن الإنسان يولد تحت برج نجم معين وتأثيراته والتي من الممكن أن تؤثر في طبيعته قد تميل نحو الفضيلة أو الفساد أو الوداعة أو القوة والقساوة، ولكن هذا لا يعني أن ليس لديه من القوة، لو شاء استخدامها بشكل صحيح، فإنها غنية وكافية لتمحو الشر

الذي في قلب البشر.

وبعد المحادثة الطويلة عن التنجيم بدأت بالحديث عن مشروع عزيز عليَّ، وهو أن أزور أوربا معبرة عن البهجة التي أتوقعها من الذين يتمتعون بفضيلة المسيحية والتي ستبدو واضحة في نقائهم وبهائهم المتمثلة بالتعلم والتقوى تتعهدها وتحميها أيادي حكومات متنورة.

بعد إعلان رغبتي ونيتي هذه، ضحكت ضيفة صديقتي الدرزية وصفقت بيديها على الطريقة الشرقية، وقالت: يبدو أنك قد خدعت من قبل شخص مكار ومحتال، أوربا في الحقيقة يومًا ما كانت بيت المسيحية ومدرسة للفضائل المسيحية ولكن هذا أصبح من قصص الماضي، إن شمس أوربا قد غربت وفي قلوب أولادها الفاسدين لم تبقَ شحنة من فضيلة أسلافهم، التقوى والتعلم استبدل بالمكر الوضيع والغدر الدنيوي والأنانية والنفاق، لن ترى شيئًا سوى الفساد والرشاوى.

ابقي حيث أنت على الأقل لن ترَي الدين مصبوغًا بصبغة سوداء من الأنانية والمنفعة الشخصية وتعظيم الذات بل ترينه منشطًا باعثًا على الحياة نقيًا بسيطًا.

لقد ولدت وتربيت في أوربا، لقد سافرت واختلطت بالمجتمعات الأوربية، أنا بصدق أؤكد لك بأنك ستندمين بمرارة في اليوم الذي تتركين فيه هذه الجبال الوادعة من أجل اضطراب مجتمع الغرب ومنازعاته.

أصغيت إلى كلماتها ولكنني كنت قد سمعت الكثير عن فضائل أوربا وحسناتها، لذا لم يهتز تصميمي بشؤم تحذيرها. والآن قد مر علي وقت طويل يتقاذفني بحر سوء الطالع، ما زلت بعيدة أبدًا من سماء السلام، كنت أبحث عن أمل خائب عندما أردت الابتعاد مسرعة عن لبنان، أشعر بأن تلك الكلمات كانت كلمات امرأة متنبئة نبعت من قلب خير نبيه ملذوع من الخيبة بالخيانة والزيف التي كانت محاطة بهما في بدء أيامها، وكذلك ما تفوهت به لم يكن تظاهرا بمعرفة المستقبل وعلم التنجيم، كم ندمت وبكيت دموعًا ساخنة على تسرعي في عزمي، وتمنيت بعد فوات الأوان أن أستمع في وقتها إلى التحذير الحكيم الذي خصتني به والذي لو اتبعته لوفرت على نفسي الحزن والألم. ولكن من يستقرئ أو يستطيع تجنب مصيره ويتكهن غاية القدرة الإلهية، كم هي صحيحة الجملة العربية التي تقول لا حول ولا قوة إلا بالله، بُعدًا للحزن ولا تفكر بالمستقبل، لا تحاول معرفة الماضي ولا تسعَ للتكهن بما سيأتي لأن كل شيء محكوم بالحكمة والقدرة الإلهية.

أحد الشيوخ الدروز شاركنا في مجلسنا وادعى أنه يملك القوة للتكهن بمعرفة مخابئ الكنوز المخبأة تحت الأرض، وأنه يعلم بمكان كنز من المال مدفون بقرب ساحل البحر بالقرب من القصر حيث وحسبما تروى القصص قذف الحوت بالنبي يونس، سألته كيف ذلك ولِمَ لم يستفد من هذه القابلية ليغني حاله، فكما يبدو عليه أنه لا ينعم ببحبوحة من العيش، كان عليه اغتنام

الفرص ليحسن من أحواله ، قال لي : السبب بسيط ، فكما هو معروف فعندما يحول الساحر سحره لخدمة أغراضه الشخصية ولزيادة ثرائه يفقد قابليته إلى الأبد ، وجدت أن هذه حيلة للتهرب من وضعه تحت التجربة، إلا أن المنجمة ضيفة صديقتي والتي اكتشفت أنها مؤمنة بالسحر أكدت لي صدق دعواه، وأن الساحر ممنوع من استخدام سحره لمنفعته الشخصية.

بعد ذلك بقليل نهضت الضيفة مودعة لتغادر مع حاشيتها الكبيرة، على البوابة جواد متحفز يقضم اللجام بنفاذ صبر متطاير ، وضعت قدمها في الركاب وبطفرة خفيفة ورشيقة اعتلت السرج وعلى الطريقة الشرقية فحجت ساقيها على الطريقة التي يركب بها الرجال ، وابتدأت بسرعة تعدو وتثب بين الصخور بدون خوف بطريقة كان سيتباهى بها أي مملوك.

كنت في غاية الفضول لمعرفة اسم هذه السيدة وسألت مضيفتي وقالت لي إنها الليدي هيستر ستناهوب. شعرت بالسرور لمعرفتي بأنني كنت أحادث من قد سمعت عنها الكثير والتي فيما بعد أصبحت مقربة منها وقضيت في مجلسها ساعات ممتعة.

وبعد مرور وقت من الحديث بإكبار عن الليدي ستناهوب التي غادرتنا قبل قليل اقترحت مضيفتي أن نزور قريبتها وهي سادنة أو قسيسة درزية تسكن غير بعيد عن بيت مضيفتي ، مشينا متوجهتين نحو منزلها الذي كان بيتًا واسعًا حسن البناء تحيط به أشجار عالية توفر الفيء ، وتحت واحدة منها كانت القسيسة

تفترش سجادة على الأرض تتمتع بنسيم بعد الظهر، وعلى فرع من الشجرة يتدلي مهد مربوط، ينام فيه طفل صغير ، كانت ترعى في حفرة أمام البيت أعدادًا كبيرة من الخراف السمينة جدًا ، ويبدو أن من عادة الدروز جعل الخراف تستكين في مكان محفور في الأرض لتنعم خلال النهار بمكان بارد، ويتركونها لتسمن كثيرًا وتصبح ضخمة الحجم، ذيلها عادة مكان تجمع الشحم والدهون ، يصبح فائق الحجم ما يعيق الخراف من الحركة ويصعب عليها المشي، لذا يربطون عجلات صغيرة أسفل الذيل لدعمه ولتمكن الحيوان من سحب الذيل المترهل وهو ينتقل من مرعى إلى آخر!

عندما شاهدتنا القسيسة ونحن نقترب من دارها نهضت مرحبة وهي تقول: نهارك سعيد يا ستي، دعتني إلى الجلوس بقربها، اشتركنا في حديث أبدت خلاله سعة اطلاع ومجاملة ، في الحقيقة أنا لا أعرف ناسًا يتمتعون بالود وعدم التحيز أكثر من الدروز ، يعاملون المسيحيين والمسلمين واليهود على قدم المساواة وبكثير من روح التمدن والاحترام وعادة يرسلون أولادهم للتعلم في مدارس المسيحيين وقسم منهم يتحول عن دينه إلى المسيحية أسوة بمعلميهم، وعندما يكملون تعليمهم تبذل الجهود إلى إعادتهم إلى مراسيم الديانة الدرزية الغامضة، ولكن إذا أصر الطفل على البقاء على المسيحية ورفض العودة إلى الديانة الدرزية فإنني لم أسمع بأن هذا الرفض والإصرار يؤدي إلى التجريم أو الهجر من الأقارب أو الأصدقاء، وهذا التقليد

يدل على الروح الخيرية والتسامح التي اقتبست من المسيحية.

الدروز يبدون الحرص الشديد لتلقي أولادهم العلم وقليل منهم بدون معرفة والكثير من الذين يدعون العُقال يمتلكون الكثير من المعرفة والحكمة ، وأن النساء القسيسات منهن يحُزْن على التقدير العالي حتى من القساوسة الرجال.

كما علمت منهم أن القسيسة أو القس الدرزي يلقي موعظته من أمام مذبح في الخلوة.

تحدثنا القسيسة وأنا طويلاً ، وأبدت الرغبة في المعرفة عن عادات ووجهات النظر وتقاليد البلاد التي جئت منها وكانت أسئلتها شديدة الدقة والحصافة.

وبعد محادثتنا لبعض الوقت فيما يخص تلك المواضيع نهضت ودعت الأصدقاء (الصديقات) لمشاركتنا جلستنا قائلة لهن : تعالوا وانظروا هنا لدينا ضيفة غريبة حاذقة من الشرق جاءت لزيارتنا ، تعالوا رحبوا بها ، استطردت في دعوتها لهم وهي تزيد من الإطراء والمجاملة بشكل يجعلني أحمرّ خجلا لكتابته. عدد من معارفها امتازوا بطيبة القلب ، ولم ارَ مثل طيبتهم ، التحقوا بجلستنا تلك ، كلهم عاملوني بكثير من الاهتمام والاحترام.

كما يبدو أن هذا اليوم كان مخصصًا للذهاب إلى كنيستهم (الخلوة) والساعة محددة لممارسة طقوسهم الغامضة، لذا غادر الجميع بعد وهلة لممارسة تمارين دينهم في الخلوة المجاورة

وتركوني بمفردي مع الطفل.

رغم تسامحهم مع الذين يختلفون معهم في الدين إلا أنهم يعاقبون بشدة من يتجرأ ويدخل خلوتهم،

رغم تسامحهم إلا أنهم قد وضعوا حدًا لا يجوز تجاوزه للغريب، إذ لا يسمح له بدخول الخلوة، وإنهم يحذرون ويطلبون من الغريب أن يبقى بعيدًا وعقوبة الموت لكل من يخالف ذلك عمدًا ويتجاوز الحد المقرر للخلوة أو الحجرة المخصصة للتعبد.

وبعد أن ذهبوا وجدت الفرصة المناسبة إذ وجدت إبريقًا لبنانيًا تقليديًا لشرب الماء بفوهته الضيقة، ملأته بالماء من نهير قريب وعمدت الطفل الذي يبلغ السنتين من العمر باسم الأب والابن والروح القدس وأسميته بولص، في الحقيقة إنني لم أضيع أي فرصة لتعميد الأطفال في أي مكان كان وبدون تحفظ، إن السماء ترسل هذه البذرة مهما كانت على عجالة وتجاهل في بذرها. وسوف تحمل مستقبلاً ثمار الإيمان الحق لأنني بإخلاص وتواضع قد زرعتها فيها.

يقال إن الدروز هم من سلالة القبائل العربية التي رفضت الإيمان الذي رسخه محمد، هربوا ابتغاء للسلامة إلى لبنان، بقوا هناك إلى هذا الوقت لممارسة شعائر دينهم، ويعتقد كذلك أنهم من سلالة يهود الشتات الذين تركوا عبادة الله وعادوا إلى عبادة العجل المقدس.

إن طقوس دينهم هي من الأسرار بالنسبة لبقية أبناء العالم،

وعلى الأكثر ستبقى كذلك لفترة طويلة ما داموا يستطيعون حجب واستبعاد من هم من غير دينهم بشكل فعَّال كما هو الآن.

في وقت من الأوقات كان باستطاعتي كشف هذا الغموض، إذ أن الأمير بشير كان قد ساهم في قمع بعض من هذه القبائل من الذين كانوا قد ثاروا ضد حكمه، كالعادة نجح في إخضاع الدروز الثائرين بذراعه التي لا يمكن مقاومتها، ومن بين الغنائم التي جلبها معه للبيت بعد انتهاء الحملة كان هناك اثنان أو ثلاثة عجول من الذهب ثقيلة وكبيرة جدًا ، مطعمة بمجوهرات ثمينة، عيونها من أحجار رائعة وتلتمع، وإلى جانب هذه الغنائم من خلوة الدروز جلب معه للبيت كميات من الكتب تحتوى على أسرار الدروز الغامضة، مع بعض الأشكال التي تستعمل خلال طقوسهم وصلواتهم في الخلوة، ولا أشك بأن الأمير بشيرًا نفسه كان على اطلاع على مجريات الديانة الدرزية.

الكتب التي أشرت إليها مكتوبة باللغة العربية ومقفلة في خزانة مفاتيحها محفوظة عندي، لذا لم يكن هناك ما يمنعني من الإطلاع على محتويات تلك الكتب، سوى التحفظات الدينية التي زرعت وترسخت في فكري منذ الطفولة والتي كانت من القوة بحيث كلما أردت أن أسترق النظر إلى تلك الكتب، كانت تلك التحفظات تمنعني وتصدني عن فضولي هذا.

لقد تم تثقيفي منذ الصغر على عدم قراءة القرآن أو أي كتاب آخر ما عدا كتب المذهب الكاثوليكي، إذ كان يعتبر ذلك من مسببات الخطايا بالنسبة للمؤمن، ولكن منذ ذلك الوقت قد

تفتحت عيني وغشاوة الجهل وسوء تفسير تعاليم الكنيسة الكاثوليكي قد انقشعت وتبددت ، ولم أتوقف عن الندم لأسمح بمثل هذه الفرصة النادرة أن تفوتني وتهرب مني وذلك لشرح مفاهيم هذا الدين الغامض.

الحقيقة أن الكاثوليكية لم تسنّ تلك القوانين المقيدة والتي تخيلتها وأنا في صباي ، من الواضح هناك بعض الخطورة التي يجب تجنبها وأمرتنا بالابتعاد عنها والأخرى يجب تجنبها ، أيضًا هناك الأخطاء التي تقتات على المخاوف الفارغة ، وتحفظاتي كانت واحدة منهن ، ما هو السبب الذي دعاني للخوف على إيماني لو قرأت تلك الكتب الدرزية السخيفة ؟ بالتأكيد كانت تخوفات باطلة وضمن هذا المجال اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية.

ما أفهمه الآن ووضح لي أن البحار بغلق نفسه في قمرته لن ينجو من أخطار مهنته ، ولا المسافر سيهرب من السامري لو عصب عينيه ، وربما لن يرى الأفق الأحمر الذي يشير إلى قدوم الجو العاصف الخانق ، وفي الوقت نفسه علامة تحذير على تجنب الخطر القادم.

كما يبدو أن الدروز يتعبدون للعجل الذهبي مثل عبادة بعل في الأزمان الغابرة ، إن ما يمارسه العقال من عبادة تختلف عما يمارسه الجهال والطبقات الدنيا. إنهم يجلون موسى وعيسى ومحمدًا ، طقوس دينهم تمارس مرتين في الأسبوع حيث يحضر النساء والرجال سوية ، ويقرون بحكم بابوي مقره في قرية (Mouta).

القسيسة الدرزية التي كنت في ضيافتها أخبرتني بأن الدرزي عندما يريد الانفصال عن زوجته وبدون إعطائها أي إشارة مسبقة فإنه يعلن عن رغبته بلصق ورقة على جدار الغرفة تحتوي على رغبته بالانفصال عنها بكلمات مقتضبة، وعندما تقع عينا الزوجة على الورقة فإنّ مصيرها يتقرر فيصرخ بها الزوج لقد قرأت مصيرك، وحالاً فإنّ الزوجة تتحجب وتغطي وجهها وتترك بيت الزوج لوحدها وتذهب إلى دار والديها تاركة خلفها أطفالها، وعندما يموت الدرزي فإن أصدقاءه يتجمعون حول قبره ويتحدثون عن حسن أخلاقه وتصرفاته، وحينها العقال الذين يتولون المراسيم يهتفون قائلين لتشملك وتكن معك رحمة كل الحكام الأقوياء، ويكررها بعدهم الوقوف كلهم، وإذا كانت شهادة الجميع في غير صالح المتوفى فإن العقال والمتجمهرين يبقون صامتين.

الدروز يؤمنون بتناسخ الأرواح وإذا كان الإنسان قد عرف عنه الحكمة والفضيلة والشجاعة فإن روحه ستحل في جسد إنسان جيد ومحبوب من الناس، أما مَن كانت صفاته الإجرام والخداع والجبن فإنّه سيحكم عليها بأن تحل في جثة جمل أو كلب أو خنزير.

المرأة الدرزية عندما تشاهد رجلاً غريبًا فإنها تغطي وجهها كله ما عدا عينها اليسرى، الدروز مثل بقية عرب الصحراء كُرماء جدًا، وكرمهم يشمل الجميع بدون فرق بين اليهودي أو غيره، يعرض المأوى وكل الأشياء الجيدة المتوفرة على مائدة طعامه

إلى المسيحي أو المسلم أو المتولي بدون تقتير أو تذمر.

أما بالنسبة للأوربيين فإن الدرزي يُكِن لهم عاطفة خاصة ، ولهذا ولأسباب وظروف أخرى فإن الكثيرين من أهل الشرق يفترضون بأن الدروز ينحدرون من الصليبيين.

إن من مسببات ابتهاجي وأنا أقيم في بيت الدين هو النهوض باكرًا قبل بزوغ النهار والذهاب إلى حديقة تعود إلى الأمير ، على بُعد مسافة قصيرة من القصر ، الحديقة تحيط بالقصر والتي كان الأمير يغيرها ويجري عليها التصليحات ، ويضيف إليها بنايات في غاية الذوق مزودة بشرفات للتمتع بنسمات المغيب. وتحتوي على إيوان جميل ، مفروشة بأحلى الأثاث الثمين ، فالغني يستطيع البذخ بجلب الأثاث والمواد التزويقية من دمشق وبغداد.

الحديقة نفسها تمتد على مساحة شاسعة مليئة بالأشجار المثمرة المتنوعة والزهور المختلفة التي تفتح الشهية وتسحر الأحاسيس وتشرح النظر ، كما تخترقها جداول المياه.

هنا كنت أقضي ساعات طويلة أرتل في عزلة تامة في حين سكان بيت الدين ما زالوا يغطون في النوم. شاهدت نور نجمة الصباح يتلاشى تدريجيًا في احمرار شروق الشمس والتي رافقتها أصوات الطيور المتنوعة تتغنى بعظمة الخالق وتبدي جذلها وفرح قلوبها الصغيرة ، وتطير من شجرة إلى شجرة ، وترتوي من نبع الماء الصافي ، وحفيفها وسط رفيف الزهور المعطرة التي فاح أريجها نتيجة حركة وصخب الطيور

المقتحمة لمسكن الزهور التي تفتحت ببريق الندى وملأت الهواء بحلاوتها.

في غمار هذا الشعور بالنشوة شاركت في تقديم امتناني وشكري إلى الله متناغما مع تغاريد الطيور بقلوبها الطيبة، حينها حبي كان أقوى من الحبيب الذي يرتوي من بهجة الجنة عبر عيون محبوبه.(١)

ملكة تدمر هذا هو لقب السيدة هستر ستناهوب الذي أطلقه عليها سكان الصحراء وكل العشائر البدوية، ولقد كانت على صداقة حميمة مع الأمير بشير وعائلته وتقوم بزيارات مستمرة لحدائقه لذا أصبحت صداقتنا حميمية.

هذه المرأة البارعة، التي ترعرعت بين أرقى الناس في دولة متقدمة ومتحضرة تركت كل وسائل الراحة والترف التي وفرتها لها منزلتها في ذلك المجتمع وكانت في متناولها وأبدلتها للعيش في القفار الذي يضم الشجعان والكرام، وكانت لها مهابة عند الدروز والمارونيين والقبائل الأخرى التي تسكن الجبال،

---

(١) تستعرض هنا حادثة مع أمير في الستين من العمر وهو من أقارب الأمير بشير والمشاحنة بينهما هو يدعوها إلى الإسلام وهي ترفض ، وهي تدعوه إلى المسيحية وهو متمسك بدينه وتتحدث بإسهاب عن مناوشاتهما وكيف أنه يحاول أن يفسد عليها تأملاتها وهي في الحديقة الواسعة بتلاوة صلواته بصوت عال محاولا تشويشها ، وفي الأخير تقول إنه كان مخلصا في دعواه لها لأنه مقتنع بأن خلاصها كان سيكون في تغير معتقدها إلا أنها مصرة على أن المسيحية هي الدين الذي تتبعه.

دائمًا يزورها الشيوخ من البدو الرحل الذين يصادف مرورهم بالقرب من مسكنها ، يؤدون لها الزيارة وتقديم الهدايا الثمينة مثل الجمال والغزلان ، وبالتالي تزودهم برسائل تدل على الاحترام.

لم تبدِ إلا الندم القليل لبعدها الطوعي ومعاودة الزيارة إلى أوربا المتحضرة، رغبتها الكلية في احترام الشخصية البسيطة لهؤلاء الناس الذين أنتسب اليهم، وأحيانًا كانت تبدي عدم تقبلها للقلب الأوربي البارد وقلة العطاء وعدم التسامح.

أتذكر مرة أن رجلاً فرنسيًا كان أن صادف مروره بالقرب من بيت الدين، والأمير بشير كان دائمًا يبدي اهتماما بالأوربيين، أرسل له دعوة لقضاء أيام في القصر وتقبل الرجل الدعوة، وعند مغادرته إلى أورشليم زود بكمية من الدواجن وكل أنواع المؤنة للرحلة، ولإبداء هذا الغريب شكره وتقديره لهذا الكرم، رغب في أن يقدم للخادم الذي أوصل إليه المؤنة مكافأة مالية، ولكن الخادم رفض ذلك بشدة وقال له إن هذا المال سيكون بمثابة ثمن لرأسه لو قبله، السيدة ستانهوب كانت حاضرة عندما جاء الخادم يروي للأمير ما حصل عند مغادرة الغريب وأنه قد رفض عطف هذا الرجل، علقت السيدة ستانهوب بالقول على رفض المكافأة: " هذا تصرف حكيم وإنساني جدًا ، إذ أن الرجل الفرنسي عندما سيصل سواحل أوربا فإنه سيحتاج إلى كل ثروته لأنه لن يجد هناك أي واحد يقدم له فتات الخبز بدون مقابل من المال.

كان اليهود يكنون الاحترام الشديد للسيدة هستر لشعورهم بتعاطفها مع بعض مشاعرهم الدينية ، وكان أصحاب البنوك والتجار منهم على استعداد لمنحها كل المساعدات التي في قدرتهم، غالبًا ما يقدمون لها الخدمة المفيدة.

السيدة ستانهوب كانت تتوقع تجديد العالم ، أو المسيح الثاني الذي سيأتي لتخليص العالم من اللؤم والرجس اللذين يلوثان المجتمع الحالي ، معتقدها هذا استند على تفسيرها لذلك المقطع من الإنجيل عندما يعلن المسيح "الذي يستخدم الأمثال في توصيل تعاليم دينه الصادق" ، المقطع يقول : (إن اليوم الذي سيشهر بهم علنًا آت).

في قسم من الحديقة حيث كنت - على عادتي - أستجم ، كان إسطبل فيه (كحيلة!) (kehailani) أو فرس أصيلة والتي تختلف عن الخيول العادية أو الكديش (gedish) التي تعود للأمير بشير ، كانت تتم المحافظة الصارمة على سلالة هذه الخيول الأصيلة، وتعود في أصولها إلى خيول الملك سليمان؟ فهي تنحدر من سلالة أصيلة وتحتفظ بدماء نقية.

إن السيدة هستر كانت أبرع فارسة شاهدتها. وبذلك تستحق كل الإعجاب من العرب أنفسهم الذين هم من أفضل الفرسان في العالم. غالبًا ما كانت تركب بدون رهبة تقطع الجبال وتصعد وتنزل المنحدرات الشديدة الانحدار التي تهدد بالخراب ، إن السيدة كانت تدخن الأركيلة وتبدي إعجابها بالخيول الكثيرة التي يبلغ عددها الخمسين أو أكثر ، وقوائمها الأمامية مربوطة

بسلاسل في مشبك مثبت بالأرض التي ترعى فيها الخيول.

الأمير بشير وأولاده كانوا يتسلون بإقامة حفلات سباق الفروسية أو يبقون أياما طويلة في السهول القريبة من بيت الدين في استرخاء يصيدون الغزلان والطيور ويمارسون ألعاب الرماية وغيرها.

في هذه المناسبات الأمير يركب فرسًا معينة لمجرد أنها سريعة جدًا ورشيقة في خطواتها أكثر من أي فرس شاهدتها ، مرة راهن وربح الرهان بأنه يستطيع أن يشرب فنجان القهوة مليئًا لحافته وهو على ظهر الفرس وهي تثب وبدون أن تندلق القهوة، ولقد رأيت الأمير مرات عديدة يكتب وهو على ظهر الفرس الوثابة.

الفرس العربي الأصيل كما هو معروف حيوان يختلف عن (gedish) العادي جسمًا وتصرفًا ، ومتميز بذكائه ، ولين العريكة، وسهل القيادة، وبشدة شجاعته وحماسته وقوة تحمله الشديد للعطش والجوع والمعاناة، بالإضافة إلى هذه الخصال الخاصة، يمتاز بجلده اللماع وانحناءات رقبته وبرأسه الصغير وعينيه البراقتين، إن قلبه المفعم بالكبرياء يجعله يتجاهل الموت ويقتحم الفصائل المكتظة، السهام المميتة منغرسة بجوانبه، إلى أن يمرغ الموت كبرياءه وذوائبه في الغبار.

هل سيرفع عاليًا مثل (الجراد) [1] ، إن جلال مناخيره مريع ، يهشم الأرض تحت حوافره ، يشب يقظًا بجسارة وجرأة ، يتقدم للأمام لمقابلة الرجال المدججين ، يحتقر الخوف لا يدير ظهره للسيوف ، فوقه ترتج الكنانة الرماح والدروع تلتمع ، يتململ ثم يهيج وينهب الأرض لا يقيم وزنا للموت حين تصدح الأبواق ، ينصت للأبواق ويهتف هتاف الظفر ، يتنسم المعركة وهي بعيدة ويحض قواد المعركة والجيش على الهتاف.

ومن ضمن هذه الخيول الأصيلة بجمالها فوق الاعتيادي ، كان هناك فرس قد اشتراها الأمير من أحد الشيوخ بأربعين (purses...) على ما أتذكر ، وعندما وجد أن السيدة هستر التي يكن لها غاية الاحترام أبدت إعجابا استثنائيا بهذه الفرس قدمها لها كهدية وأرفقها بهذا السند أو الشهادة التي تؤيد دماءها الأصيلة، ونص السند ما يلي:

(بسم الله الرحمن الرحيم الذي به نستعين قال النبي: إن أمتي لا تجتمع على خطأ، موضوع الوثيقة أو السند:
نحن الموقعون أدناه نعلن بقسمنا ومصيرنا ورأسنا وبأيدينا وبقبور أجدادنا ، ونشهد أمام الله بصحة شهادتنا بأن الفرس ذات العلامات الفارقة "تذكر هنا العلامات" تنحدر من أصل نبيل من

---

(١) إن هذا النص قد كتب بلغة كلاسيكية قديمة أقرب إلى لغة الأناجيل وترجمة كلمة (locust...) الجراد إذا أخذنا في الحسبان الحس بالعهد القديم الذي يتكرر في تعابيرها.

ناحية الأب والأم لثلاثة أجيال متوالية، وهي تملك فوق ذلك كل صفات الخيول التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم بأن (ضرعها كنز وظهرها عرش الكرامة). هذه الوثيقة تستند على بينة أجدادنا والتي نشهد عليها والله عليم بكل شيء).

أرسلت هذه الفرس مع الوثيقة التي تثبت أصلها إلى إسطبل السيدة هستر ستانهوب ومعها حمارة أنثى يقال إن أصلها يعود إلى نفس الفصيلة التي امتطاها سيدنا المخلص عندما دخل أورشليم!

السيدة هستر ستانهوب كانت تعاني من مرض وعلاجه حليب الحمير، المفروض أنه من أفضل ما يخفف المرض، ومعرفة الأمير بهذا الأمر كان السبب وراء إرسال الحمارة.

حدثني قس يوناني كان يزور بيت الدين عن قصة لها علاقة بهذا الحمار المرغوب في ذريته في الشرق، أن حوافر الحمار الذي امتطاه السيد المسيح وهو يدخل أورشليم محفوظة في مكان معين، لم أعد أتذكر اسمه، موجودة في خزانة زجاجية من أجل حمايتها من الأذى، في الاحتفالات الدينية تُحمل بكثير من الأبهة في مواكب فخمة.

جاء قبل عدة سنين أحد المكارين والدجالين، أخذ يعرض حافر حمار وهو يؤكد بأنه يعود إلى ذلك الحمار الذي امتطاه السيد المسيح، ولقد حفر الأرض بنفسه ووجد الحافر مدفونًا هناك منذ ١٨٠٠ سنة، هذا النصاب نجح في ابتزاز الأموال الكثيرة وذلك بعرض هذه الذخيرة المفترضة على الأصوليين المتزمتين

والمتيقنين في روسيا، إلى أن صادف وعرضها على راهب من الكنيسة اليونانية الذي كان قد شاهد الحوافر الأربعة للحمار الأصلي وهي محفوظة في مكان أمين، قال للمحتال: ليس من الممكن أن يكون للحمار خمس قوائم، وبذلك وضع نهاية لهذا النصاب.

بعد عدة أشهر أرسلت لنا السيدة هستر تعلمنا بأن الفرس قد ولدت مهرا جميلا وعلى ظهره علامة وهي زائدة لحمية تشبه السرج التركي، وهي تعتقد بأن هذه معجزة ربانية، أصرت على إبقاء المهر ليستعمله المبعوث الإلهي الذي سيأتي والتي كانت تؤمن به، في حين أن الأمير الذي لم يكن يتعاطف مع هذه الأضاليل قال ضاحكا: إن الاعتقاد الشائع في الشرق بأن المسيح (Messias) عندما يأتي ثانية فإنه سيكون راكبا على حصان لديه سرج طبيعي.

إن للأمير بشير ثلاثة أولاد، كل واحد منهم يسكن في قصر فخم بالقرب من قصر الأب وكلهم متزوجون، أكبرهم اسمه قاسم، الذي كان هادئًا ووقورًا في حوالي الخمسين من العمر، ولا يتعرض للمتاعب والمخاصمات السياسية، لقد استكان إلى الإرادة الإلهية وأصبح مسيحيًا بحق وحقيق، وكان يتحاشى بحذر شديد أن يهين أي واحد حتى الأكثر لؤمًا، وينتهز الفرصة لكي يعوضهم بأي خدمة اذا شعر بأنه قد أهانهم، هدفه الأول هو أن يكون كاملاً ومن أصحاب الفضيلة، ولهذا يطلب من أصدقائه وأنا واحدة منهم بأن نحدثه بصراحة عن أخطائه لكي

يحاول أن يصلحها والأكثر من ذلك، واعتمادًا على كلامه، أنه لم يكن يشعر بأي غضاضة من أن يجرؤ على مصارحته من هو أكثر صراحة من البقية.

زوجته كانت امرأة متعلمة تستطيع القراءة والكتابة (إذ أن من تملك ناصية الكتابة والقراءة تعتبر مثقفة حسب معايير الشرق، إلا أنها كانت فعلاً مثقفة إذ تجيد نظم الشعر بشكل ناجح تمامًا، كانت صديقتي المقربة، وكنا نسير سوية في الوديان المجاورة لقصر زوجها تبحث عن الرعايا ممن يستحقون هباتها، والتي لم تكن تبخل بها في أوقات الضيق والشدة.

قبل أن أسكن في بيت الدين بسنوات كان قاسم مسجونا وفق شروط معينة في قصر الحاكم الشهير الجزار باشا حاكم عكا، خلال مدة احتجازه سنحت له الكثير من الفرص لمراقبه شخصية هذا الحاكم القوي الذي لا يعرف الندم، وغالبًا ما كان يسلينا بهذه الحكايا عن سجايا وتصرفات الجزار الغريبة.

عندما شعر الجزار بأنه على وشك الموت قرَّر على الفور أن يقتل بعضًا من النبلاء من سوريا الذين احتجزهم، وخاصة الذين كان قد جرَّدهم من ثرائهم وقوتهم، ويبذل الجهد ليكونوا أداة طيعة، متحججًا بقوله: "بأنهم لو استعادوا حريتهم فإنهم سيصلحون أمورهم ويعودون لسابق قوتهم وتأثيرهم ويبذلون الجهد لاستعادة ما فقدوه وستعم الفوضى على كل المناطق وتُراق الدماء، وسيكون الأخ ضد أخيه ويتحوّل السلام إلى عنف واضطراب، لذا من الأفضل أن يقتلوا حالاً لإنقاذ الكثير

من الأرواح".

لحسن الحظ فإنه مات قبل أن ينفذ ما صمم عليه وضحاياه المفترضون نالوا حريتهم.

حوادث من هذا القبيل، وقد تكون أشد ضراوة، تملأ مجلدات ومجلدات تحكي عن ضراوة قسوة هذا الرجل، الذي كانت متعته الأساسية أن يذبح ضحاياه بيده، اسمه في سوريا يقترن بكل ما هو شنيع في البشر، ولكن مع هذا كانت هناك في بعض الأحيان يتبع الحسّ الإنساني والعدل، كما حدثني بذلك الأمير قاسم عن هذه الحادثة:

كان هناك رجل مسيحي يعيش في عكا ويسكن مع والده في نفس البيت ببناء كان منخفضًا وبالقرب من البحر، ما أدى أن يكون القسم الأسفل رطبا، في حين أن القسم الأعلى كان نقهًا وصحيًا، الأب كان يعيش في القسم الأعلى والابن في غرفة في الطابق الأسفل، وكان الولد على وشك الزواج فطلب من والده أن يتبادلا السكن لمدة خمسة أو ستة عشر يومًا، لكي يشعر عروسه القادمة بالفخر والتباهي، ووافق الأب وفسح مجالاً للعروسين، مضت الأيام الستة عشر والابن لا يفكر بأن يعيد البيت إلى والده، واعتلّت صحة الوالد نتيجة للرطوبة وأراد أن يعود إلى مسكنه، أخذ الوالد يحتج ويشكو من سوء نية الابن، إلا أن الابن أكد له بأنه يحتاج إلى خمسة أو ستة عشر يومًا آخر ليقنع العروس، إذ إنّه لحد الآن لم يفلح في إقناعها بالنزول إلى الطابق الأرضي، وكل محاولاته باءت بالفشل، ربما خلال

المدة الإضافية سيستطيع أن يتغلب عليها ويقنعها، ووافق الأب رغم أن صحته تدهورت، وانتهت المدة الإضافية وجدد الأب دعواه بأن يعود إلى مسكنه، إلا أن الابن رفض هذه المرة وطلب من والده ألا يزعجه، ما جعل الأب ينغمر في أحزانه.

الجزار باشا كان يعرف كل ما يدور في مدينته، إما بنفسه، كما كان الخلفاء قديمًا يتنكرون ويسيرون في المدن لمعرفة أحوال الناس [١] أو بواسطة المخبرين المدسوسين الذين كانوا متيقظين لجمع المعلومات. علم الجزار بأمر هذا الرجل العجوز المريض أرسل بطلب الابن ليحضر أمامه، وعندما جلبوا الابن وقف مرتجفًا أمام نظرات الباشا الذي كان يجلس على ديوان محاط بموظفيه وجلاديه، وكل واحد منهم على استعداد عند سماع الكلمة ليفصل رأسه عن جسده بسلاحه المشهر، خاطبه الجزار بصوت لا يساويه شيء في الرعب سوى زئير الأسد أو خوار ثور، صوت ليس للبشر بشيء، وبصوت عاصف نطق اسمه متسائلاً من أي دين هو، صعق الشاب وأصابه الخرس ولم يستطع أن ينطق بكلمة، وبعد صمت خرج صوته المتلعثم بأنه مسيحي، مقتنعًا بأن هذه أخر كلمات سينطق بها.

قال الباشا: أنت تقول بأنك مسيحي إذًا دعني أرَ العلامة التي بها يعرف المسيحي، حينها رسم الشاب علامة الصليب، قال الباشا دعني أسمع الكلمات التي تصاحب هذه العلامة، فقال الشاب

(١) إشارة إلى قصة الخليفة عمر بن الخطاب.

بسم الأب والابن والروح القدس، وهو نصف ميت من الخوف، وكما يعلم الكل بأن الأصابع تؤشر إلى الأعلى إلى الرأس عند ذكر اسم الأب، ثم أسفل إلى القلب ثم إلى الكتفين،

قال الباشا كما يبدو أن دينكم يعلمكم أن موضع الأب فوق ، والابن يكون في الأسفل، اذًا دعني أرَ أنك تطبق تعاليم دينك إذا كنت ترغب بأن يبقى رأسك فوق أكتافك ، ويقال بأن الأب العجوز استعاد بيته بعد فترة ليست بالطويلة.

نوبات العدالة هذه كانت نادرة وفي المناسبات، وهي شعاع ينير أوقات ظلام قسوته، إن الأمير قاسم أكد لي بأنه قد رأى إحدى زوجات الباشا تحمل في كيس لتحرق في فرن الجص (الجير)، والسبب طبعًا الغيرة، ويقال لو أنه وقع نظره على أي شخص لا يرتاح لمنظره فإنه يرسل خلفه الجلاد لقتل ذلك الإنسان، ومن الغريب أنه يقول: إنه شديد القبح ولا يستحق الحياة: ولا شك بأنه أحد أولاد الشيطان.

إن زوجة الأمير قاسم كانت امرأة شديدة التقوى وكانت تجتمع بمن في معيتها لسماع الصلاة صباحًا ومساء وكانت عادة تقرأ فصلاً من الإنجيل ، علاقة حميمة نبعت بيني وبينها ، ويا حسرتي إذ قدر لهذه العلاقة أن تنتهي سريعًا ، وبالكاد عرفتها لمدة سنتين حتى وافاها الأجل وهي تضع مولودها ، وحسب عادة الشرق يجب أن يدفن الإنسان الميت سريعًا ، وحتى بعد ساعات من موته، تم دفنها حسب هذه التقاليد وبقيت فكرة مخيفة تطاردني دائمًا ربما دفنت وهي حية.

بقى الأمير قاسم لفترة طويلة بعيدًا عن المواساة غارقًا في أحزانه، وبعد زمن خفت أحزانه ولكن الوحدة أصبحت حملا شاقا عليه، كان مهموم البال ليجد من تخلف المخلوقة المتمكنة التي قدرت لها الحكمة الإلهية أن تختطف من بين ذراعيه.

كان على علم بالعلاقة الطيبة التي كانت تربطني بزوجته المتوفاة، فجاء يطلب النصح مني لاختيار خليفتها، ولقد رشحت له بقوة امرأة جورجية جميلة جدًا كان الأمير بشير قد اشتراها مؤخرًا ، كانت امرأة تجمع في سجاياها بين فخر المعرفة والعطف مع لطافة وسحر شخصيتها بشكل يفوق العادة، شعرها كان مثل النحاس المذهب وعيناها داكنتين ناعمتين وتعبر عن الكثير.

الأمير قاسم استملح فكرتي ورأى أن أسعى لإتمام هذا الزواج، وبناء على ذلك ذهبت فورًا إلى الأميرة الكبيرة وأفصحت لها عن الأمر ، ولكن كم من الصعب حتى على أفضل النساء مقاومة الغيرة؟ خاصة عندما تتعلق المسألة بأن يرتفع شخص أقل مكانة منها إلى مكانة مساوية ة لها؟

الأميرة كانت ذات نفس ودودة وطبيعة لطيفة، ويبدو أنها تُكِن الاحترام لتلك الجورجية التي كنت أتلهف لزواجها من الأمير ابن زوج الأميرة الكبيرة ، وكانت الجورجية من ضمن من يقدمن الخدمة لجناح الأميرة، إلا أنها أبدت اعتراضها على مثل هذا الارتباط وأن هذا الأمر في غاية الحماقة وستبذل جهدها لعدم إتمامه.

كنت في موضع لا يحسد عليه، بين أن أروج لهذا الزواج، زواج الأمير قاسم من الجورجية المسيحية التي كنت أعرف أنها تستحق الاحترام لترتفع بمقامها، وفي الوقت ذاته أخاطر بجدية وأسبب الإزعاج، وربما للأبد للأميرة التي أحبها وأقدرها.

وصممت على أن لا أحفل بما يحدث لي شخصيًا نتيجة لهذه الظروف وبين أن أقوم بعمل عادل، وإذا اتهمت الأميرة بعدم العدالة والقهر سيكون ذلك من خلق كافر وثني وليس إنسان مسيحي.

وأخيرًا وبعد أن وجدت أن إقناع الأميرة بتغيير موقفها لن يجدي وضعت ثقتي بالعدالة الإلهية وفاتحت الأمير بالأمر شارحة له كيف جاءت فكرة الزواج وظروفه.

لبعض الوقت شعرت بأن هناك نوعًا من البرودة من قبل الأميرة تجاهي، ولكن قلبها الكبير لم يكن من سماته ليبقى على الحقد والضغينة لفترة طويلة، وبسرعة عدنا إلى صلتنا وعلاقتنا القوية السابقة.

أمّا بالنسبة لأميرة قاسم فامتنانها لم يكن له حدود، كانت تطلق علي اسم ملاكي الحارس، والسبب في سعادتها وتتمنى أن تغمرني بالهدايا التي كنت أرفضها قائلة لها: إنّ ما عملته كان عملاً نابعا من حب العدالة ولمجد الله، وأن الله لن يتوانى عن مكافأتي، كما أن أداء الواجب لا يتطلب مكافأة، إلا أنها أرغمتني على قبول ساعة أوربية محاطة بأحجار من الماس كعربون على محبتها وتقديرها.

الابن الثاني للأمير كان اسمه "خليل" (تعني المحبوب) كان بين الأربعين والخمسين من العمر، فاق كل إخوته ثقافة وذكاء، كان من الشعراء المشهورين في لبنان، والمحاورة معه تتسم باللغة الأدبية والذكاء، كان متضلعًا سياسيًا ويتمتع بثقة والده الأمير العظيم وكان يسميه الذراع الأيمن ويحفظ عنده بثقة خاتم الدولة، كان طويلاً وأكثر وسامة من إخوته، وسماته توحي بالكثير من الكرامة والثقة، نبله كان في روحه وأكد ذلك تفوقه في المجال الفكري والأخلاقي. لا تجد في نغمة كلامه أي تكبر أو عجرفة في مخاطبته لأكثر الأمراء سطوة أو أفقر راعي غنم.

إن التصرف بحلم وسعة الصدر من الصفات الشائعة في الشرق وهذه صفة ليس من الممكن تجاوزها من قبل المسيحيين أو الأتراك، لأن البشر من طينة واحدة متساوون في الحياة والموت.

خلال حملات الصيد كان دائمًا يقابل الرعاة الذين لا يجرؤون على مشاركة الابن المفضل للأمير في هذه الرياضة، وهم يكنون له الاحترام الشديد، ولكنهم في الوقت ذاته يعاملون وهم بين يديه معاملة حسنة بتواضع لا بتكبر أو نزق أو غطرسة، وعند التقاء أحدهم بالآخر تسمع التحية المتعارف عليها وهي أرجو أن يكون يومك سعيدًا وأرجو من الله أن يعطيك القوة، يتبادل الناس هذه التحايا بكثير من المجاملة وبقلوب مفعمة بالنوايا الحسنة.

إن هذه المزايا جعلته أكثر أهمية من إخوته، ولكن هذه المفاضلة

لم تثر أي غيرة بينهم ولم تنبس بها أي شفة، أو بانت خلال تصرفاتهم تجاهه، بل على العكس، إذ كانوا يعبرون عن رضاهم، لأن الحكمة الإلهية قد منحته هذه المواهب لكي يساعد على استقرار حكومة والده، وكانوا ينشرحون عندما يكلل بالشرف.

كان متزوجًا ولكنه لم يرزق بالذرية، ما جعله يحزن بشدة، وإن إبداء أي تعزية لزوجته غير ذي جدوى، ليل نهار كانت تقيم الصلوات بصدق وحرارة لله، وذلك لكي يتكرم ويزيل اللعنة ونقمة عدم الإنجاب، التي بسببها ينظر إليها الأقارب والجيران نظرة دونية.

كانت تزور باستمرار الكنائس والأديرة البعيدة والقريبة لكي تحصل على شفاعة القديس شفيع تلك الأماكن المقدسة، ولكن كل جهودها باءت بالفشل، ودائمًا تقرأ قصة سارة زوجة إبراهيم وتذرف الدموع الغزيرة، كانت مولعة بالورود التي كرست لها وقتًا طويلاً، تقضي الأوقات في ترتيب وتنسيق باقات الورود، تضعها في مزهريات في غرفتها، وغالبًا ما كانت تربطها في نرجيلتها.

وبما أن زوجها كان عليه الحضور باستمرار إلى بيت الدين، كانت هي أيضًا تبقى في الحريم، وبهذا كنت أتمتع برفقتها، أقضي معها ساعات جميلة خاصة في الأيام المخصصة للحمام.

إنّ حمامات بيت الدين كانت في غاية الفخامة وتشتمل على ما لا يقل عن ستة غرف، بالإضافة إلى الغرف المخصصة

للاستحمام ، كان هناك في نهاية البناية وبالقرب من الحدائق جناح ضخم مبني من الزجاج بني قبل وصولي بقليل على مساحة كبيرة من قبل معماري من دمشق.

أمام هذا الجناح ، وبوسط القاعة ، كانت هناك نافورة جميلة جدًا تنث باستمرار المياه الغزيرة النقية الصافية ، وتتجمع المياه الغزيرة في حوض إلى الأسفل مزوق بسمك من الفضة والذهب، وحولها تماثيل تنبعث منها ألحان موسيقية ناعمة وتدور بقوة المياه ، وعلى حافة الفناء الخارجي رتبت الدواوين مغطاة بمقاعد منجدة ، حيث كنا نجلس لنرتاح وندخن الأركيلة بعد الاستحمام.

ساعات طويلة كنت أقضيها في هذا المنتجع الساحر ، كان هناك حس بالمتعة الحقيقية متعة خالصة نقية وبريئة ، لم تقحم بها بلاوي وعيوب الآخرين ولم تتأثر بوجهات النظر أو بطرق تقلبات الموضة ، هنا حرارة العاطفة لقلوب متفتحة لزوج أو والد أو طفل ، تنساب بدون رقابة كما تمنحها الطبيعة ، لم تبرد نتيجة للاستهانة أو الازدراء ، إن لطافة ورقة الفطرة التي زرعتها الطبيعة في قلوبنا لكي تبارك رحلتنا خلال وادي الدموع ، وتحفظ في كل أصيل وهجة طاقة من الدفء والفضيلة لشعور نابع من القلب.

كان الأمير دائمًا يعاملني باحترام وتقدير يشرفني بثقته التامة ، وبرضا يُسدي لي أي معروف أطلبه ، وسأذكر مثالا واحدا من عدة حالات حدثت.

في يوم ما، جاء رجل من بلادي إلى بيت الدين وهو في حالة شديدة من الاضطراب النفسي والذعر وترجى إن كنت أستطيع أن أهيئ له مقابلة مع الأمير، إذ إنني الطريق الوحيد الذي من خلاله يستطيع أن يشرح حالته للأمير العظيم.

إذ قد تعرض من قبل باشا دمشق إلى أقصى حالة من الحالات التي لا تدعو إلى المسرة، ما سبب في إلقاء القبض عليه وعلى كامل عائلته، ثم رميهم في زنزانة تحت الأرض، ولكنه دبر هروبه وبقي ابنه يتعرض إلى تعذيب رهيب لكي يبوح بمكان اختفاء والده ومكان كنز يعتقد الباشا أنه قد أخفاه عنه في مكان ما للتملص من مصادرة الباشا له، ما أن اجتمعت بالرجل حتى عرفته، إذ كان عدوًا لدودًا لعائلتي في الموصل، ولم يتورع عن إنزال الدمار علينا بشتى الطرق.

إن نظراته المتكبرة والمتعالية تحولت إلى كآبة وحزن عميقين، ولكن من يستطيع مقاومة مذلة تضرعات وتوسلات أب، ومساعدته في خلاص ابنه من التعذيب القاسي والموت المهين؟ الإساءة نسيتها، فورًا كتبت رسالة إلى الأمير نيابة عنه وعن ابنه، وكنت أفكر بأنني أنقذ حياة أبي أو أخ لي، قد رضع من نفس الصدر، خذ، قلت له وأنا أعطيه الرسالة، هذه الرسالة ستحصل لك على مقابلة مع الأمير العظيم والذي أشك بأنه لن يبذل جهده في إنقاذ حياة ابنك.

مخلصنا قال: (قدم الخير لمن يكرهك، واغفر حينها سيغفر لك).

قابله الأمير فورًا ، وعندما عرف أن المسألة ملحة ويجب الإسراع فيها أرسل رسالة خاصة مستعجلة مع (Tator)، وبعد ثلاثة أيام عاد الجواب ، بأن باشا دمشق قد أطلق سراح ابن الرجل إياه، وكل أملاكهم أعيدت لهم، وعلى الاب الآن العودة بدون خوف، وما أن علم الأب بالخبر حتى غمره الفرح، في البداية لم يكن يستطيع أن يقنع نفسه بصدق ما يسمع، وفي النهاية اقتنع بأنه غير متوهم، عندها رمى نفسه تحت أقدامي وبدموع غزيرة قائلاً: لا توجد كلمات تعبر عن امتنانه العميق، أكد لي قائلاً: من الآن فصاعدًا عليّ أن أعتبره عبدًا لي، وأكدت له بأن فرحي يعادل فرحه لهذه الأخبار المفرحة، ولكن مكافأتي تكمن في قلبي، وكل ما فعلته كان تمجيدًا للرب وأنني أتمنى من كل قلبي لو أقضي بقية عمري لأقوم بمثل هذا الواجب.

كنت ولفترة طويلة متحمسة تمتلكني رغبه لزيارة أوربا، حيث كنت أعتقد بأن شمس المسيحية تشع بكامل بهائها، لا تمنعها الغيوم الداكنة للطغيان وعدم الإيمان، بالإضافة إلى أنني سمعت بأن بعض القساوسة قد بلغوا مرحلة القداسة، وإصراري كان بأن أطأ الأرض حيث أن الحكمة الإلهية آثرت وجددت وتبنت بشكل خاص أولاد أوربا ليتحدَّوا كل تحكم وسيطرة.

خلال الثلاث أو الأربع سنوات الماضية كانت تمر بي فترات أفاتح الأمير حاميَّ وصديقي الرؤوف أمير لبنان بأفكاري تلك، والذي كان يعارض بشدة تصميمي، ويؤكد لي ويقول بأن فكرتي عن الموضوع قد حملتها أكثر من حقيقتها وأني قد

أحظى على درجة عالية من التقوى والقداسة والفضيلة حيث أنا مثلما في أوربا، حيث كما يبدو بشكل واضح بأنني قد كونت عنها تلك الفكرة السامية، ومن الممكن أن قدري قد هيّأ لي خيبات الأمل المرة وليس ما كنت أتوقع، إن التقوى والفضيلة ليستا حكرًا على هذا البلد أو ذاك بل ممكن نيلها في كل زوايا الأرض، إذا بحثنا عنها بدأب وجدّ.

وكان إلى جانب ذلك يحتم علي أن لا أترك الأميرة ولأي سبب كان، وحفزني على مراعاة الصداقة وأنني من غير الممكن أن أجد سببًا كافيًا لأتابع ما قد صممت عليه.

الجبل الذي بُني عليه قصر بيت الدين محاط بسلسلة من الجبال بمناظر جميلة وهيئات مختلفة، واحد منها اسمه (Mahsaf) والذي قمته تمثل أجمل المناظر الساحرة، وتحتوي على صور سحرية للبحر والأرض، لا يستطيع المرء أن يتخيلها، هذا الجبل كان المنتجع المفضل للأميرة وصديقاتها، من هذا العلو كان بالإمكان مشاهدة جبل قصر الأمير من قمته إلى قاعدته متوجًا بالبناء السامي نفسه، حيث ترتفع أسطحه وتعلو الواحدة الأخرى وكأنها سلسلة من السلالم بنيت بجرأة عمالقة يسعون للوصول إلى السماء.

الأمير أمين كان قد بدأ ببناء قصره الصيفي على هذا الجبل والذي كان على وشك الانتهاء عندما تركت سوريا، في السهول أسفل الجبل تلتمع أعدادٌ لا تحصى من الجداول التي تنشر الخصب على بساط الوادي بكرم لا متناهٍ وسخاء وإسراف، هذه

الجداول محاطة ببساتين من أشجار التوت وغيرها ولقد شقت من نهر العاصي على حساب الأمير.

خافتًا ، لسنين خلت عندما كنت أسكن قصر الأمير ، خرجت الأميرة حسب العادة مع بعض من صديقاتها للتمتع بشرب القوة وتدخين الأرجيلة على جبل (Mahsaf) بعد ظهر أحد الأيام ، ولقد رافقتهم بهذه المناسبة ، يبدو أن حب العزلة استولى عليّ بقوة ، وتركت رفيقاتي وأخذت أتمشى متجهة إلى مرتفع فيه هضبة بقمة منبسطة حيث المنظر كان أرحب ، هنا بدأت أقطف أعشابًا برائحة عطرة حلوة وسلمت روحي إلى أحلام اليقظة والسرحان ، وأنا محاطة بهذه الطبيعة الساحرة ، أدرت عيني نحو البحر الأبيض المتوسط بزرقته العميقة ، هادئًا وغير مضطرب مثل الجنة الصافية، وتدريجيًا وأنا أحلق بالنظر تهت في شرود ذهني كفقدان الوعي ، وكل ما يحيطني بدا حينها روحيًا ، تلفعت برؤيا ولهي ، هفت نفسي إلى أرضي الموعودة أو الغرب حيث سأكمل مهمة خلاصي.

أقرأ حاليًا كتابًا مؤلفه القديس الفونسوس لاكويري (Alphonsus of liquari) الذي أعلنت روما قداسته مؤخرًا ، الكتاب يشير بلغة قوية وبإيمان متوقد إلى بطلان الزهو الأرضي، وجمال الفضائل المسيحية التي تفوق الوصف ويحث على الأعمال الروحية.

وخلال تلك الرؤيا القصيرة كأنني شاهدت فوق خط الأفق الصافي القديس الذي رسمت قداسته مؤخرًا وهو يشع باستمرار

بلطف سماوي وشعاع من نور القدسية يمتد من فوق يديه ويدعونني بتعجل إلى الأرض المباركة حيث زرع بذورًا مثمرة للإيمان الصحيح والحي.

صحوت من انجذابي الروحي ولكن الرؤيا بقيت غائرة عميقًا في قلبي ، وقررت أن أترك التكريم والغنى والمسرة وأتبع الرؤيا وأعتبرها كإشعار إلهي.

وبناء على ذلك عند عودتي للقصر طلبت مقابلة الأمير وأفضيت له عن تصميمي على المباشرة فورًا بالسفر إلى روما.

كل النقاشات السابقة أعيدت وحثني أيضًا وبقوة على مضاعفة إعادة النظر ، إلا أنها كلها ذهبت هباء ، لقد استقر فكري على اتباع هذه الخطوة وكل الأسباب المقنعة لم تتغلب عليّ، وأخيرًا أعطاني موافقته لأنني قلت له : أنا أعتبر إهمالي لعملي هنا سيكون ذنبًا وخطيئة، وبسرعة بدأت أهيئ نفسي للسفر.

فيما كنت مشغولة أتهيأ للسفر وصلتني رسالة من ماردين من شخص اسمه جبرائيل خان وهو صديق قديم لوالدي ، جاء من ديار بكر ووصل دمشق وهو في طريقه للسفر إلى أوربا ، كان يبلغ حوالي الخامسة والخمسين من العمر ويملك أراضيَ شاسعة، وفقًا للعادة المتبعة في ذلك الجزء من الشرق الذي هو منه ، فإنه قد أجّر أراضيه لعدة أشخاص ويتسلم نصف قيمة المحصول من المستأجرين كحصة له ، وبهذه الطريقة كلا الطرفين لا يعتبر نفسه تحت أي التزامات تجاه الآخر ، المفاوضات تتم وفق ظروف تضمن المساواة، ولا يحلم صاحب

الملك بمحاولة إرغام المستأجر بأي شكل أو طريقة، بالإضافة إلى ذلك كان رجلاً على قدر كبير من الثراء والذي خصص قسمًا كبيرًا منه للأعمال الخيرية مثل: إيجاد مدرسة لتدريب الشباب على مختلف فروع المعرفة المفيدة، ومن أجل سطوعها فإنه قد أسَّس الكثير من المطابع في موطنه، كان مسيحيًا تقيًا وصالحًا، وكان والدي يُكنّ له الاحترام الشديد، كان هدفه الرئيسي هو السعي بكل الوسائل لبعث القابلية للمعرفة والعلم اللذين كان الشرق مشهورًا بهما في الأزمنة القديمة.

إنه الآن سيذهب إلى روما آخذًا معه أربعة شباب خصص لهم مقاعد دراسية في كلية (college of propaganda) لأجل تدريبهم ليحصلوا على شهادة كمدرسين، ومن ثم تدريس أبناء وطنهم في مجال (Arts and sciences) الآداب والعلوم، يا للمسعى النبيل، في حين أنهم هنا يستغلون تفوقهم الثقافي الأوربي لينتزعوا من أبناء الشرق الناس البسطاء وطيبي القلوب، كل ما يمكنهم لإرضاء حبهم المفرط للثراء. إذ أن جل طاقتهم مسخرة لنهاية رفاه التقدم الأخلاقي والثقافي لإخوانهم في الخليقة، ويعتمدون تنوير الذهن على مغامر غير مقتدر والذي يمتلك حقًا وفقًا للقانون فقط، وله اعتبارات أنانية وهو غير قادر على توصيل هذه الغاية السامية.

آه لو أن لنا القدرة على اتخاذ القرار لنسمو مرة أخرى بثقة واعتماد على مصادرنا؟ لماذا نحن مرغمون على الانتظار من أجل نضوج ثمار أذهاننا، في حين أنه من الشرق انتشر نور

العلم والدين؟

استفيقوا مرة أخرى أيها الفقراء المضللون يا إخوتي في الوطن، لتصمت خلافاتكم واتحدوا لتفعيل عنصركم الذي هوى، دعونا ننفض الغبار عن أوراق كتبها نساكنا، إنّها رأس نبع ونافورة المعرفة التي جعلت ابن الغرب يمتلك الحكمة، والتي بسببها يمتعض بكبرياء عند ذكر الأسلاف في أرض الشمس المشرقة، دعونا لا نخاف من النظر إلى كلمات حكمتهم التي تحمل الدليل على انحطاطنا، هنالك في الوطن سنجد المخازن المليئة بكل تلك الأشياء التي يجوع ويتعطش لها فكر الإنسان، ولكن الممارسات الصحيحة قد قُمعت واهتزت، ونشر النور والخير قد احتواه الظلام.

أتذكر جيدًا حينما حدثني والدي عن واحد من أسلافي اسمه مار يوسف أول بطريرك كاثوليكي بهذا الاسم، الذي رسم باسم البريء الثاني، كان قد اكتشف في سراديب مدافن دير الربان هرمز الذي بناه البطريرك الكلداني تومارسو (Tomarso) أحد أسلافي أيضًا والذي يحتوي على قبر ابن الملك الفارسي الذي استشهد لبقائه على دينه المسيحي، وقد قتل بناء على أوامر من والده في القرون الأولى من ظهور المسيحية. إن قبر هذا الإنسان الورع له مكانة عظمى ليس فقط عند الكلدان والسريان، ولكن كذلك عند الكرد واليزيدية.

أقول اكتشف مكتبة كبيرة جدًا تحتوى على آلاف المجلدات مكتوبة باللغات الكلدانية والسريانية القديمة والعربية و

(stangheli) ولغات أخرى بمواضيع تعتني بالأدب (الفن) والعلم.

المكتبة نقلت إلى ديار بكر وتسلم من بطريرك إلى آخر ودائمًا يحافظون عليها كما يحافظون على الدين، بحيث أن أي مبلغ من المال لا يغري القائمين عليها بأن يفرطوا بمجلد واحد منها، قريبي المار أغسطينوس آخر البطاركة يشارك بقوة. عمي مار باسيليوس أسمر الشعور بأنه ولأي سبب من الأسباب لا يسمح لأي جزء من هذه المكتبة أن يخرج من مقر البطريركية وتحت أي ظرف كان ومهما كان مقدار التعسف الذي سيتعرض له، لم تسنح لي الفرصة لكي أطلع على المكتبة، ولكنني لا أشك بما سمعته، فإن مجلداتها تلقي الضوء على وضع المسيحية في أول ظهورها في الشرق.

في بغداد صنعت أول عينة من تلك القطعة الميكيانيكية، أي الساعة، ألم يكن هناك في إحدى مدننا ستمائة حكيم (hakim) طبيب أو الرجال المتمكنين من صنعة الشفاء، يتقاضون مرتباتهم من الدولة من أجل علاج الفقراء والمعدمين من الأمراض.

واحسرتي كم غالبًا ما تحدث في هذه الأيام؛ أيام الظلام والجهل، بأن أوربيًا دجالاً يدعي معرفة علم الطب والشفاء يجني محصولاً كبيرًا من غنى الإنسان الشرقي السريع التصديق، لمجرد سحر اسم الطبيب لأنه كما هو معلوم قد أتى من تلك الأرض ويتكلم تلك اللغة؟ يربح من نفس الرجال الذين موهبتهم

وكرمهم جعل اسم بلدهم يجل في الشرق كينبوع من خلاله العلي القدير يصب بلسم الشفاء الذي يداوي السقم المكتوب على البشرية.

إن جبرائيل الموقر كان لديه سبب آخر للقدوم إلى المدينة السرمدية وذلك لتصفية منازعة مع مندوب للبابا من روما.

الرجل الموقر أبلغني في رسالته بأن لديه النية بأن يترك دمشق للتوجه إلى البحر حيث سيتوجه من هناك في أول باخرة إلى إيطاليا ، وهو سيأخذ طريق صيدا ودير القمر وأنه سينتهز الفرصة لزيارتي لكونه قريبًا من بيت الدين.

لو أنني قد شعرت بالتردد وأصابني الشك والتوجس من أن مشروعي غير ملائم، فإن هذه المستجدات تبدو لي ملائمة جدًا لتبديد الشكوك والتوجس، حالاً جلست أكتب الرد على الرسالة، عبرت فيها عن مقدار الفرح الحقيقي الذي غمرني بتوقع رؤية صديق قديم له قيمته ، وذكرت له تصميمي لزيارة أوربا ، ورجوته أن يؤجل مغادرته لمدة شهر أو ستة أسابيع إلى أن أتهيأ، وبسرعة تسلمت الرد منه وقد وافق على اقتراحي، وأكد أنه لم يكن ليرضيه شيء سوى أن يقدم لي حمايته وسلوى صحبته في هذه الرحلة الطويلة التي سأقطعها.

لحد الآن لم أُنهِ الجزء المؤلم من مهمتي ، وهو إعلام الأميرة بنيتي ، الأميرة التي أحبها والتي دومًا تعاملني بمحبة كأخت ، تألمت كثيرًا جدًا عندما عرفت بقراري الذي قد اتخذته واستعملت كل ما باستطاعتها من حجج الإقناع لتحول دون

هدفي ذاك، ولكن بدون أن تنجح لأن فكري كان قد استقر وأن مصيري محتّم علي.

دائمًا أتساءل عن قساوة قلبي وقلة إحساسي عندما أستعرض جدية توسلات هؤلاء الأصدقاء الأعزاء المؤثرة الذين هجرتهم بتهور وبطر، لا بد أن قلبي كان من الحجارة، الله يعلم بأن عدم اهتمامي جعلني أدفع غاليًا، بالحرمان والحياة الصعبة التي واجهتني، حالما تركت ذلك البيت الرحيم الذي لم يمر عليّ يوم فيه لم أتلقَّ الحنو والتقدير، كل وجه قابلته كان يشع بالصداقة والحب.

موعد مغادرتي قد تقرر ومرافقي إياه في سفرتي المغامرة قد جاء إلى بيت الدين، حيث ضيّفه الأمير بشير لعدة أيام بحفاوة تليق بأمير، جبرائيل خان كان رجل أعمال وكان خير مساعد لي في إكمال إجراءات السفر، وبمساعدته حولت كل الفلوس التركية التي بحوزتي، كان لدي مبلغ ليس بالقليل خلال بقائي في بيت الدين، كانت ثروة ضخمة قسم منها من مرتبي الذي يدفعه لي الأمير بكوني وصيفة شرف للأميرة والبقية من الهدايا التي تقدم لي في أعياد ميلادي من قبل الأمير والأميرة وبقية أفراد العائلة، منها ذهب وفضة حولتها إلى سبائك حيث قال لي بأن قيمتها ستكون أكبر في أوربا، بالإضافة إلى الفضة والذهب أخذت معي الكثير من المجوهرات والحلي الثمينة من الماس واللؤلؤ مثل الخواتم والعقود... الخ. لذا ملكيتي وأنا أترك بيت الدين كانت تعادل ما يقارب حسبما أتذكر ثمانية آلاف (ghazi)

وهي عُملة معدنية تتراوح في سعرها ما بين خمسة عشر إلى عشرين شلنًا وفقًا لقرار السلطان!

كل شيء قد أُعد للرحلة، ودَّعتُ الأميرة والأميرة زوجة أمين وكل صديقاتي بدموع الندم المتبادلة، ثم طلبت مقابلة الأمير حيث قلت له بأن الساعة قد حلَّتْ حيث أن مصيري قد أجبرني على ترك العيش تحت سقفه الكريم.

الأمير الموقر تأثر بكلامي، وبعد أن وبخني قليلاً على عنادي جثوت أقبل يديه وقام هو مبتهلاً مرددًا الدعاء على رأسي قائلاً: ليحميك الله من كل مخاطر الأرض والبحر وأرجو وأنت تحت رحمته أن تصلي أرض الغرب بأمان لتحل رحمته ونعمته على رأسك، ليملأك الله بجلال اسمه، وتذكّري بتركك لبنان فقد تركت خلفك صديقًا وحاميًا، وإذا المناخ وماء الغرب لم يوافقا صحتك لا تترددي في العودة حالاً إلى بيت الدين، الذي سيكون لك دومًا كبيت الأقارب، وتأكدي بأنك هنا ستجدين نفس الصداقة والاحترام اللذين تركتهما هنا، ليكن الله دليلك.

لا تستطيع الكلمات أن تصف اضطراب مشاعري التي اختلجت في صدري وهو يتلو بركاته، ولكنني قبلت يده الجليلة التي غسلتها بدموع العرفان الحارة، عدت إلى غرفتي بقيت أجهش بالبكاء وتعتريني المشاعر المضطربة المتضاربة لبعض الوقت قبل أن أستطيع استجماع قراري بالمغادرة.

لم أشعر أبدًا بمثل هذا الكمد إلا في اليوم الذي فقدت فيه والدي وأهلي على يد القاسي الغاشم. حينها وجدت نفسي منبوذة من كل

العالم ، كنت شديدة التأثر وأحس بألم الفراق عن أصدقاء مخلصين، ولكن كان لي بعض العزاء بأنني سأقوم برحلة حج مقدسة لأرضي قلبي بأمنية عزيزة طالما تطلعت لتحقيقها ، والتأكيدات الثابتة لي بأن لي حام بقلب حنون وكريم، وفوق كل شيء قوي وأبوابه مفتوحة لاستقبالي.

يا لحسرتي على عدم استقرار كل ما هو أرضي، تلك الأبواب الكريمة المفتوحة أمست مغلقة أمام الأمير النبيل والعظيم الذي عرض علي بلطف حمايته(١).

هكذا كان المصير القاسي للأمير والذي كان هدفه أبدًا أن تثمر الأرض التي يحرثها بماء المسيحية وأن يجعل هذا المكان مرة أخرى المستقر الدائم للمعرفة والعلم والنظام والفضيلة. وما هو الدرس الذي تحمّله الذين وقفوا بجانبه وشاهدوه يزال عنوة من المجال المفيد الذي هو فيه، وليروا هذا المحترم النقي ذا الفكر النبيل يتحمل هذا التحول السيئ بنفس الهدوء الذي كان فيه عند الرخاء، ليروه الآن كما في السابق بكرم يتقاسم البقايا البائسة من غناه مع هؤلاء الأتباع المخلصين الذين بقوا معه في أيام النوائب السوداء، كما كان حين امتلاكه الثروة والقوة.

مثل هذا الرجل لا بد أن يكون بطلا ، هو أرفع من الثروة، إن الصدمة السمجة فشلت في أن تحدث أقل تغيير في هدوئه أو

---

(١) تشير هنا إلى نص من العهد القديم حول رؤية النبي أرميا وسبي بابل... الخ وتشبه ما حدث للأمير بتلك الأحداث من العهد القديم.

تخل من طاقته أو ثبات وتصبر روحه النبيلة.[١]

بعد وداع رقيق مع حاميَّ الرؤوم وعائلته الودودة، تركت بيت الدين بصحبة جبرائيل خان وذهبنا إلى بيروت حيث وجدنا باخرة تجارية في انتظار وصولنا حسب الاتفاق، وبعد قليل ركبنا المركب وحيانا القبطان بكثير من الاهتمام، وهو من مواليد جنوا رفعت المرساة وأقلعنا متجهين صوب أرض الغرب.

كان ذلك في أواخر شهر أيلول من سنة ١٨٣٢ حين ودعت الشرق للأبد، في نصف الساعة الأولى بقيت أقضم أحزاني بعد أن انتهى هرج ومرج استعداداتي، واستسلمت لانفعالاتي، تذكرت هجراني لأعز الأصدقاء وأخذت أبكي بمرارة، ولم يمضِ طويلاً على سكون آلامي النفسية حتى بدأت معاناتي الجسدية، إذ أن الجو كان عاصفًا ولم يمضِ على مغادرة السفينة نصف ساعة حتى بدأت أشعر بدوار البحر، وبقيت كذلك إلى أن وصلنا قبرص حيث كنت في حالة من الإغماء الذي أصابني نتيجة للإرهاق من الاستفراغ المفرط الذي كان يهاجمني بدون انقطاع، لم أتناول أي طعام ولم أشرب أي شيء وأنا على اعتقاد ويقين بأننا لو لم نصل قبرص لكنت قد مت.

---

(١) هنا تستشهد أيضًا بنصوص من العهد القديم.

بقينا في قبرص عشرين يومًا ، حيث قضينا معظمها نتمشى في الجزيرة ، وفي نهاية المدة كنت قد استعدت عافيتي ومصممة على متابعة الرحلة ، قبل أن نستقل الباخرة اشتريت هدايا لأقدمها في أوربا ، وهي عبارة عن بضع براميل من النبيذ القبرصي الأحمر والأبيض ، بالإضافة إلى أنني كنت قد جلبت معي أربعة خراف سمينة بذيولها الكبيرة اشتريتها من الدروز ، والتي وصفتها سابقًا كهدية لقداسة البابا ، وصندوقًا صغيرًا من السما الأصلي الذي أرسل لي من ديار بكر.

استمر الجو عاصفًا كما كان عندما تركنا قبرص، الرياح كانت معاكسة والأمواج تتقاذف وترتفع بعلو الجبال، عدت إلى حالتي البائسة التي كنتها قبل أن أصل قبرص ولم أستطع أن أغادر مأواي ، لحسن حظي كانت القمرة مخصصة لي وحدي وإلا أمست حالتي صعبة الاحتمال.

بعد مضي بضعة أيام علينا ونحن في البحر ، إحدى النعاج السمينة التي اشتريتها من الدروز ، لهطت الكثير من البسكويت وفي الوقت نفسه لم تستطع أن تتحرك من مكانها على سطح الباخرة ولو لهنيهة بسبب الجو العاصف فمرضت ونفقت ، أمر قبطان الباخرة بأن ترمى في البحر حالاً ، بعد أيام أصاب نعجة أخرى ما أصاب الأولى وأمر القبطان برميها في البحر ، إلا أن الملاحين رفضوا ذلك وأرادوا سلخها وأكلها لأنهم لم يأكلوا سوى الأكلات المملحة المحفوظة ، قاوموا أمر القبطان الذي رفض الانصياع لهم ونتيجة لذلك بدأ شجار.

كنت في قمرتي مستلقية على فراشي مريضة ومحطمة، حينها فجأة سمعت أصواتًا غاضبة بوضوح تأتي من على سطح الباخرة، وأخذت الأصوات تتزايد إلى درجة طغت على هدير أصوات الطبيعة، سمعت ضربات لوقع أقدام وأصواتًا أخرى تشير إلى نضال مميت مصحوب بلعنات وصيحات ألم عالية، لم أعد أحتمل لكوني مريضة وجاهدت لتسلق السلم المؤدي للسطح وهناك واجهني منظر اقشعر له بدني من الرعب، السطح كان مرشوشا بالدماء، القبطان ومع من يؤيده من الطاقم كانوا قد اشتركوا في مشادة حامية مع بقية الطاقم الذي أراد الاحتفاظ بالنعجة الميتة، السكاكين أشهرت من قبل كلا الطرفين، والكثير منهم ينزف بغزارة من جروح أحدثها فيهم زملاؤهم الغاضبون.

صحت بهم باسم الله لتتوقف مشاحنتهم اللا إنسانية، وسعيت على قدر استطاعتي إذ كنت حينها لم أستطع أن أفهمهم مقصدي لصعوبة التفاهم بلغتهم، وبعد أن علمت أنّ سبب الشجار هو نعجتي الميتة، وهي سبب إراقة هذه الدماء، توسلت إليهم بحق السماء أن يأخذوا إحدى النعاج من اللواتي ما زلن أحياء ليقتسموها فيما بينهم وليرموا الميتة في البحر إطاعة لأوامر القبطان، ويبدو أن هذا الحل الوسط قد أرضى الجميع وانتهى الشجار، حينها عدت إلى قمرتي وأنا منشرحة لتدخلي، وبتضحيتي بإحدى النعاج أنقذت إخوتي في البشرية.

بعد هذا الحادث بقليل؛ الجو تغير والبحر أصبح هادئا والسماء صافية ونتيجة لذلك فإن صحتي تحسنت بسرعة وتمكنت بعد

ذلك من التمتع بالهواء العذب من على سطح الباخرة.

أي منظر أكثر بهاءً من منظر الشمس وهي تغرق تحت الأمواج؟ حيث وجه البحر الواسع الفسيح كأنه نار سائلة؟ أو ترى تلك الكرة ترافقها نسمات الفجر الهادئة تطل من الشرق فوق الأفق؟ وتلون ارتفاعات طيات وتكسرات الأمواج التي لا حصر لها بلون الذهب.

المنظر كان مثار متعتي كل يوم، حين كان الجو رائقًا والريح هادئة. خلال الفترات ما بين الشروق والغروب كنت أقضي معظم وقتي على سطح الباخرة، أحيانًا أتكئ على حاجز الباخرة وأراقب ارتفاعات الأمواج التي تسحبها باخرتنا، وأحيانًا أراقب الناس الذين على السطح، هنا شاب يقرأ وهناك بحار جالس على السطح يصلح الشراع بإبرة كبيرة جدًا كأنها شفرة خنجر ويهمهم بلحن مفرح، الكل يبدو عليهم الفرح والقناعة، يبدون وهم يتسلون في أوقات الفراغ حيث أن الباخرة تسير بطريقها ولا تحتاج كما يبدو إلى دليل، حتى أن سيماء الربان تدل على أن الخواطر التي تمر بذهنه تدعو إلى الراحة والاقتناع.

كل مساء بعد اختفاء الشمس تحت الأمواج الغربية فإن الربان يدعو الطاقم إلى صلاة المساء، وكل من يستطيع القراءة ويملك صوتًا جيدًا يأخذ كتاب الصلوات ويرتل السلام لك يا مريم، ويكرر دعاء العذراء مريم وحينها يتبعه البقية. كنت دائمًا أشارك بإخلاص في هذه الصلوات المسائية والتي تمنح فكري الالتزام التام غير الممزوج بالخوف والرهبة.

كم هو مخيف غضب الله لمن يغلق عينيه عن قوة الأمواج العاتية ويعرف أنه سيرى شمس الغد؟ إن العرب يقولون بحق: (إن الذي لا يخاف المحيطات لا يخاف الله).

إن الموسم الآن شتاء والجو الهادئ كان لفترة قصيرة، هبت الريح مجددًا قوية وعنيفة رمتنا بعيدًا عن مسارنا وأقلقت راحتنا وأخيرًا تحولت إلى عاصفة وأخذت الأمواج ترتفع عاليًا تنثر الرغوة ورذاذ الماء على سطح الباخرة، ولم نعد نرى الشمس لا في الشروق ولا في الغروب، السماء أصبحت كئيبة رمادية مغطاة بغيوم داكنة تنذر بالشر، استمرت العاصفة بدون أن تهدأ لمدة يومين وليلتين وطاقم الباخرة أرهقوا بالمراقبة المستمرة وعدم التوقف عن العناء وكان عليهم العمل بدون توقف عند استمرار العاصفة.

في اليوم التالي تحولت العاصفة إلى إعصار، كل قطعة من قماش الشراع قد اهترأت، وأخذت الباخرة تتدحرج وتتقاذفها الأمواج مثل جذع شجرة على تلك الامواج الفائرة، وعندما حلَّ المساء تحول لون السماء القاتم إلى أسود حالك والرياح تعوي، الآن تشبه زفرات وزعيق المكتئب والمهموم، والآن تشبه صيحة الجمل الخائف، والآن زئير آلاف الحيوانات الوحشية المتعطشة لدماء الفريسة، وبين فترة وأخرى صيحات تبادل المهمات بين طاقم الباخرة كانت تسمع تتردد بكلمات قصيرة، وصوت الربان القوي الحازم وهو يعطي الأوامر والقرارات ينبئ عن الهدوء الذي يجلب العزاء للخائف والشجاعة للمتخاذل.

الليل انجلى ، الرياح ازدادت ، فيض من المطر المصحوب بالبرد ، وسواري السفينة انحنت وكأنها قصبة منحنية أمام الرياح من شدة العصف.

كان من الصعوبة تصور أن الباخرة ستنجو من العاصفة، ظلام الليل أضاف رهبة من المجهول إلى الرعب الذي يحيطنا من كل جانب، ومضات من البرق بألوانها المرعبة، تضيء أمام العين، منظر الطاقم الخائف ، في حين أن صوت الرعد طغى على أصوات وصراخ البحارة المرعوبين، أصواتهم الآن بدأت تنذر بأن الرعب قد ملأ صدورهم ، كل شيء ميئوس منه الآن ، والربان أعلن أننا في خطر مؤكد ومحدق.

الورع جبرائيل والشباب الذين بمعيته يحيطون به وهم يركعون على أرض القمرة وسيماؤهم في منتهى الهدوء وقد سلموا أمرهم إلى الحكمة الإلهية، يتلون الصلاة إلى العرش السماوي المجيد ، يطلبون رحمة العلي القدير باسم الذي بصوته أسكت صوت العاصفة عندما كان تلاميذه على وشك الموت، يدعونه أن يتدخل بيده القوية التي وحدها تستطيع أن تمنحهم الأمل بالنجاة من هذا التدمير.

شجاعتي لم تخُني أبدًا في المواقف الطارئة، ربما هناك القليل من النساء اللواتي لا يغشاهن الخوف ويضعفن أمامه. لقد خبرت الخطر ليست مرة واحدة بل عدة مرات، وغالبًا ما رأيت الدماء تسيل بعنف والرجال يسقطون بجانبي وهم بألم وحشرجة الموت الذين كنا قبل ساعة نتحادث معهم بأحاديث مفرحة ، رأيت

هؤلاء الأعزاء لدي يقطعون بأفظع سبل التعذيب، وحياتي دائمًا كانت في خطر في عدة مناسبات، ولكن قلبي لم يصبح أبيض اللون من الخوف إلا في تلك الليلة، إذ لم يكن هناك ما يشغل البال من الخطر المقبل، وكل أساليب البشر لم تنفع في درئه.

بسماع صياح التخبط والخوف على سطح الباخرة لم أستطع أن أتماسك أكثر، ولكنني تسلقت السلم إلى أعلى ما أستطيع ورأيت هناك طاقم السفينة وهم في خيبة متشبثين بالحبال أو أي شيء يستطيعون الإمساك به حفاظًا على سلامتهم، متخلين عن كل عمل، وقد غرقوا في خيبة تامّة ينشرون الصراخ المرعب ولا يستجيب لهم سوى عويل العاصفة وتصادم الطبيعة.

عدتُ إلى قمرتي ونفَسي مقطوع من الرعب وشاركت جبرائيل المتلزم وطلابه بالصلاة والاستعداد للموت. وأنا بهذه الحالة ذهبت إلى فراشي الذي اعتبرته قبري الذي منه لن أنهض ثانية في هذه الدنيا، وكرست نفسي للصلاة، في البدء فكرت بأصدقائي الذين هجرتهم والذين لن أراهم ثانية، هذه الفكرة استولت على فكري وسفحت الكثير من الدموع، دموع المرارة والندم والأسى، ولكن بعد فترة أصبح فكري أكثر تركيزا، وفكرت ما أهمية أن تستقر عظامي تحت الأرض أو في الأعماق، ألن تكتشفها العين الساهرة في يوم الدينونة، مشيئة الله ستتم.

ملأني الأمل في خيرات الله القدير، وسلمت نفسي بتواضع إلى مشيئته ويداي متصالبتان وفكري هادئ منتظرة ذهاب روحي

إلى الأبدية.

كان الوقت ضُحى عندما استيقظت في اليوم التالي، القمرة مليئة بالضياء هادئة ومفرحة، الباخرة لم تعد تتلوى وتئن وتتقاذف مثل حصان نبيل تلقى طعنة الموت، بل تتحرك بتموج ورقة، عللت نفسي بفكرة أنني في فراشي على اليابسة وبأمان ولم أعد تحت رحمة اللجج الغاضبة، لم أصدق حواسي، فركت عينيّ ونظرت حولي لم أسمع أي صوت سوى صوت البحارة الهادئ والمستقر يتمشَّون على سطح الباخرة، إن رعب الليلة الماضية بدا لي كأحداث حلم مشوش، أول شيء قمت به هو قدمت صلوات الشكر لله على سلامتي، وثاني شيء أن أرتدي ملابسي وأن أسرع بكل قواي للالتحاق بمن شاركني الخطر، كي نشارك جميعًا في تقديم امتناننا إلى عرش الرحمة لمعجزة نجاتنا من الدمار.

كم هو صحيح ما قاله السندباد البحري البغدادي[١] (............. and sleep ،Suffer Destint to roll on in her course with a mind at ease; for between sleeping and waking the current of event is often completely .reversed)

(١) **سأضع النص باللغة الإنجليزية لأنني لم أجده في النص العربي وقد يساعدني القُرَّاء في البحث.**

أول شخص صادفته كان ربان الباخرة وقال "ليتمجد الرب ، العاصفة هدأت والرياح الخفيفة قد هبت الآن".

ذهبت إلى سطح الباخرة، السماء بدون غيوم والشمس تسطع، السطح مليء بالمسافرين والملاحين، لم نسمع شيئًا سوى تبادل التحايا على نجاتنا من بين أنياب الموت.

كرَّسنا كل هذا اليوم للاحتفالات والابتهاج، كثير من الدواجن أخرجت من الأقفاص وذبحت للأكل وكميات الخمر التي شربت لم تكن قليلة للاحتفال بنجاتنا، ومن جانبي شعرت بأنني قد عدت من القبر.

الجو الرائق لم يستمر ، بعد يوم أو يومين من صفاء السماء عادت العاصفة والتي لم تخيب ظننا وتوقعاتنا، ولكنها وضعت نهاية لبهجتنا، حصرنا في أسفل الباخرة، إلا أن هذه العواصف كانت هينة ولم تبدُ لنا خلال بقية الرحلة بأنها ذات طبيعة خطرة، ورغم عدم أهميتها إلا أنه كان لها تأثير على صحتي وحرمتني من شهيتي وأعادت لي دوار البحر إلى أن انتهت الرحلة.

لم أنهك في حياتي كما أنهكتني هذه الرحلة ، شوقي لرؤية الأرض كشوق الطفل لثدي أمه، الربان الذي كان على علم بشعوري هذا إذ إنّني كنت قد خصصت مكافأة لأول من يريني اليابسة، وكان شخص يحب النكتة في صباح أحد الأيام جاء قائلاً وهو شديد التحمس اصعدي إلى الأعلى يا سيدة وسأريك

صخرة جبل منوتينيرو [1].

صعدت إلى السطح بصعوبة وتردد ، نظرت أمامي ولم أجد الصخرة أو أي شيء آخر في الجوار يشير إلى وجود اليابسة، رغم أنني شخصت ببصري إلى أقصى ما أستطيع ، وقلت للربان أين الصخرة التي وعدت أن تريني إياها ، قلت له هذا وهو متكئ على سياج الباخرة ، قال تعالَي إلى هذه الناحية يا سيدة وسأريك ، وقادني إلى أخر السفينة للمطبخ وجلب قطعة حجارة وقال إنها قد اقتطعت من جبل منتينيرو ، ربما في ظرف آخر كنت استملحت النكتة ولكنني لم أكن بحالة نفسية للضحك بعد أن أنهكني المرض ومنعني عن الطعام، لذا انسحبت مجددًا إلى قمرتي وبي غصة من خيبة الأمل.

وأخيرًا بعد ثلاثة أشهر والتي خلالها سحبت الباخرة إلى الخلف عدة أميال بقوة الرياح في اليوم الواحد ، وصلنا (ليجهورن) وأنزلت المرساة ولقد نزلنا في (العزل الصحي) ، حيث فرض علينا ولمدة أربعين يومًا البقاء تحت المراقبة الشديدة وكل مسافر له غرفة منفصلة والذي لا يجوز الخروج منها إلا في أوقات معينة خلال اليوم حيث يسمح لنا بالمشي على لسان بري حيث تقف باخرة العزل الصحي تحت مراقبة الحراس المشددة، القوانين كانت صارمة جدًا بحيث أن الإنسان الذي أمضى ٣٩ يومًا في العزل وتلامس مع أي قادم جديد من الدول المشكوك

---

(١) جبل عليه كنسية دير للسيدة العذراء وله أهمية عند الكاثوليك.

فيها لا يحق له ترك العزل إلا بعد أن يمضي ذلك القادم الجديد مدة الأربعين يومًا ، أي يعني أنه بعد أن كان قد أمضى ٣٩ يومًا عليه أن يمضى أربعين يومًا آخر ، وبهذا يقضي سيئ الحظ ٧٨ يومًا آخر إلى أن تنتهي مدة العزل.

يا للجمع من الناس الجدد الذين وقع ناظري عليهم، حيث رست باخرتنا وقبل أن ننقل إلى مكان العزل ، يا للهرج والمرج كم يختلف المنظر عما قد اعتاد عليه نظري في المدن الشرقية ، المرفأ يعج بأناس في محادثة جادة حية ومحتدة ، يبدو أنه لا يوجد ما يشغل بالهم أبدًا ، كم يختلف عن القبر والصمت التركي، ولكن كم هي قاتمة ورصينة ملابسهم، كأنهم في حداد ، يا للتضاد بينها وبين انشراحهم وحركاتهم وإيماءاتهم.

هنا لا عمامات بيضاء ساطعة ولا الطرابيش الحمر ولا الأغوات المتكبرون المتبخترون بمشيتهم المتعجرفة ولا التماعات المجوهرات الفاخرة في خناجرهم وصدرياتهم المزينة بالذهب. ولكن مع هذا هنا يبدو أن كل رجل ينظر إلى الآخر نظرة الأخ ، يبدو أن الجميع متساوون ، النساء كذلك ، شابات جميلات مرحات ، كلهن بدون نقاب يعرضن سحرهن على المارين دون خوف أو خجل.

عليَّ الإقرار بأن الظرف الأخير سبب لي صدمة في البداية ، وأعتقد صورت لي الكثير من قلة الاحتشام والتواضع الأنثوي، ولكن بعد أن تمعنت فكرت يا لسعادتهن حيث تستطيع الأنثى في الخارج أن تسير بحرية كما يفعل الجنس الآخر.

على الرغم من هذه الحرية فإن الخلق والجلال والفضيلة تشع تمامًا بين جميع الطبقات.

البيوت أيضًا كم هي عالية وشاخصة ، بنوافذ كبيرة في كل الطوابق ، وبأعداد كبيرة وتدل على أن ساكنيها ليس لديهم ما يريدون إخفاءه حتى في مساكنهم الخاصة.

بتعجب قلت: يا ترى أي قسم منه مخصص للنساء؟ بلد سعيد، صحت : هذه حقًا الأرض الموعودة ، لم أدخر وسعًا لاحظى بموطئ قدم على شُطآنكم الأثيرة.

اشتقت للاختلاط بالجمع المرح الذي ملأ المرفأ، ولكنني عرفت بأنه يجب أن تمضي فترة قبل السماح لي للتمتع بهذه السلوى ، أخذنا إلى العزل الصحي حيث كما قلت خصص لكل منا شقة، كتب أن نبقى فيها طويلاً إلى أن تنتهي مدة العزل الصحي.

كنت منهكة من شدة المرض الذي أصابني خلال الرحلة وطوال مدة عزلتي، كنت في غاية المرض وعند انتهاء مدة العزل تم حملي إلى الفندق في لوجهورن ، وذهبت مباشرة إلى الفراش حيث بقيت لمدة ثلاثة أشهر في حالة من الإنهاك.

عند إنزال أمتعتي من الباخرة اكتشفت بأن صناديق النبيذ قد أُفرغت كلها تقريبًا من قبل البحارة الذين ابتكروا حيلة بإدخال قصبة ببراميل النبيذ عبر القاطع الذي يفصل قمرتي عن الآخرين، إلا أنني لم أحس بهم وهم متلبسون، وهكذا فإن نبيذي القبرصي والذي كنت قد قررت إهداءه للأوربيين الذي أحمل

لهم توصيات وكنت أتوقع أن يلاقي قبولاً منهم قد أصبح بدون فائدة، وهذه خسارة لا يمكن تعويضها، لهذا استسلمت للأمر الواقع.

جبرائيل الذي كانت لديه أعمال عليه إنجازها في روما كان متلهفا لإتمامها بدون تأخير، عندما وجد بؤسي وقلة رجائي قرَّر البقاء معي رحمة بي لمدة شهرين في لونجهورن، وعند نهايتها لم يجد بدًا من السفر بعد أن وجد أنني لا يمكن أن أتمكّن من مرافقته على الأقل لفترة معينة، لذا غادر مع طلابه وترجاني اللحاق به عندما تتحسن صحتي، بدا سوء طالعي ورزاياي عندما تركني هذا الرجل الممتاز رغما عنه وللضرورة بين الغرباء لرعايتي. وكما يبدو أنه من تلك اللحظة فإن القدر قد أرسى بكل ثقله علينا نحن الاثنين، إذ إنّه أنهى عمله بسرعة وعاد إلى موطنه، حينها أصبح ضحية للاضطهاد، وفريسة لابتزاز مدمر وطغيان مقيم، مشاريعه كلها أحبطت بسبب غيرة وتدخل سلطة الأتراك، أمواله صودرت وقد تلقى موتًا مذلاً.

الله أعلم إلى أي مدى كان سينجح لو عاش ليكمل غايته التي كانت موضع فخر وجوده كله، وهي إعادة إحياء وطنه، لأنه كان يمتلك الفضيلة وحب العلم والشجاعة والقرار وثروةً يمكن أن تقاس بمقدار كرمه ونبله، وجهدًا كبيرًا في سبيل التقوى الذي كرس حياته له. ولكن العناية الإلهية أرادت أخذه قبل أن يكمل مشروعه ويتطور، لقد قاسى واستشهد دفاعًا عن كل ما هو عظيم وجيد في الطبيعة البشرية، ترك خلفه اسمًا سيكرم

ويشرف ما دام هناك ومضة من الفضيلة تلتمع على سطح الأرض.

واعتبارًا من هذه الفترة أمست حياتي بحاجة إلى استمرار الرعاية، وتواصل الكدر وخيبات الأمل.

الحظ العاثر قسمتي كما في قصة المسافر في الكتاب المقدس إذ قد وقعت بين السُّراق، ولست هنا ناكرة أن السامري الصالح موجود في أوربا، أنا أعرف أن هذه حقيقة، إذ سمعت عن أحداث وتصرفات نبيلة ممكن مقارنتها بالأمثلة التي أوردها مخلصنا، مثلاً عن الكرم النبيل الذي حدث من قبل محسن رفيع المقام في الشرق، وتعكس شرقًا كبيرًا على الشخصية الرئيسية الذي قام بالعمل، وبسبب تصرفه هذا رفع من مقام أخلاقيات بلده الذي يمثله في الشرق، ولا أستطيع أن أمتنع عن نسب الحادث إليه، وهو شخص مميز، كان القنصل البريطاني في بغداد منذ عشرين سنة خلت مستر (Rich)، لقد سمعت من قريبي البطريرك أوستينوس عمّا حدث لصديق له، كيف أن القنصل بمودته وحزمه وكرامة تصرفه الذي أكسب عمله أهميه قصوى بحيث حظي بتأثير قوي على الباشا لتلك المنطقة حتى إن سيطرته هناك كانت تعادل سيطرة الحاكم نفسه، وتدخل مرة لإنقاذ مسيحي من تنفيذ حكم الإعدام، ونجحت شفاعته وأعيد المسيحي إلى أصدقائه والذي عرفانهم لفضله لم يعرف حدودًا.

وبعد هذا الحادث بفترة قصيرة جاء رسول للقنصلية قاصدًا القنصل البريطاني، يحمل على رأسه صينية (syneiah) من

التي تستعمل لتقديم العشاء في الشرق مملوءة ومغطاة بغطاء مزوقة حاشيته بالذهب ، في البداية اعتقد القنصل بأن الهدية فاكهة ولكن ما أن رفع الغطاء ووجد أن الصينية مملوءة بالمجوهرات واللؤلؤ والشالات الفارسية ومواد أخرى ثمينة وهي شهادة عرفان من عائلة الرجل المسيحي الذي أنقذه من الموت، حتّى أعاد القنصل على الفور الكنوز تلك مصرحًا بأنه من غير الممكن أن يقبل مكافأة لعمل إنساني، ومن الممكن أن الكثير من هذه الحوادث قد حدث خلال عمل هذا الرجل الممتاز فعلاً والذي لا يوازيه أحد في هذه الدنيا، يضحي من أجل قضية إنسانية ولعمل الخير المسيحي ، إنه لخسارة لبلاده لا تعوض وللذين كانت يده الرحيمة تتدخل لتنقذهم من التدمير والتعذيب.

إن الحوادث التي حصلت لي خلال الاثنتي عشرة سنة من بقائي في أوربا قد تملأ مجلدات ، ولكن أعتقد أن هذه المذكرات قد طالت، وتنذرني بأنني قد تجاوزت صبر القارئ والذي لا أشك بأنه لا بد قد تعب من ترديد سوء الطالع ، الذي هو مهم فقط للفرد المتواضع الذي يحس به والمتعلق به، بالإضافة إلى الأخذ بالحسبان نوبات مرض (tic denloureux....) [1] التي تصيب رأسي وعيني، تمنعي من سرد كل الحوادث، ولكنني لا أحس باليأس من أن أقدّم للعالم تفاصيل الحوادث والمغامرات

(١) مرض آلامه أشد من الشقيقة ، وحالة مؤقتة من ألم كطعنة السكين على امتداد العصب التؤمي الثلاثي ، يصيب الوجه والعين في الوجه.

والأذيات التي أصابتني خلال مدة النفي التي استمرت اثنتي عشرة سنة ما بين إيطاليا وفرنسا وإنكلترا والتي فيها جعلتني الظروف أحتك بأناس على درجة مختلفة في دول أوربية والتي اكتنفتها حوادث مثيرة جدًا ، ولكن ما أقدمه الآن سيكون موجزًا لما حصل لي في لونجهورن في سنة ١٨٣٢ وإلى اليوم الحاضر.

أستطيع القول إنه في هذه الفترة تعرفت على العالم واقتحمته، حتى تلك الفترة كنت أعيش وأنا في جهل تام عن حقيقة العالم كأنني قد سكنت صومعة كل أيامي الماضية تلك، تصوراتي كانت مستبشرة عن سمو الطبيعة البشرية، وكنت آمل بشغف، بل كلما شعرت بأنني فعلاً مقتنعة بأن العالم وخاصة القسم الأكثر تحضرا مترع بالإحسان النقي والكرامة والتنور والفضيلة والتقوى المسيحية الحقة.

قليلة هي شكوكي حول مجريات علاقات الإنسان بالإنسان والتعامل بالمسائل الصغيرة أو المهمة في الحياة إن كانت سفاسف أو بالغة الأهمية ، والتي تؤثر دائمًا وعلى كل المستويات في العلاقات المتبادلة، هذه المسألة بالنسبة لي كانت كتابًا محكم الإغلاق، حالة لا أعرفها ولا أتوقعها ولم أحلم بها، إن التسايس الذي درسته نقي وبسيط، مواعظ قدسية لواجباتي نحو الله وحبي لجاري كلامي أعنيه الكلا تعني كلا والنعم تعني نعم.

يا لحسرتي كم أنّ هذه التجارب وبوقاحة قد رفعت عن عيني

حجاب سرعة التصديق وقلة المعرفة، وفتحت أمام ناظري المتألم صورة العالم بألوانه الحقيقية المليئة بالحيل والبحث عن الذات والنفاق بحيث أن الباحث عن الفضيلة سيكون حاله حال البحار الذي يبحث عن بارا (para) مفقودة في مضيق باب المندب (Bab el Mandel)

لقد جربت الدنيا والآن صبري أخذ ينفذ وأنا أتطلع إلى نبذ اضطرابها وجيشانها والنزوع إلى الأمان والعزلة حيث الكآبة المخيفة والعزلة الرهيبة في جبل سيناء.

هناك سأكدُّ في تحصيل معيشتي لما تبقى من أيام عمري، حيث لا رفيق لي سوى وحوش الصحراء والغابات بعيدًا في قفر لا يتردد إنسان عليه، في تلك العزلة سأكتب الحوادث المأساوية لذلك الجزء من حياتي، حيث أن قسمتي وحظي تقولبت ما بين التسيس والمتعة، والآن عندما أتذكر قصة حياتي في بداية حياتي قبل أن أُقحم بغفلة ببحر عواطف البشر المضطرب وغدر الناس ومكائدهم، حينها سأشير إلى التقوى المزيفة للذين جعلوا المظاهر الخارجية للعبادة وسيلة لبلوغ مآربهم أو كيفية استثمار لؤمهم وغدرهم.

بعد وقت من مغادرة جبرائيل خان إلى روما كان لا بد لي أن أدفع أجور إقامتي ومصاريفي لفترة مرضي الطويلة. كنت قد جلبت رسالة توصية لرجل أعمال في لونجهورن والذي قيل لي بأنه جدير بالثقة، وأنه سيكون ذا فائدة كبيرة لي في أموري المالية، أردت أن أحول نقودي الفضية التي جلبتها من الشرق

إلى عملة هذا البلد، أرسلت في طلبه وجاء وتسلم مني كمية من السبائك لتحويلها إلى نقد ، عاد لي بالنقود ودهشت لقلتها ، وأعربت له عن ذلك وأن التصريف لم يكن من مصلحتي ، ولكنه أكّد لي بأنه قد جلب لي الكمية كاملة وأنه من المستحيل أن أحصل على أكثر ، مصرحا بأنه قد أرسل السبائك إلى فلورنسا للحصول على أفضل العروض ، ولأنني سريعة التصديق لم أشك ولو للحظة بأمانة الرجل ونزاهته ، وبهذا تمت خديعتي الكبرى بما قد حصلت ، عرفت ذلك بمقارنة ما دفعت من نقد كثير لمصاريفي وكمية المال القليلة التي حصلت عليها ، وبعدها قيل لي بأنني لم أحصل على عشر ثمن سبائكي.

بعد مضي ستة أشهر تعافيت تمامًا لأستمر برحلتي، لذا التحقت بمجموعة محترمة للذهاب إلى روما عن طريق (Civita Vecchia) حيث بدأنا الرحلة من تلك المدينة وحدثت خلالها حادثة مسلية، كان معنا رجل غني ومعروف من روما وراهب من رهبنة الكبوشيين وأنا وشخص آخر ، الرجل الغني كان يحمل معه مجوهرات ثمينة كهدية ومفاجأة لزوجته التي تنتظر وصوله إلى روما ، هذه الهدية الثمينة سببت له القلق نتيجة لضريبة الكمارك العالية التي ستترتب عليه بسببها عند دخوله مدينة الفاتيكان المدينة المقدسة ، وأعمل ذهنه للوصول إلى طريقة يمكن بها تجنب مراقب الكمارك اليقظ في روما (douaniers..) ويمرر هدية زوجته بدون دفع الجمارك.

وأخيرًا وبعجالة خاطب الراهب الكبوشي البسيط داعيًا إياه أن يضع الحلية الثمينة تحت جبته حيث أنه متأكد من أنها ستكون بأمان، إذ إنه من النادر أن ضباط الكمارك الحريصين يفتشون الرهبان، فهم عادة لا يحملون أي شيء معهم سوى كنوزهم الروحية، إن الراهب الذي تبدو عليه الطيبة رضي بأن يخفي المجوهرات تحت جبته، وعند وصولنا إلى مخفر الجمارك سألنا كل واحد بدوره إن كان لدينا ما نعلنه للمسؤول، أنا لم يكن معي أي شيء وزميلي المسافر قال نفس الشيء وعندما جاء دور الراهب فإنه هز رأسه مشيرا إلى جبته قائلاً نعم هنا لدي مجوهرات ثمينة جدًا ، وهي هدية للسيدة ، إلا أن ضابط الجمارك اعتبر الكلام مزحة ولم يصدقه وضحك من كلام الراهب الذي يعود إلى رهبنة تعتمد الصدقة والإحسان أساسًا لمقومات حياتها، فكيف له أن يحمل أشياء ثمينة، وسمح لنا بالمواصلة.

بعد أن ابتعدنا مسافة عن نقطة الجمارك فإن صاحب المجوهرات احتج على الراهب لعدم الثقة به قائلاً لولا حسن الحظ فإنه كان سيفقد كل المجوهرات بسبب صراحته البليدة، لو أنك كنت قد قلت لي بأنك ستخونني وتخبر الجمارك عن المجوهرات لكنت تحملت بنفسي المخاطر.

ردَّ عليه الراهب الكبوشي إنني في حيرة من أي شيء أنت قد تضايقت، وبأي حق تدعي عليّ بهذه الاتهامات، خذ هذه هدية زوجتك بدون ضرائب، كما وأنني لم ألوث ضميري بكذبة.

أول ما وصلت ذهبت إلى فندق في (Piazza di Spagna......) وحالا أرسلت رسائل التوصية التي جلبتها معي إلى الكردينال (Odescalchi) نائب البابا والكاردينال (Weld) وإلى الكثير من الشخصيات المهمة في الكنيسة والذي قسم كبير منهم وخاصة نيافة الاثنين الأولين كانا خير صديقين ومعينين مستمرين خلال الأربع سنوات من بقائي في روما.

ليس في نيتي في هذا الكتاب أن أدخل في تفاصيل عن هذه الفترة من حياتي ، سأكتفي بحديث موجز ، حيث أنني بعد وصولي إلى المدينة المقدسة قدمت لقداسة البابا واستقبلني بكثير من مظاهر التبجيل وعزاني عن المصائب التي حلت بعائلتي، حيث كان على علم بكثير من التفاصيل، إن عائلتي معروفة لديه وأمر الراهب المسؤول بأن أسكن في أفضل دير حيث بقيت لفترة طويلة، وعندما وجدت أن صحتي أخذت تتردى أوصيت أن أغير مكان سكني فإن قداسته منحني الموافقة للدخول في دير آخر ، ولكنني لم أتحسن وبقيت أقاسي من الآلام المبرحة في رأسي فلقد نصحوني بأن أتخلى عن فكرة البقاء في هذا الدير.

خلال بقائي في روما سُرقت مرة أخرى وخسارتي كانت أكثر من تلك التي حدثت في لونجهورن ، سوء الطالع هذا أوصلني إلى درجة التسول، إذ أن الصندوق الذي يحتوي تقريبًا على كل ما أملك قد كسر حينما كنت خارجة في زيارة إحدى سيدات المجتمع في روما ، الصندوق كان يحتوى على مجوهرات ورثتها عن عائلتي وكمية كبيرة من النقود ، وعندما اكتشفت

خسارتي تلاني اليأس، يبدو أن مصيري التعس لن يفارقني، حالاً ذهبت إلى أصدقائي أبحث عن النصح وأنا محطمة القلب، ونصحوني بالذهاب فورًا إلى الشرطة، فعلت ذلك فورًا تم النظر في القضية من قبل ضابط مسؤول، الشكوك دارت حول شخص معين اختفى فجأة بعد أن اكتشفت السرقة، ولكن لم يستطع أحد العثور عليه ولا يمكن تجاهل الجهد الذي بذله رجال الشرطة، لكن يبدو أنه قد عبر الحدود مباشرة بعد اقترافه السرقة وقد خطط لجريمته هذه مسبقًا.

هذه الظروف مقترنة بالإحراج الذي كنت ضحيته دومًا لأنني أقول ما أفكر به وربما في كثير من الأحيان بصدق بعيد عن الحكمة، على كلٍّ الصدق من طبيعتي وتجده في كل إنسان ولد وترعرع في بلادي ومسقط رأسي، كل ما سبق بالإضافة إلى تردي صحتي دعاني إلى مغادرة روما بعد أن سكنتها مدة أربع سنوات.

أنا الآن بجد أشتاق إلى أصدقائي في لو أن صحتي كانت أحسن وخوفي من ما أصابني في البحر لذهبت إلى لونجهورن وأخذت أول باخرة إلى لبنان، إن السفر بالبحر ترك في مخيلتي صورة لا تمحى من الرعب، وبشكل جاد حجبت شوقي، كنت وكأنني أتسرع لألقي بنفسي إلى الردى. البقاء في روما أصبح مستحيلاً، ولهذا وبناء على نصيحة طبية وبرضى قداسة البابا وأصدقائي المهمين في روما صممت على تجربة هواء فرنسا.

في ربيع عام ١٨٣٧ تركت روما وسافرت بطريق عربات

(easy stage) إلى باريس بصحبة الماركيز مونبلان (Marquis de Montblane) الذي تعرفت عليه في روما ، وبقينا أيامًا معدودات في عدة أماكن ونحن في طريقنا مثل : مرسيليا، ليون، ديجون وأماكن أخرى.

رفيق سفري الذي يحظى بسمعة عالية لكونه ورعًا ويتبع الفضائل المسيحية قدمني إلى بطريرك باريس وإلى رؤساء الكثير من الأديرة، كنت أحمل كذلك رسائل التوصية التي كنت قد جلبتها معي، والتي منحتني مجالاً للاتصال بشخصيات مهمة في العاصمة الفرنسية من الذين قدموا لي الخدمات، وكما حصل سابقًا في روما عندما تشرفت وقدمت رسالة توصية لنيافة الأسقفين واللذين بقيا أفضل صديقين لي.

وسأكون مذنبة بقلة العرفان لو تجاهلت إعلاني بقلب مفعم بالشكر إلى الحنو والحماية من قبل الرجل الحكيم والطيب والذي الآن يشغل منصبًا عاليًا في مجلس السلطة والذي يتحكم بمصير الأمة الفرنسية ، كما أنني قابلت الملكة التي استقبلتني بحفاوة واهتمت كثيرًا بمصالحي.

بقيت في باريس من سنة ١٨٣٧ إلى سنة ١٨٤١ وخلالها حصلت على شرف التعرف على علية القوم في تلك العاصمة، وأخيرًا وصلت الأخبار المريعة بأن الأمير العظيم في لبنان الذي يحميني، الكريم والنبيل (الذي كان معيلي ومانحي للهبات طوال فترة بقائي في أوربا إذ إنّه كان يرسل لي بسخاء نفقتي خلال بقائي في أوربا قد نحي عن عرشه وبلده ، وحاله الآن

أفضل قليلاً من حالتي الشقية والمنبوذة.

وصلتني الأخبار وكأنها الصاعقة، إذ علمت بسقوط هذا الأمير الورع المسيحي ودرع المسيحية في الشرق الذي كانت بوابات قصره مفتوحة دائمًا، وأعماله مساندة لهم أولئك للأوربيين من تلك الأمة التي كان ينظر إلى أبنائها على أنهم المفضلون عنده على كل الغربيين، حزني لم يعرف حدودًا، ليمنح الرب النصر مراعاة للعدالة السامية ولقداسة القضية المسيحية، ولينتصر الحق على الباطل والضيق وسوء أخلاق الدوافع غير المسيحية لسياسة مجلس تلك الدولة التي كان اسمها يومًا ما مقرونًا بالخُلق والفضيلة، وعدالة حكمها جعل الألوف من الناس سعداء من مشرق الشمس إلى مغربها، وأنهم لن يسمحوا للأمير الذي وضع نفسه ومصلحته بين أيديهم بثقة تامة أن يبقى بدون مأوى وتائهًا. وفي منفى منكود بعيد عن الناس الذين هم عطشى لعودة حكمه العادل كما عطش المسافر في الصحراء إلى الينابيع العذبة.

الأمير المنكود الحظ قد أعفي من عرشه عن أي جريمة؟ وأدين في أخر أيام شتاء عمره بالنفي الكئيب عن أرض آبائه! أهي الاستعداد بدون تردد لتنفيذ أوامر السلطان كما كان الأمير دائمًا؟ أم لأن الحلفاء الأوربيين الأقوياء اعتمدوا بإيمان مطلق على وعود ذلك السلطان؟ إذا كان الفقر والقمع والمنفى هي مكافأة مناسبة للعدالة والرحمة والولاء والفضيلة؟ إذًا فإن الحكم بهذا المصير للأمير هو حكم عادل. ولكن الامتنان يوجب لكل

فاعل خير من أبناء جنسه، والولاء والطاعة هو استحقاق للثقة بالله على هذه الأرض، فإن النهاية المنكوبة لأمير لبنان ستبقى لطخة قذرة على أخلاقيات السلطات التي كان مطيعا لها وصرخة خزي للنيات الحسنة للشعوب الأوربية.

أنا لا أفقه الكثير عما يحدث في متاهات الدبلوماسية والسياسة للدول ، ولكن لدي الثقة بقوة القضايا العادلة والاعتماد على النيات الحسنة والإحساس بالعدالة التي هي على الأقل القوة التي تتضمن هذه المعاملات ، والتي تعطيني الاطمئنان المفرح بأنه ربما الاستعدادات قد تؤجل مراعاة للدبلوماسية (وهي ربما فوق طاقتي على الاستيعاب والتقدير) ، إلا أنها لن تنتهي أو تحجب وأن الشمس التي غابت عن مركز ومكانة الأمير المشهور والسيئ الحظ، فإنها مرة أخرى ستشع على رعاياها المخلصين، إن القوة الشيطانية للتنافر والشقاق والتي تتبختر بخطوات ملؤها الدماء على الوديان الجميلة للجبل المقدس ستلقى تحت الغبار إلى الأبد.

إنّ تاريخ العملية التي وقعت على السواحل السورية والتي هي ما تشبه الحرب سنة ١٨٤٠ من قبل السلطان وحلفائه الأوربيين المنضمين معه للقضاء على تمرد باشا مصر هي معروفة للجميع [١]

بقية قصتي الحزينة سأرويها الآن ، إن تداعي وسقوط حاميّ النبيل، وسجن عمي في ديار بكر والذي كنت أتسلم منه حوالات مالية قد أنزلاني إلى درك الإملاق والخراب، ونتيجة لهذا اليأس توجهت بتفكيري إلى إعطاء دروس لتدريس لغتي الأم، ونتيجة لتوصية رحيمة وكريمة من قلب النبيل دوق أولينز ، الذي كان مهتمًا أبدًا بسوء طالعي حصلت على بضع طلاب، ولكن الأجر الذي أتسلمه كان قليلاً جدًا ، وعدد طلابي محدود جدًا وغير متواصل ، ولذا فإن مهنتي الجديدة لم تكن توعد بالكثير ، والمستقبل لم ينبئ إلا عن غيوم سوداء ثقيلة لتعاسة قادمة.

---

(١) هنا تورد بتفاصيل دقيقة العملية الحربية والسياسية التي أدت إلى عزل الأمير بشير ونفيه إلى تركيا ، ودور بريطانيا كقوة عسكرية وسياسية في هذه الواقعة ، ومن ضمن الوقائع الوثيقة المعروفة الموقعة من قبل أمير البحر هربرت ستيفورد ومحمد عزة باشا قائد القوة السورية. ثم تشرح الحالة المزرية للأمير التي يعيشها في المنفى إذ أن الباب العالي لم يمنحه ما يستحق من متطلبات السكن والإقامة بل اعتمد الأمير على مدخراته وأمواله فقط. وتلوم بريطانيا وتتساءل عن المصير المختلف لكل من محمد علي باشا والأمير الشهابي وتستصرخ الضمير والبلاط البريطاني من أجل إعادة الحق إلى الأمير الشهابي لا أن يموت ميتة الفقراء والمنبوذين.

الرزايا لا تأتي فرادى ، وفي غمرة ذلك مصائبي جاءت متواصلة وطاغية. لقد سُلبت مني كل أموالي التي أملكها في هذا العالم لتزيد من شدة مصائبي ومنها مصيري غير المفرح كلها تراكمت على رأسي.

وضعت الثقة الكبيرة بحسن نية مجتمع سرقني وخدعني، غشني هؤلاء بلسانهم المعسول ومواعظهم وقدوتهم الأخلاقية والفضيلة والدينية المتواصلة، والذين يستترون بجلود الحملان ويحملون قلوب مسمومة بسم الأفاعي، ليس في الكتب أو في المجالس تعرف قلوب الناس ، ولكن قلوب البشر تعرف في أحلك الظروف التي تكشف الطبيعة الحقيقية ، شيئان لا يعرف غورهما عمق البحر وقلوب البشر.

بنفس مملوءة بالمرارة وفي يوم من الأيام تجولت في (Jardin des Plantes....) حديقة النباتات وتسلقت المرتفع الذي زرعت عليه أرزة لبنان، جلست تحت أغصانها الوارفة الممتدة، أعود بذاكرتي إلى الساعات الجميلة التي قضيتها في أحضان الجبل الخالد حيث جذوره طبعت وتلاحقت عبر أفكاري.

أحدِّق بالشجرة الثابتة وهي الغريبة مثلي ، ومن أرض دفّأتها الشمس وباركتها السماء، ساقها ثابتة وأغصانها الضخمة ممتدة بكل الاتجاهات ومغطاة بأوراقها الرقيقة والراقية ، كل جزء منها يعبر عن العافية والقوة والرخاء كل جزء منها ينم عن أنها ستنمو بشكل تدريجي لتصل البلوغ خلال قرون قادمة، أنفتها ،

وقفتها المتعافية بسبب تأثير المناخ، وكم يختلف مصيرها عن مصيره الذي كان قبل وقت قصير مثل الملك السوري من ذلك الزمان القديم، عندما كان سيد العمالقة ومن أين نبع نشوءه.

إن الشجرة المتفردة انتعشت مثل أجدادها الأقدمين في لبنان الشاهق ولكن الأمير الحزين منبوذ في تدهوره نحو الذبول والذواء في أرض غريبة.

مصعوقة بهذه الانفعالات انفجرت باكية، سلمت نفسي كليا للأحزان، ولكن بعد فترة هدوء حزني وانزياحه مفسحًا المجال أمام قراري بأن أصلي بحميمية إلى الله العظيم ليمنحني القوة كما قد فعل ذلك سابقًا عندما عانيت من مصائب، ووضعت ثقتي كاملة برحمته، جففت دموعي وبتردد تركت الحديقة متجهة إلى بيت أحد الطلبة لإعطائه الدرس.

كنت محظوظة خلال إقامتي في باريس بالتعرف على الكثير من النبلاء الإنجليز ومن أصحاب المقامات العليا الذين كانوا يسكنون في تلك العاصمة، إما من أجل المتعة أو من خلال علاقتهم بالسفارة البريطانية.

كان لي الشرف بالتعرف إلى السيدة جرانفيل (Granville) والسيدة كاولي (Cowley) والسيدة بينتنك (Bentnick) والمطران لوسكمب (Luscombe) والسير جورج دينس (Geogre Denys) والكثير غيرهم من الناس المميزين الذين جاملوني وقدروني، وعن طريقهم تم تعارفي وتقديمي إلى الايرل مونستر(Earl of Munster) الذي كان رئيس الجمعية

الآسيوية في لندن وعندما علم بقدومي من الشرق اهتم كثيرًا بمصالحي ، وعندما عرف بسوء طالعي وما حدث لي من ضغوط غير متوقعة، ونتيجة ذلك تدمير كل أملاكي، فلقد تأثر بذلك وتألم ونصحني لترتيب خطة من الممكن أن توفر لي نفقات مصاريفي الحالية وتدبر احتياجات المستقبل.

إن رئيس الوزراء الفرنسي الحالي كان نِعم الصديق لي والذي لا أستطيع أن أوفيه حقه من الامتنان ، نصحني بالذهاب إلى إنكلترا حيث لديها ممتلكات لا محدودة في الشرق، إذ إنه يتوقع أنني سأبلي بلاء حسنا في جهدي المتواضع لتدريس لغتي الأم، وأن ايرل مونستير (Earl of Munster) أيَّد مسيو م. كيوزون (M. Guizot) بقوة ملحًا عليّ بأن أقدم على هذه الخطوة واعدًا إياي بكل المساعدة التي بقدرته ، عرض علي أن يقدمني إلى بلاط صاحبة الجلالة الملكة فكتوريا ، وسيبذل كل الجهود نيابة عني من أجل أن يحصل لي من الحكومة العثمانية على تقاعد أو تعويض عن الخسارة التي حلت بي من جراء الحملة السورية، التي سببت خسارة تاجر في بيروت والذي كانت محفوظة عنده كمية غير قليلة من ممتلكاتي ، وإذا لم تنجح هذه فإنه سيبذل الجهد للحصول لي على منحة من الحكومة البريطانية، بسبب أن قواتها خلال تلك العمليات الحربية سببت لي الخسارة المذكورة.

تأثرت بشعاعات الأمل هذه والتي تبدو بأنها ستكسر ليالي حظي القاتمة ، صممت على اتباع نصيحتهم ولم يمضِ وقت طويل

حتى تركت باريس متجهة إلى لندن مع رسائل توصية لكثير من الشخصيات المهمة والمعروفة في بريطانيا العظمى.

وصلت أول مرة إلى لندن سنة ١٨٤٠ في شهر أيار وبقيت هناك عدة أشهر ، ثم نصحني إيرل مونستر بالعودة إلى باريس لتصفية قضايا مالية وديون لي لاسترجاعها ، وفعلا عدت إلى باريس لتصفية قضية الديون ، بعد أن ودعت أصدقائي في باريس ، عدت للسكن في لندن في شهر آذار من سنة ١٨٤١ نزلنا في فندق قريب من مكان رسو الباخرة في (Towers Stairs) وكنت بصحبة الكولونيل بويد (..Boyed) وهو رجل جنتلمان كان معي على نفس الباخرة وخصني باحترام شديد ومجاملة، سكنا في فندق ليس بعيدًا عن مكان نزولنا لندن، كان الوقت مبكرًا وطلبنا فطورًا ، ومع الفطور جلب النادل جريدة الصباح وأعطاها إلى زميل رحلتي والذي شغل نفسه بها لحين إعداد الفطور ، وبعد فترة لاحظت تغيرًا في محياه وكأنه قد سمع أخبارًا مزعجة ، واستفسرت منه عن السبب ، وبرعب علمت بأن إيرل مونستير قد انتحر في الليلة السابقة نتيجة لحظة جنون. غلبني الحزن ويبدو أنه لا سبيل لخلاصي من سوء الطالع.

لقد مضى عليّ ثلاث سنوات وأنا أعيش في بابل الجبارة الحديثة هذه ، وخلال هذه السنوات عزلتي كانت مثل عزلة طائر وحيد في الصحراء ، في وسط الملايين أنا وحيدة وصامتة مثلما كنت وحيدة وصامتة في دير مار جرجيس، عوضًا عن حلاوة العزلة

الروحية التي قادني إليها حماسي وحميتي أيام الصبا والتي فضلتها على كل العلاقات الاجتماعية ، إذ كانت تلك حلمًا صغيرًا فقط، أصبحت الآن أجد نفسي في عزلة مختلفة، فظيعة وضرورة حتمية.

لن أتوقف عن اعتبار أن من أفضل ما حدث لي هو تعرفي على (Guizot.M) ، ومن خلال لطفه تعرفت على النبلاء الذين وحتى هذه اللحظة يمثلون الشعب الفرنسي في بلاط لندن، ولقد تلقيت أفضل المعاملة الأخوية والمملوءة عطفا من قبل أولئك الكونتيسات اللطيفات والمتميزات وكأنني أخت لهن.

أولئك الذين جلبت معي لهم رسائل توصية استقبلوني بكثير من المجاملة واستمروا يعاملونني بكثير من المودة والعطف، ولكن كيف يمكن لمجتمع متحضر ومجتمع متصنع مثل المجتمع الإنجليزي أن يعطي المجال لفقيرة وغريبة وبدون ثروة أن تكون علاقتها حميمية بالأغنياء والأقوياء، بل أسهل للجمل من أن يمر من ثقب الإبرة.

الثقافة في المجتمع البدائي في الشرق لا تعني شيئًا للصالونات المتمرسة والبراقة في أوربا، بيننا توجد فضيلة الكرم والصداقة بكامل أوصافها، ولكن وا حسرتاه! الحذق أو التميز المتصنع الذي يزين المجتمع الغربي لا نعرفه في مجتمعاتنا.

سلوتي التي أتنعم بها وأتسلى بها هي زيارة حديقة الحيوانات في ريجنت بارك (Regent Park) والتي كان لي الحظ بأن أدخلها مجانا كل يوم أحد بواسطة عطف أحد الأعضاء المشتركين في

هذه الحدائق.

إن الوحدة وحالة النفي التي تعيشها أغلب الحيوانات تلك لامست قلبي، شعرت بتعاطف معهم أغلبهم مثلي كانوا من أجواء آسيا المشعة وكذلك غرباء وحيدون في أرض غريبة، وضع الأسد يؤلم أكثر من غيره والذي يصور حالتي الفكرية والتي عبرت عنها بالقول يا سليل نبلاء أسياد الغابة أنا مثلك أعيش معزولة بدون أصدقاء في أرض غريبة.

كم هو مؤلم منظر هذا الحيوان المتوطن في بلدي، ورأسه معلق ويسير بخطى رواح ومجيء بغير أنفة وإباء في قفصه الضيق، يحن للحرية وإلى موطنه الأصلي في الغابة. ولكن ما هو شعوري وأنا أرى الجمل سفينة الصحراء زميل ألعاب الصبا، صديقي المعتمد في كثير من المواقف الخطرة والمخلص، ماذا أعاد لي من ذكريات متواصلة منظر هذا الحيوان، أحاسيس بساعات سعيدة طواها النسيان قضيتها في مجتمع الصحراء أيام ربيع شبابي، واحسرتاه على الحيوانات الضعيفة قلت وأنا أنظر إلى الجمل يتحرك ببط وحزن من جهة إلى أخرى في مربطه الضيق، كم يختلف هذا الجو البارد الرطب حيث تعيش أنت عن السموات الصافية والشمس المحرقة التي تملأ سهول آسيا، إليك الحقيقة هنا لا يتوجب عليك أن تقطع الصحاري القاحلة وأنت تئن تحت ثقل الأحمال، ولا يفرض عليك تحمل العطش الشديد، ولكن ألا تفضل تلك وكل الصعوبات في أرض موطنك على أن يطول حبسك وتبقى تحت سماء غير أنيسة ومزرية، لا تكلف

بمهمة ولا يعتمد على فطنتك، وإذ كنت أردد هذه الكلمات باللغة العربية حول الجمل ، نظراته إلي فاتحًا عينيه بكل وسعها ورمقني بنظرة حزينة تعبيرها جعلني أشعر بأنه قد فهمني.

توقعاتي بأنني سأحصل على مورد نتيجة لتدريس لغتي الأم وترجمة مخطوطات وأعمال شرقية لم تتحقق، وربما كان من الممكن أن يحدث العكس لو أن العناية الإلهية أبقت على حياة ذلك الرجل النبيل الذي كان مهتمًا بمصالحي.

لقد ترددت صحتي كثيرًا خلال فترة بقائي في إنكلترا حيث أن عدوي الأكبر مرض (tie douloureus) جدد هجماته بقوة مضاعفة يزورني باستمرار بنوبات مريعة ومتقاربة بحيث تفقدني صوابي.

أليست لوعة الألم للفكر الحميم والحساس تزداد حدة عندما يقابل بالبرود وعدم الاهتمام حينما القلب يحن ويتطلع إلى الحنو والتعاطف؟

الهدوء والصبر والجلد تكون أقصى درجات الفضيلة والبطولة في أوقات الألم والرزايا، ولكن عندما تعلن في حالات غدر الأصدقاء المزيفين فإنها لا تعدو سوى أن تكون نوعًا من الشعور البارد لحب الذات، وحينها تهمد الأحاسيس، وسرعان ما تقود لعدم الاهتمام بكل فاضل وجيد.

الشقة المتواضعة التي أسكن فيها قريبة وتحد كنيسة كاثوليكية كانت دائمًا عزاء لي عندما أستلقي على فراشي متعبة من الألم

والكمد، ولا أستطيع حضور القداس لأتلقف النغمات التقية وهي تتصاعد من الرعية المجتمعة وهم يرددون الصلوات ويلهجون بالشكر ، وأعرف أن الكثير منهم كانوا على معرفة بي وأنا أحضر القداس وأردد صلوات المساء معهم في هذه الكنيسة وغالبًا ما قلت لنفسي ألا يطبقون النصائح التي يسمعونها الآن ويزورون الفقير والمريض؟ ولكن طال انتظاري عبثا.

الجهود التي بذلها أصدقائي لاستعادة أموالي وللحصول لي على تقاعد لم تنجح حتى هذا الوقت، والله يعرف ماذا كان سيمسي حالي لو لم أحظَ بكرم شخصية ورعة، والذي ينحدر من أعلى المراتب والأصول في المملكة ليسمو أكثر بممارسته فضيلة عدم المجاهرة والزهو ، وهذه ملكة ترفع صاحبها فوق كل كرامة وشرف دنيوي، وهذا الكرم كان من صاحب القلب النبيل صديقي مستر هدسون جورني (Hudson Gurney).

يحلو لي أن أذكر المساعد في وقت الحاجة والكروب، خلال إقامتي في لندن كنت مدينة لحنان ونبل وسمو فكر الفارس كافالير بنسون (Chevalier Bunson) الذي يقدم خدمته وجهده لمن يحتاجها، وكذلك لاهتمام زوجته البارعة، وكان من حسن حظي أن أتعرف بواسطة السير روبرت أنجلس (Robert Inglis) على السيدة زوجة المرحوم مستر ريج (Rich) والذي كان يشغل منصب القنصل البريطاني في بغداد، كان معروفًا بالصدق والكرامة في تنفيذ واجبه، والمتضلع في بحوثه ، وكانت هي خير سند لي في المرض، كما أنها كانت تخفف الألم

عني وتجبر خاطري في نكبتي.

ولِم اليأس ، والحكمة الإلهية قد رمتني على شواطئ سكانها ، مشهورون حتى أبعد زوايا الأرض بكونهم نبلاء في تقديمهم المساعدة لكل مريض ولكل جائع ، وكذلك فإن العاري يُكسى والفقير وعديم المأوى لن يعدم أن يجد ملجأ.

ولهذا فإنني سأتشجع وأمكث بصبر وأستسلم لمجريات الأمور والحوادث، وبصلوات حارة.

أرجو كل من يقرأ هذه الصفحات ألا يصادف نصف المصائب التي تسلطت عليّ أنا، الآن أودع الجمهور البريطاني بالسلامة.



د. أمل بورتر

- بريطانية الأصل. والجنسية بريطانية / عراقية ، مولودة في بغداد من أب إنجليزي من مدينة كارلايل - كمبريا وأم عراقية عربية.
- اختصاص في الفن وتاريخ الفن من بريطانيا، العراق، الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي، ومن روسيا الاتحادية.
- عملت كمستشارة لثقافات الأقليات العرقية لكلية نورث تاين سايد ضمن مشروع ترويج التعددية الثقافية.
- عملت مع الإدارة المحلية لمنطقة نورثامبريا لمراقبة والإشراف على التقدم الدراسي لأطفال الأقليات العرقية.
- حاضرت عن تاريخ الفن في كلية التربية الفنية في جامعة السلطان قابوس مسقط عمان.
- مستشارة العلاقات الفنية – الثقافية للأقليات العرقية وترويج الوعي الفني لعدد من المؤسسات المدنية غير الربحية.
- عملت كمستشارة لثقافات الأقليات العرقية لكلية نورث تاين سايد ضمن مشروع ترويج التعددية الثقافية.
- شاركت في هيئة استشارية حول قضايا المرأة في لجنة وزارية بريطانية منذ ٢٠٠٢م.
- عملت في المتحف العراقي ببغداد لمدة أربع عشرة سنة.
- مؤسسة ومنسقة وعضو الهيئة الإدارية لعدد من المنظمات المدنية غير الربحية التالية : جمعية نشر التعدد الثقافي، جمعية إحياء التراث ، ونقابة الفنانين التشكيليين في إنكلترا.
- باحثة في الفنون التشكيلية.

- **تنشر المقالات بالعربية والإنكليزية في الصحف والدوريات العربية ومواقع الإنترنت.**
- **نالت شهادة تقديرية من سلطنة عمان عن بحث عنوانه "مساجد مسقط وتناغمها مع البيئة".**
- **أقامت وشاركت في عدة معارض تشكيلية في لبنان، العراق، السويد، سلطنة عمان، المملكة المتحدة، النمسا.**
- **فازت بالجائزة الأولى للوحاتها التي عُرضت في لشبونة/ البرتغال، بينالي البحر الأبيض المتوسط ٢٠١٣م.**
- **فازت بالجائزة الألفية من قبل مؤسسة Community Foundation UK ، وهي جائزة نقدية وعينية، كذلك حصلت على زمالتها عن بحثها في تقصي دور المرأة اللبنانية الإيجابي في "درء الأزمات/ الحرب الاهلية اللبنانية كدراسة ميدانية".**

- **الإصدارات :**

– **صدر لها كتاب عن تجربة والدها في العراق بالعناوين التالية المختلفة ، بالعربية والإنكليزية :**

– **العراق ما بين الحربين العالميتين (١٩١٥- ١٩٤٥ / سيرة ورسائل سيرل بورتر/ الرحيل الى مسوبوتاميا /تلك البلاد/ رسائل ما بين كارلاليل، بنكلور وبغداد)**

– **سوسن وعثمان : رواية**

– **دعبول : رواية**

– **نـوار : رواية**

– **البلابل لا تغرد : رواية**

– **ترجمة أشعار "لاوتسه" الحكيم الطاوي الصيني.**

- كتاب أميرة بابلية : باللغتين العربية الإنكليزية ، ترجمة وتحرير لسيرة حياة ماري تيريز أسمر ما بين نينوى- العراق، وقصر بيت الدين- لبنان ، وفي إيطاليا وفرنسا وبريطانيا؛ في أربع طبعات.
- ملصق "جدران بيروت تحكي" سرد لتاريخ وواقع وأحاسيس بيروت عبر جدرانها
- سيصدر قريبًا كتاب "رسائل من سجن أبو غريب عن دار بيسان في بيروت/ لبنان

شاركت في العديد من اللقاءات والمؤتمرات الدولية، منها :

- مؤتمر الفن والجمال والقبح ، جامعة نورثامبريا
- مؤتمر الفن في خدمة البيئة ، نيوكاسل.
- محكمة النساء ، بيروت / لبنان.
- مؤتمر المرأة المهاجرة والفن ، كراتز/ النمسا والمكسيك برعاية هيئة الأمم المتحدة.
- مؤتمر فنون الشرق الأوسط والفن الاوربي برشلونة / إسبانيا ، برعاية الأمم المتحدة.
- مؤتمر في فلورنسا / إيطاليا ، عن سيرورة و تطور المرأة العربية.
- مؤتمر المثقفين العراقيين في العراق.
- ندوة ومحاضرة في الجمعية الكلدانية / مشيكان / أمريكا ، عن دور المرأة في النهضة الاجتماعية - ماري أسمر كنموذج.
- مؤتمر الأقليات العرقية في العراق لجامعة لندن.
- ندوة ومحاضرة في ستوكلهولم / السويد / ومالمو.

- **مؤتمر وأبحاث جمعية آرام / جامعة أكسفورد البريطانية ، حول ثقافات دول الشرق الأوسط.**
- **مؤتمر حماية الأديان السليمانية.**
- **ملتقى الكتاب في عمَّان/ الأردن ، الذي أقامته دار فضاءات للنشر.**
- **أمسيات المتنبي الشارع والشاعر السنوية العامة ، لمدة ست سنوات تخليدًا واستذكارًا واستنكارًا لتفجيرات شارع المتنبي في بغداد.**
- **مؤتمر "نعم" للثقافات المتعددة لنقابة فناني إنكلترا في لندن.**
- **تلقى محاضرات عن الفن وتاريخ الفن والاندماج الحضاري بدعوة من جامعات ومؤسسات وجمعيات مختلفة عربية وأجنبية وعالمية باللغة العربية والإنكليزية.**
- **كُرمت من قبل وزارة الثقافة العراقية / هيئة الآثار العامة بدرع الوزارة لدورها في التوعية لحماية وصيانة الآثار.**
- **مؤتمر النقابات العالمي في جينيف/ سويسرا ، كمتكلمة عن حماية التراث العالمي.**

- **البريد الإلكتروني : porter_e@hotmail.com**



Tel :(+2) 01288890065
www.shams-group.net